

دراسات في نياخ مصر في عهد البطامة

تأليف

دكتور إبراهيم نصحي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدنيا سابقاً)

١٩٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

- هذه بعض أبحاث في تاريخ البطالة سبق لى نشرها متفرقة ، ورأيت أنه قد يفيد الباحثين نشرها متجمعة بعد مراجعتها فى ضوء ما كشف عنه من الوثائق وما نشر من الأبحاث منذ ظهور أبحاثى لأول مرة ، ولاسيما أن الطبعة الثانية لكتابى « تاريخ مصر فى عصر البطالة » قد تأخر ظهورها وربما تمر فترة غير قصيرة قبل أن يتيسر ذلك .

وفقنا الله جميعاً وسدد خطانا فى خدمة العلم والوطن ما

ابراهيم نصحي

فبراير سنة ١٩٥٩

فهرس

صفحة

- ١ — الإسكندرية ١ — ٤٥
- ٢ — الإسكندر ووحى آمون ٤٦ — ٧٢
- ٣ — الاتجاهات الجديدة فى سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة ٧٣ — ٩٥
- ٤ — أسطول البطالمة الحربى ٩٦ — ١١٤
- ٥ — البحر الأحمر فى عصر البطالمة ١١٥ — ١٢٥
- ٦ — العلاقات بين مصر والدول العربية فى العصر الهيلينستى . ١٢٦ — ١٥٧
- ٧ — نقود البطالمة ١٥٨ — ١٩٣
- ٨ — مظاهر التقاء الحضارتين المصرية والإغريقية فى عهد البطالمة ١٩٤ — ٢٣٠

الإسكندرية

على بعد نحو من أربعين ميلا من نقراتيس في الاتجاه الشمالى الغربى ، وعلى مسافة بضعة أميال غربى فرع النيل الكانوبى ، اختار الأسكندر البقعة التى شيدت عليها مدينة الإسكندرية ، وهى تقع على ذلك الشريط من اليابسة الذى يفصل البحر من بحيرة مريوط . ويبدو أن الأسكندر قد اختار هذه البقعة لجفافها وارتفاعها عن مستوى الدلتا وبعدها عن رواسب فرع النيل الكانوبى ، وسهولة وصول مياه الشرب إليها ، وقرب جزيرة فاروس^(١) وبحيرة مريوط منها . فقد قدر الأسكندر أنه بعد جسر من الجزيرة إلى الشاطئ يمكن توفير مرفأين فى هذا المكان ، يستخدم أيهما تبعا لاتجاه هبوب الريح ، وأن البحيرة يمكن استخدامها مرفأ للمراكب الآتية من داخل البلاد عن طريق النيل^(٢) .

ولعل وجه الشبه بين موقع جزيرة فاروس تجاه شاطئ الدلتا وموقع صور^(٣) على جزيرة تجاه الشاطئ الأسيوى هو الذى لفت نظر الأسكندر^(٤) إلى ما يتوافر لموقع الإسكندرية من مميزات^(٥) فقرر على الفور إنشاءها دون تديير سابق ، بدليل ما ترويه المصادر القديمة عن عدم توافر كمية كافية من الجير لتعيين مواقع أسوار المدينة والاستعانة بالدقيق المخصص لمثونة الجنود لإتمام التخطيط مما اعتبر فالا سميذاً ينم عما ستصيبه المدينة من الرخاء والرفاهية^(٦) .

(١) كانت فاروس تقع شمالى الإسكندرية بنحو ميل ويبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال ويقول هوميروس أنه كان يوجد بها مرفأ أمين (Bevan, p. 6) .

(2) Hogarth, Alex. in Eg., J. E. A., II, 1915, p. 55; Jouguot, Mac. Imp. p. 278

(٣) كانت صورة تقع على جزيرة تجاه الشاطئ الأسيوى ومن أجل فتحها اضطر الأسكندر إلى تشييد جسر يربطها بالشاطئ فأصبحت جزءا متصلا باليابسة ونشأ عن إقامة هذا الجسر ميناءان مثل ما حدث فيما بعد فى الإسكندرية عندما ربط جسر الهيتاستاد يوم جزيرة فاروس بالبر .

(4) Cf Van Groningen, Apropos de la fondation d'Alex., Aegyptus, 1925, pp. 200 m.

(5) Cf. Arrian. III, 1, 5; Curt., IV, 8, 1.

(6) Arrian. III, 2, 1 — 2; Plut. Alex. 26; Curt. IV, 8, 6; Amm. Marcellinus, XXII, 16, 7.

وما الذى حدا بالأسكندر إلى تأسيس الإسكندرية ؟ هل أراد أن يجعل هذه المدينة مقر إمبراطورية تتألف من عالم البحر الأبيض المتوسط ؟ نحن لا نستبعد على الإسكندر أى مشروعات إنشائية ، لكننا نستبعد أن يقصر إمبراطوريته على هذه الدائرة الضيقة ، فقد كان هدفه الاستيلاء على آسيا بل العالم^(١) . أم هل فكر فى جعل الإسكندرية مقر إمبراطوريته العالمية ؟ ونحن نستبعد ذلك أيضاً لأنه لو قصر إمبراطوريته على العالم الأغريق والإمبراطورية الفارسية لكانت بابل بحكم موقعها أفضل من الإسكندرية للاضطلاع بهذه المهمة . ولو صح ما قيل من إنه كان يريد فتح الغرب أيضاً^(٢) لأتجه بتفكيره إلى أثينا بحكم ماضيها ومكانتها وموقعها . أم هل أراد ، وقد حطم منذ فترة قصيرة مدينة صور التى كانت أكبر ميناء فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، أن ينشئ هنا ثغراً مقدونيا يخلف صور فى العالم التجارى^(٣) ؟ هذا محتمل ، ولا سيما أنه لم يكن لمصر ميناء جدير بأهميتها وغناها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وذلك بالرغم من أن علاقاتها بعالم بحر إيجه كانت فى ازدياد مطرد منذ عدة قرون خلت . ولا أدل على ذلك من أن الفراعنة قد تركوا منذ مدة طويلة عواصمهم القديمة فى الجنوب واتخذوا مقرهم فى الدلتا التى أصبحت قلب بلادهم النابض ، إلى حد أن الإسكندر لم يرض ضرورة للذهاب إلى الحدود الجنوبية واكتفى بإرسال حامية صغيرة إلى الفنتين لتحمل إلى اهالى إقليم طيبة نبأ وصول عاهلهم الجديد^(٤) . وبعد ضم مصر إلى حظيرة الإمبراطورية المقدونية كان طبيعياً أن يزداد اتجاه نشاطها نحو بحر إيجه . ولعل هدف الإسكندر لم يكن اقتصادياً فحسب بل كان حربياً أيضاً ، بأن يجعل من الإسكندرية قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر إيجه وشرق البحر الأبيض المتوسط . ولعله أراد كذلك أن تكون مدينته الجديدة وقد قامت على أسس الحضارة الأغريقية منبعا يفيض بماء هذه الحضارة فينشر خصبها بين ربوع الشرق القديم .

(1) Jouguet, Nat. Eg., III, p. 4.

(2) cf. Diod. XVIII, 4; Tarn, J. H. S. 1921, pp. III; 1939, pp. 124 ff.

(3) Bevan, p. 4; C. A. H. VI, p. 377.

(4) Jouguet, Mac. Imp., p. 29.

ويبين أن الإسكندرية كانت أول ميناء لمصر على مياه البحر الأبيض المتوسط العميقة ، لأن بلوزيون — إذا صح ما يرويه استرابون ^(١) — كانت تقع على فرع النيل البلوزى على مسافة أربعة كيلو مترات تقريباً من البحر . وقد كانت نقراطيس تبعد كثيراً عن البحر . أما كانوب ، التى كانت تعتبر ميناءها ، فلا يبعد أنها لم تكن أكثر من مأوى عند مصب النيل . (أنظر خريطة مصر فى عصر البطالمة) وإذا كانت بلوزيون قد احتفظت بمكانتها باعتبارها مفتاح مصر من ناحية الشرق — وترينا وثائق زينون أن جماركها كانت عامرة فى القرن الثالث بما يتدفق عليها من واردات سوريا — فإن نقراطيس فقدت أهميتها تبعاً لزيادة أهمية الإسكندرية التى جذبت إليها أنظار الشرق والغرب معاً وأصبحت تلعب دوراً كبيراً فى حياة مصر الاقتصادية لا باعتبارها عاصمتها فقط بل أيضاً باعتبارها ميناءها الأول . فقد كان تستقبل من الخارج ما تحتاج إليه البلاد فتوزعه عليها ، ويأتى إليها من كل أنحاء البلاد ما يزيد على حاجتها فتصدره إلى مختلف الأسواق الخارجية . ولم تكن الإسكندرية مركزاً تجارياً ممتازاً فحسب بل كانت أيضاً مركزاً صناعياً هاماً ^(٢) .

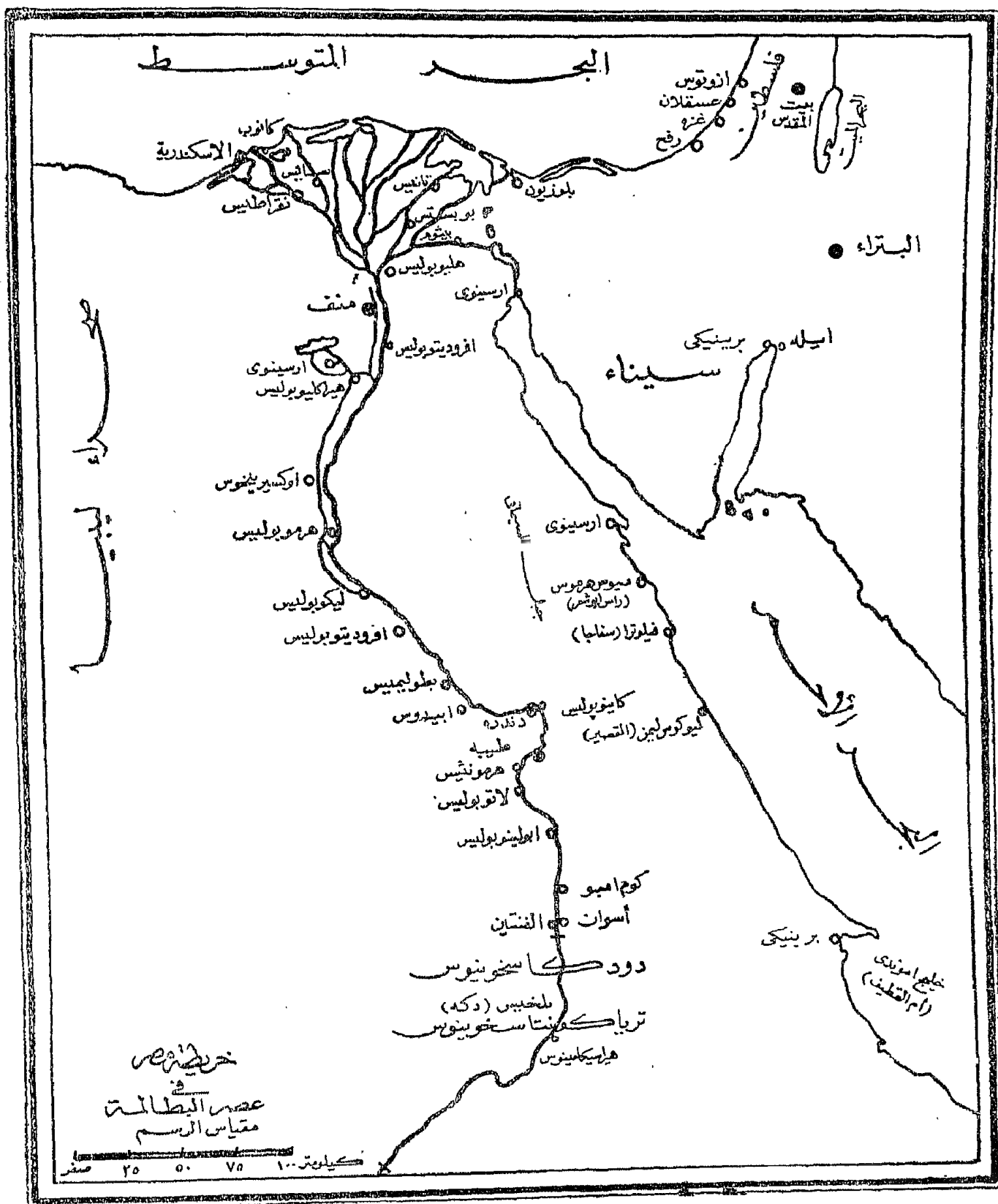
وسرعان ما عدت الإسكندرية أكبر مدينة أفريقية فى العالم تفوق فى اتساعها أكبر المدن القديمة : أثينا وكورنثا وسيراكوز ^(٣) . وقد غدت كذلك فى طبيعة عواصم الحضارة الأفريقية واستتمعت بمكان الصدارة فى حلبة هذه الحضارة طوال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، فلا عجب أن خلعت اسمها على حضارة هذين القرنين .

ويبدو مما يرويه استرابون أنه كانت تقوم فى البقعة التى شيدت الإسكندرية عليها قرية تدعى راكوتيس (Rhakotis) إذ يحدثنا بأن ملوك مصر السابقين كانوا قانمين بمنتجات بلادهم ولا يريدون استيراد شئ من الخارج ، ويكرهون الأجانب وخاصة الأفريق لما عرف عنهم من الجشع فى اغتصاب البلاد الأجنبية . ولذلك أقاموا فى هذه البقعة حامية عسكرية لصد الأجانب عن دخول البلاد وأنزلوا

(1) Strabo, XXI, 802.

(2) Jouguet, Trois Etudes, pp. 91 ff.

(3) Rostovtzeff, S. and E. Hist. of Hellenistic World, p. 415.



جنودهم في القرية التي كانت تعرف بإسم راكوتيس ، وأصبحت جزءاً من مدينة الإسكندرية وراء أحواض الميناء ^(١) . ونقرأ في « قصة الإسكندرية » التي تعزى إلى كاليستينيس أن البقعة التي شيدت الإسكندرية عليها كان يقوم عليها قديماً ست عشرة قرية مصرية كانت راكوتيس أكبرها ^(٢) .

وتدل الأبحاث الجيولوجية الحديثة على أن شاطئ الإسكندرية كان في عصر ما قبل التاريخ يتألف من سلسلة من الجزائر الصغيرة ، تقع عند مدخل الخليج الذي أصبح فيما بعد بحيرة مريوط ، لكن ارتفاع سطح البحر بالتدريج ونراكم رمال الصحراء أدّى على تماقب الأجيال إلى ربط هذه الجزر بعضها ببعض وتحويل الخليج إلى بحيرة . وبمضى الزمن طرأت تغييرات أخرى على أرض الإسكندرية ، فإن مستواها اليوم قد انخفض عما كان عليه في عصر البطالمة والرومان مسافة تتراوح بين متر ومتر ونصف أو أكثر من ذلك . ويبدو أن هذا الانخفاض قد حدث بالتدريج ، إما نتيجة لهزات زلزالية عنيفة أو نتيجة لإحدى الظواهر الجيولوجية أو لارتفاع مستوى البحر . ويجب أن يلاحظ أيضاً أن مستوى المدينة القديمة أوطأ من مستوى المدينة الحديثة ببضعة أمتار لا بسبب هذا الهبوط فحسب بل بسبب مخلفات المعصور المختلفة التي كونت طبقات فوق طبقات ، إذ أنه لكي نصل إلى مستوى المدينة في العصر الروماني يجب أن نحفر في باطن الأرض ستة أو سبعة أمتار . ولذلك لا بد من أن اطلال المدينة البطلمية تقع على عمق أبعد من ذلك ، ومن ثم يرجح أن المياه تفر كل طبقات ذلك العصر ^(٣) مما جعل مهمة علماء الآثار في إعطائنا صورة كاملة لمدينة الإسكندرية القديمة مهمة عسيرة .

وقد كان يظن أن فاروس لم تكن وقت مجيء الإسكندرية أكثر من مأوى لبعض صيادى السمك المصريين ، وأن الإسكندر وخلفاءه من أفراد أسرة البطالمة هم الذين أنشأوا في هذا المكان ميناء عظيماً . لكن أبحاث جاستون چونديه « Gaston Jondet » أثارت مشكلة هامة ، فإنه كشف في قاع البحر ، عند المكان

(1) Strabo, XVII, 792.

(2) Ps. - Callisthenes I. 32 (ed. G. Kroll).

(3) Breccia, Alex. ad Aeg., pp. 66, 67, Eng. Ed.

الذى كان يعرف قديماً باسم جزيرة فاروس ، عن بقايا أرصفة ومنشآت بحرية ضخمة . ولا يعرف اليوم هل كانت هذه الأطلال جزءاً من ميناء الإسكندرية في العهد الإغريقى ، أو جزءاً من ميناء أقدم عهداً من ذلك ثم أهمل وعفا عليه الزمن قبل الفتح المقدونى . أما جوندته فإنه يميل إلى الاعتقاد بأن رمسيس الثانى هو الذى أنشأ الميناء المندر ، ليحمى مصر من طغيان سكان البحار ، ويقول : « إن مواد البناء ضخمة ، كما هى الحال فى أبنية الفراعنة ، ولا بد من أن نقلها وإنشاءها كان أصعب من إقامة الأحجار التى تتألف منها الأهرامات الكبيرة » ^(١) . ويظن عالم آخر أن سيادة كريت البحرية ، فى خلال الألف عام الثانى قبل الميلاد ، إمتدت حتى شملت فى وقت ما هذا الجزء من الشاطئ المصرى ، وأن هذه البقايا المغمورة فى الماء ترجع إلى ذلك العهد ^(٢) . وفى الواقع لا يمكن القطع برأى فى هذا الموضوع قبل أن تدرس هذه البقايا القديمة دراسة وافية .

وقد اهتم الكتاب القدماء بتفاصيل قصة تعيين مواقع أسوار المدينة أكثر من اهتمامهم باعطائنا معلومات دقيقة عن مقاييس الأسوار وأبعادها وشكلها ومواقعها . وقد انفرد تاسيتوس « Tacitus » ^(٣) من بين المؤرخين القدماء بأن عزا إنشاء الأسوار إلى بطليموس الأول ، أما غيره من المؤرخين فإنهم لم يشيروا إلى الأسوار إلا إذا عرضت مناسبة للإشارة إلى أحد الحصارات التى عانتها المدينة . ولا سبيل إلى الشك فى أن أسوار الإسكندرية كانت أعظم من أسوار أى مدينة إغريقية أخرى ، فيما عدا سيراكوز وأثينا . وقد أثبتت الحوادث أنها كانت منيعة على الدوام ، فقد فشل أمامها أنطيوخوس الرابع ملك سوريا فى عام ١٧٠ و ١٦٨ ق . م . وقضى دقلديانوس ثمانية أشهر للإستيلاء عليها فى عام ٢٩٥-٢٩٦ . ويكاد ينحصر كل ما نعرفه عن هذه الأسوار فى العهد الإغريقى فيما يلى :

(1) Gaston Jondet, Les Ports submergés de l'ancienne île de Pharos (Memoires présentés à L'Inst. Eg., Vol. IX, Le Caire, 1916).

(2) Raymond Weill, Les Ports antihelléniques de la côte d'Alex. et l'empire Crétois , Bull. Inst. Fr. Ar. O., 1916, XVI.

(3) Hist. IV, 88.

(أولا) أنه كان يحيط بالإسكندرية منذ تأسيسها أسوار يبلغ أقصى طولها حوالي ١٥ ك. م .

(ثانيا) حصنت هذه الأسوار بإقامة أبراج عليها في مسافات متقاربة .

(ثالثا) كانت هذه الأسوار تتبع من الناحية الشمالية الشرقية مجرى الشاطئ ، حتى رأس لوخيلاس « Lochias » ، ثم تتجه نحو القناة المتفرعة من الفرع الكانوبي (١) .

ويحدثنا استرابون بأن المدينة كانت تبلغ (٣٠ ستاديا Stadia ومفردها Stadion = ٦١٠ قدم أو ١٨٥,٩ متر) في الطول وسبعة أو ثمانية في العرض (٢) أما استفان البيزنطي فيروى أن طول المدينة كان ٣٤ ستاديا وعرضها ثمانية (٣) .

ومن المعروف أن المدينة الإغريقية كانت تتألف عادة من المدينة وإقليمها الزراعى ، لكن البعض يعتقد أن الإسكندرية لم تتألف إلا من المدينة وضواحيها ، وذلك لأن ما يعرف بإقليم الإسكندرية كان في العهد الرومانى منفصلا عن المدينة ويكون مديرية على حدة تحت سيطرة قائدين في هرموبوليس پارقا « Hermopolis Parva » ، ويحتمل أن هذا النظام كان سائدا في عهد البطالمة أيضا (٤) . وحتى إذا صح هذا الفرض ، فإنه لا يدل في رأينا على أنه لم يكن للإسكندرية إقليم زراعى ، بل على أنه كان لها إقليم كبير إلى حد أنه كان يكون مديرية بأكملها . في هذا أبلغ دلالة على عطف البطالمة وحدهم على مواطني عاصمتهم الإغريق . ويجب ألا نخلط بين إقليم الإسكندرية « Alexandreias chora » ، وبين ذلك الجزء من مديرية ليبيا الذى كان يطلق عليه أفوريسمنى « Aphorismene » وتخصص منتجاته للإسكندرية . ومما تجدر ملاحظته أن الإسكندرية كانت لا تعتبر جزءا من مصر وإنما مجاورة لها ، على حد تعبير الإغريق والرومان الذين كانوا يدعونها الإسكندرية بجانب مصر « pros Aigypto أو kat, Aigypton (٥) أو adAegyptum »

(1) Breccia, op. cit., p. 71.

(2) Strabo, XVII, 1, 8.

(3) Breccia, op. cit., p. 69.

(4) Jouguet, Vie, p. 8.

(5) Rostovtzeff, Soc. and, Ec., p. 415.

وقد كان يحتفل بعيد تأسيس الإسكندرية في الخامس والعشرين من طوبة «Tybi» مما يدعو إلى الاعتقاد بأن حفل التأسيس أقيم حوالى ٢٠ يناير عام ٣٣١ ق . م (١) . وكان المهندس الذى استخدمه الإسكندر لتخطيط المدينة يدعى دينوكراتس « Dinocrates » . وقد طبق هذا المهندس أفكار تخطيط المدن التى نشرها هيبوداموس « Hippodamos » من ميليتوس في القرن الخامس قبل الميلاد ، وطبقت في إعادة تخطيط بيرايوس « Peiraos » ورودس وهاليكارناسوس (٢) . وأهم طابع لتخطيط الإسكندرية هو شوارعها التى تجرى في خطوط مستقيمة من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، حتى لتشبه لوحة الشطرنج . وقد شبه الأقدمون شكل رقعة المدينة بشكل عباءة الحرب المقدونية (٣) وكانت كجزء من دائرة يبلغ طوله ضعف عرضه تقريبا .

وإذا كان كليومينيس النقراطيسى هو أول من بدأ في إقامة منشآت الإسكندرية وكان كل البطالة تقريبا قد أسهموا في تجميل هذه المدينة ، فلا سبيل إلى الشك في أنه كان لبطلليموس الأول الثانى أكبر نصيب في ذلك . ويبدو أنها في عهد بطلليموس الثانى كانت قد استكملت أهم مظاهرها التى اشتهرت بها في عهد الإغريق والرومان . وكان بها شارعان رئيسيان يزيد عرض كل منهما على ثلاثين ياردة ، وتقوم على جانبيهما دهاليز أعمدة كانت تضاء ليلا (٤) . وكان أحد الشارعين الرئيسيين يمتد من باب كانوب (أبوقير) في الشمال الشرقى إلى باب الغرب في الجنوب الغربى . أما الآخر فكان يجرى من باب الشمس عند بحيرة مربوط في الجنوب الشرقى إلى باب انقمر عند أو شرقى الجسر الذى يربط الشاطئ بجزيرة فاروس . وقد كان هذا الشارع يتقاطع عند وسطه تقريبا فيما يظن مع الشارع الأول فيتألف في ذلك المكان ميدان كبير (Mason Pedion) (٥) . وكانت بقية الشوارع بوجه عام تجرى موازية لهذين الشارعين الرئيسيين . وكان كثير من هذه الشوارع يسمح لمسير العجلات ،

(1) Bevan. p. 7; Jouguet, Ps. — Callisthene et la Fondation d' Alex., Bull. Inst. Eg. XXIV, 1942, pp. 159 - 74.

(2) Breccia' op. cit., p. 67.

(3) Plut., Alex. 5, 11; Strabo, loc. cit.

(4) Rostovtzeff, Soc. and. Ec., p. 417.

(5) Jouguet, Mac. Imp. p. 278; Parsons, The Alex.L library. .p. 98'

وذلك على نقيض الشوارع الضيقة التي كانت توجد عادة في المدن الإغريقية القديمة. ويبدو أنه عندما توفيت أرسينوى فيلادلفوس كان من بين ما فعله بطليموس الثاني لتخليد ذكرها أنه أعاد تسمية شوارع الإسكندرية أو على الأقل ما يمر منها في الحى الملكى وأطلق عليها اسم أرسينوى، إذ تحفظ وثيقة بردية أسماء عدد من شوارع الإسكندرية يحمل كل منها اسم أرسينوى، لكنه لتمييز بعضها عن بعض أضيف إلى اسم أرسينوى في كل حالة لقب إحدى الآلهات الإغريقية التي شبهت بها. فقد أضيف إلى اسم أرسينوى الألقاب التالية باسيليا (Basileia) وكذلك تليا (Teleia) تشبها بهيرا، واليوسنيا (Eleusinia) على غرار ديمتر، وإليوم (Eleemon) مثل أوفروديتي في قبرص، وخالكيويكوس (Chalkioikos) كأثينا في إسبرطه^(١). وكانت قوانين المدينة تقضى بأن يترك بين كل بيت وما يجاوره مسافة قدم واحد على الأقل، إلا إذا تم الاتفاق على عكس ذلك بين الجارين، اللذين كان يحق لهما إذا شاءا بناء جدار مشترك بين بيتيهما^(٢).

وقد ربط جزيرة فاروس بشاطئ المدينة جسر أطلق عليه اسم الهبتاستاديون (Heptastadion)، لأن طوله كان ٧ ستاديا أى حوالى ١٣٠٠ متر) فنشأ عن ذلك ميناءان أحدهما إلى الشرق ويدعى «الميناء الكبير» (Megas Limen) والآخر إلى الغرب ويدعى «أيونوستوس» (Eunostos). ويظن أن هذا الاسم إما مأخوذ من اسم ملك سولى في قبرص، زوج ابنة بطليموس الأول، أو لأن معنى هذا الاسم بالإغريقية «العودة السالمة»^(٣). وكان هذان الميناءان يتصلان بواسطة ممرين في جسر الهبتاستاديون عند طرفيه^(٤). وقد خصص لاستعمال الملوك ميناء خاص يسمى «ميناء الملوك» ويقع على الشاطئ الجنوبي للميناء الكبير تجاه جزيرة أنتيرودوس (Antirrhodos)^(٥)، الواقعة في الجنوب الشرقي داخل

(1) P. Lond. inv. 2243 (252 B. C.); Bell, Archiv, VII, pp. 22 ff.; J. E. A. XII, 1926, p. 247; XIII, 1927, pp. 171 ff.; Bevan pp. 91 - 92.

(2) P. Halensia, i, II, 91 - 97; Partsch, Archiv, VI, p. 47; Bevan, p. 92.

(3) Bevan, p. 94.

(4) Jonguet, op. cit., p. 280

(5) Graindor. La Guerre d'Alex., p. 48.

الميناء الكبير . وكان يمتد من رأس لوخيلاس ، الذى يؤلف الجانب الشرقى للميناء الكبير ، لسان يحمى هذا الميناء من التيارات والرياح الشمالية . ولا يفصل هذا اللسان عن الصخرة التى تقوم عليها المنارة شرقى جزيره فاروس إلا مدخل ضيق للميناء الكبير .

وكان يقوم على رأس لوخيلاس (منطقة السلسلة الحديثة) معبد وجانب من القصور الملكية ، وكانت تمتد حتى تجاه جزيرة أنثيرودوس حيث كان يوجد المسرح ويليه معبد بوسيدون على نقوء داخل الميناء الكبير . وقد أضاف أنطونيوس إلى هذا الفتوء جسراً شيد عند طرفه مسكناً منعزلاً عرف باسم التيمونيوم (Timonium) . وبعد ذلك كان يوجد معبد قيصر (Cesareum) الذى بدأت كليوباترة السابعة ببناءه وأتمه الرومان بعد الفتح [والسوق والأرصقة والمستودعات . ويبدو أن الأرصفة وما يجاورها من المستودعات « Apostaseis » كانت تكون قسماً خاصاً « Exhairesis » تفصله أسوار عن المدينة ، وكانت البضائع تنقل إلى هذا القسم دون فرض مكوس عليها . أما البضائع التى كانت تنقل من هناك إلى المدينة فقد كانت تجبى عنها المكوس المقررة ^(١) . والرأى السائد هو أن الترسانة الملكية كانت تقع داخل الميناء الكبير ، وإن كنا لا نستطيع قبول هذا الرأى ، لأنه فى خلال « حرب الإسكندرية » جر الإسكندريون من هذه الترسانة مراكب قديمة كانت متروكة هناك ، فلو كانت الترسانة تقع فى تلك المنطقة حقاً ، لتمذر على الإسكندريين عمل ذلك لأننا نعرف أن قيصر كان يسيطر على الميناء الكبير طوال هذه الحرب . ولذلك لا بد من أن الترسانة كانت خارج نطاق الميناء الكبير ، ونرجح أنها كانت فى ميناء إيونوستوس ، ولا سيما أن استرابون يشير إلى وجود ترسانة هناك ^(٢) . ولعلها كانت توجد بالقرب من الحوض الداخلى فى هذا الميناء ، الذى كان يعرف باسم الصندوق « Kibotos » .

وقد كان حى القصور الملكية « Broucheion » يطل على الميناء الكبير ويمتد

(1) Preisigke, Archiv, V, pp. 306 - 307; Wilcken, Chrest. no. 260.

(2) Grainger, "p. 68.

فيما بين البحر وشارع كانوب ويشغل ربع مساحة المدينة أو ثلثها تقريبا ، ويكون الجانب الأكبر مما يعرف باسم المدينة الجديدة « Neapolis » في الجزء الشمالي الشرقي من الإسكندرية ، حيث كانت تقوم أروع معالم العاصمة . فقد كانت توجد في هذا الحى القصور والحدائق الملكية وحدائق الحيوان التى زينت بنافورات رائعة ، ودار العلم « Mouseion » ويظن أنه كان يتصل بها هيكل هوميروس — الذى شيده فياوباتور — والمكتبة . وكانت توجد فى هذا الحى كذلك دار القضاء (Dekasterion) ، والجيمنازيوم ، وكان مقر الحياة الاجتماعية لمواطنى الإسكندرية المتمتعين بحقوق المواطنة ، وكان بناء رائعا له بهو أعمدة تمتد مسافة تزيد على ستاديين (ويظن أنه كان يوجد شمال شرقى الحى الذى يعرف اليوم باسم كوم الدكة) . وكان يوجد هناك أيضا البانيون (Panceion) وهو تل صناعى أقيم اجلالا لئلا يان ، تشرف قته على المدينة بأكملها وتحيط به حديقة (يظن أنه تل كوم الدكة) . وكانت توجد كذلك فى هذه المنطقة السياما (Sema) وهى المعبد الجنائزى الذى دفن فيه الإسكندر داخل تابوت من الذهب ^(١) . وبعضى الزمن شيدت حول هذا المعبد معابد جنائزية أخرى للبطالمة المؤلمين ، فإن بطليموس الثانى بدأ هذا العمل بتشيد معبد لأبويه ومعبد آخر ، فيما يظن ، لزوجته أرسينوس وليكون مثواه الأخير . أما مضمار سباق الخيل (Hippodromos) وميدان الألعاب (Stadium) فكانا يقعان فى أطراف المدينة ، أولهما فى الناحية الشرقية وثانيهما فى الناحية الجنوبية الغربية ^(٢) ، فى حى راكوتيس الذى أقيم على تل فيه معبد السيرابيوم ، حيث يوجد الآن العامود المعروف خطأ باسم (عامود بومبي) .

وشرقى جزيرة فاروس وعلى مقربة منها ، حيث توجد الآن قلعة قايد بك ، كانت توجد جزيرة صغيرة أقيمت عليها منارة الإسكندرية المشهورة ، التى كانت تعتبر إحدى عجائب العالم القديم . وإذا كان المهندس سوستراتوس من كنيديوس قد بدأ فى بنائها فى عهد بطليموس الأول ، فإنه أتمها فى بداية عصر بطليموس

(1) Strabo XVII, 1, 8; Breceia, p. 68; Rostovtzeff, S. and E, p. 419.

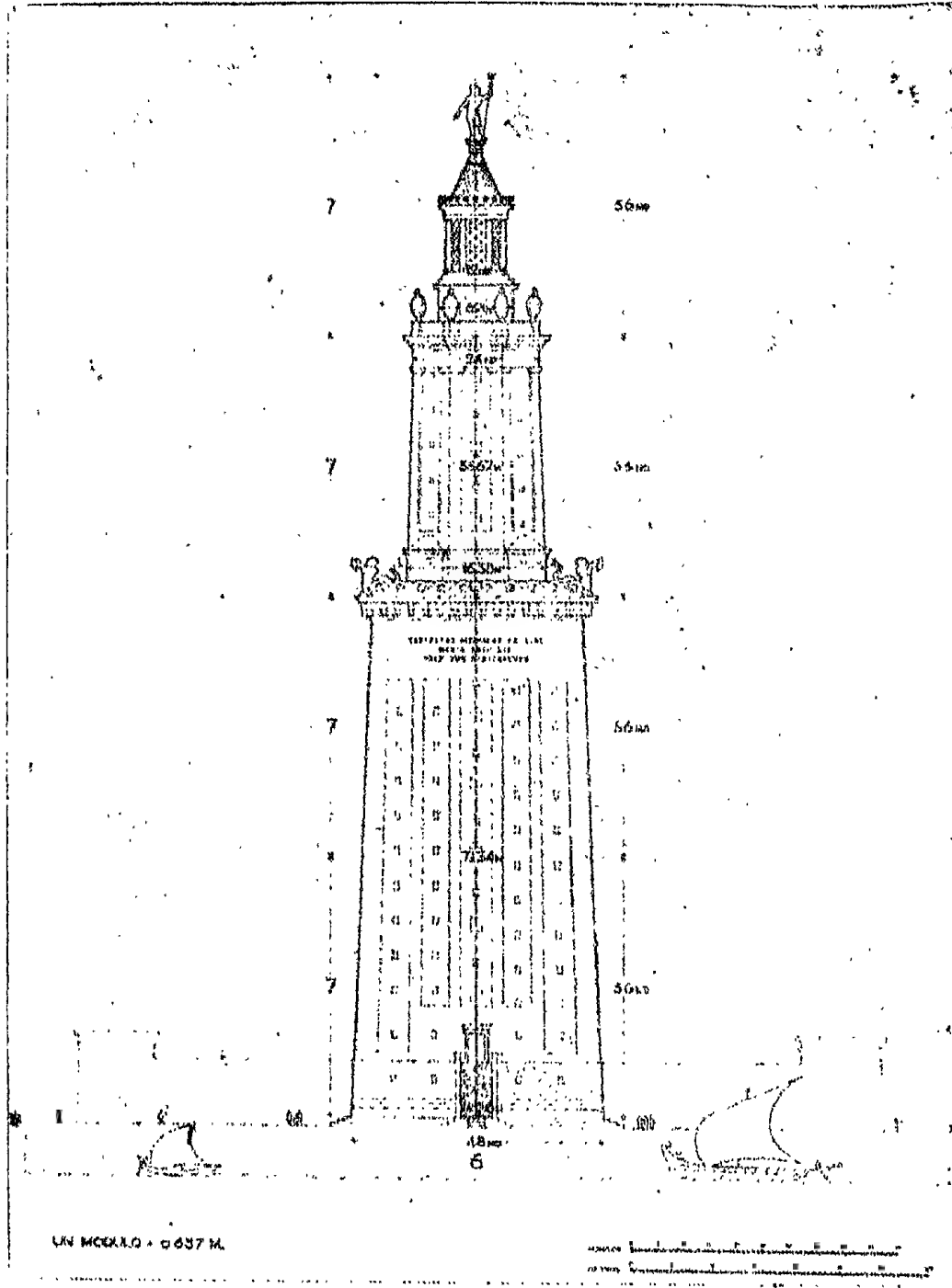
(2) Bevan, pp. 93 -- 4

الثانى ، حوالى عام ٢٨٠ — ٢٧٩ ق . م . ولسوء الحظ أن معالم هذا البناء الضخم قد اندثرت تماما فى خلال القرن الرابع عشر ، لكن تيرش (Thiersch) حاول أن يصور لنا ما كانت عليه هذه المنارة بعد أن استعرض فى كتابه ^(١) كل ما يتعلق بها من مراجع العصور القديمة والعصور الوسطى ، وكذلك كل ما يتصل بكافة المنارات التى بنيت بعدها ويرجح أنها تأثرت بها . وقد توصل تيرش إلى نتائج تثير الإعجاب إذ يبين أنها شديدة القرب من الحقيقة برغم اعتماده فى الوصول إليها على معلومات غير مستمدة من وصف أشخاص رأوا المنارة بأنفسهم . ولحسن الحظ اهتدى حديثنا إلى مصدر لم يكن معروفا لتيرش ، ويمتاز هذا المصدر على كل ما اعتمد عليه هذا العالم بأنه وصف دقيق واضح للمنارة قبل اندثارها .

أما هذا المصدر فهو كتاب وضعه معمارى من ملقا (Malaga) بإسبانيا ، يدعى أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى المالكي الأندلسي المعروف بابن الشيخ ، كان يعيش بين ١١٣٢ و ١٢٠٧ م ونزل بالإسكندرية عامى ١١٦٥ و ١١٦٦ ، حيث وقف نفسه على البحث الأدبي ودراسة الآثار . ولما كانت لديه كفاية تؤهله لدراسة المباني دراسة دقيقة ، فإن الباحثين يعلقون أهمية كبيرة على ما أدلى به من معلومات عن منارة الإسكندرية التى زارها ودون مقاييسها فى مذكرات ، استخدمها عند عودته إلى ملقا بعد عام ١١٦٦ فى وضع كتاب أطلق عليه « كتاب ألف باء » لتعليم ابنه « عبد الرحمن » . وقد نشر هذا الكتاب فى القاهرة فى عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) . وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب (صص ٥٣٧ و ٥٣٨) نجد وصفا مفصلا لمنارة الإسكندرية ، إستخدمه بعض الباحثين الأسبان ^(٢) فى إعطائنا صورة جديدة لشكل المنارة ، لعلها أدنى إلى الحقيقة من كل ما عرفناه عنها حتى الآن ، وذلك بفضل مقاييس (ابن الشيخ) وأمانة وصفه ودقة ملاحظته ، ولا سيما أنه كان بناء قادراً وراوية دقيقاً .

(1) Thiersch, Der Pharos, Antike, Islam und Occident, 1909,

(2) The Pharos of Alex., Summary of an Essay by Miguel De Asin, Communicated by The Duke of Alba, From the Proceedings of the British Academy, Vol, XIX.



منارة الأسكندرية
كما يمكن تصورها من وصف أبي الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالكي الأندلسي المعروف
بابن الشيخ

ويستخلص من هذه الدراسة أنه كان يربط جزيرة فاروس بالصخرة التي قامت عليها المنارة جسر مائل يرتفع رويداً رويداً من الجزيرة إلى صخرة المنارة ، ويقوم على ستة عشر قوساً ، ويبلغ طوله مائة باع (٦٨ متراً) تقريباً . وقد أقيم حول القسم الأول من المنارة ، لحمايته من طغيان البحر ، سور إرتفاعه ١٢ ذراعاً (٦٩٦) وسمكه عندقته ١٢ ذراعاً . لكن هذا السمك كان يزداد كلما هبط السور إلى قاعدته . ويبدو أنه كان يحيط بكل جوانب السور ، من الخارج ، إفريز لا نعرف عرضه . وفي الوسط داخل السور أقيمت المنارة نفسها ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يعاوها المصباح .

وكان القسم الأول رباعى ، والثانى ثمانى ، والثالث أسطوانى الشكل ، وقاعدة القسمين الأول والثانى أكثر اتساعاً من قمتيهما . ويبلغ طول كل حائط ، عند القاعدة ، ٤٥ باعاً (٦٠ ر ٣٠ متراً) فى القسم الأول ، وعشرة إبوع (٦٨٠ متراً) فى القسم الثانى . ومعنى ذلك أن محيط قاعدة القسم الأول وقدره ١٨٠ باع (١١٢٤٠ متراً) يزيد بمائة باع (٦٨ متراً) على محيط قاعدة القسم وقدره ٨٠ باعاً (٥٤٤٠ متراً) . ويبلغ إرتفاع القسم الأول ٣١ قامة (٨١٣٠ متراً) ثم تعاو ذلك ، حول الممشى الذى يحيط بالقسم الثانى ويبلغ عرضه ١٥ شبراً (٣٧٥ ر ٣٠ متراً) ، حائط كالستار طولها قامة واحدة (٢٣٠ متراً) ، وعرضها سبعة أو تسعة أشبار (١٥٨٥ ر ٢٥ أو ٢٠ متراً) . ويبلغ إرتفاع القسم الثانى ١٥ قامة (٤٣٥٠ متراً) ، أى حوالى نصف إرتفاع القسم الأول ، ثم تعاو حائط كالستار يفصلها عن القسم الثالث ممشى عرضه تسعة أشبار ونصف شبر (٢١٣٧ متراً) . ويبلغ محيط القسم الثالث الأسطوانى أربعين باعاً (٢٧٢٠ متراً) ، أى نصف محيط القسم الثانى ، وإرتفاعه أربع قامات (٩٢٠ متراً) ، أى ربع إرتفاع القسم الثانى تقريباً . وبعد الفتح العربى ، أقيم وسط سطح القسم الثالث ، مكان المصباح القديم ، جامع صغير كالقبة ، إرتفاعه ثلاث قامات (٦٩٠ متر) ومحيطه ٢٠ باعاً (١٣٦٠ متراً) ، وأمامه ستارة سمكها شبران (٤٥ ر ٠ متراً) ، وبينها وبين المسجد ممشى عرضه خمسة أشبار (١٢٥ ر ١ متراً) . ويتضح من كل ذلك أن إرتفاع المنارة كان يبلغ ٥٣ قامة

(١٢٠ ر ٩٠ متر) إبتداء من قاعدة القسم الأول ، هذا فيما عدا أساس البناء كله الذى يقدر بست قامات (١٣ ر ٨٠ مترا) ، فيكون ارتفاع البناء بأجمعه ٥٩ قامة (١٣٥ ر ٢٧ متر) .

وكان يقوم فى القسم الأول المربع ، بين محوره وجدرانه ، مرتقى حلزونى لادرج فيه ، وكان عرض هذا المرتقى سبعة أشبار (١٥٧٥ ر مترا) . أما فى القسمين الثانى والثالث فقد بنى سامان يتألف أولهما من ٣٢ درجة ، وثانيهما من ١٨ درجة . ولم توجد غرف فى أقسام المنارة المختلفة إلا فى القسم الأول بسبب إتساعه . وقد كان بعض هذه الغرف إلى يمين المرتقى الحلزونى وبعضها إلى يساره ، لكنه لا يمكن الجزم بعدد الغرف فى كل من هذين الجانبين ، وإن كنا نعرف أنه على مسافة أربعين باعا (٢٧ ر ٢٠ مترا) من مدخل المنارة كانت توجد إلى اليسار غرفة تؤدى إلى قاع المنارة . وبعد ذلك بستين باعا (٤٠ ر ٨٠ مترا) كانت توجد إلى يمين المرتقى ويساره ١٨ غرفة ينفذ بعضها إلى بعض . وبعد ٦٠ باعا أخرى كانت توجد ١٥ غرفة ، وبعد ٢٤ باعا (١٦ ر ٣٢ مترا) كانت توجد ١٧ غرفة ، وبذلك يكون مجموع الغرف التى عددها « ابن الشيخ » ٥٠ غرفة . لكننى لاحظت أنه ختم وصفه بقوله إن عدد جميع الغرف كان ٦٨ ، فهل كان سبب ذلك أنه كانت توجد غرف أخرى أغفل ذكرها أول الأمر لكنه أدخلها فى المجموع ، أم أنه احتسب سهوا الثمانى عشرة غرفة الأولى مرتين ؟ هذا مالا يمكن الجزم به وإن كان الإحتمال الثانى يبدو معقولا .

ولم يذكر « ابن الشيخ » شيئا عن زخرفة المنارة الخارجية ولا عن المصباح ، لأن من الأيام كان قد أتى عليها . ولذلك لا مفر من الاعتماد على ما ورد فى المراجع الأخرى وخاصة ما استخلصه منها تيرش ، ومجمله أن المنارة بنيت من الحجر وزخرفت بلوحات منحوتة من المرمر والبرونز ، وأن المصباح كان يتكون من ثمانية أعمدة تغطيها قبة أقيم عليها تمثال يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار تقريبا ، يرجح أنه كان تمثال يوسيدون إله البحار . وكان النور الذى يستخدم لإرشاد الملاحين ينتج من

إحراق أخشاب صلبة في المصباح ، الذى يظن أنه كانت به مرايات محدودة ، مصنوعة من المعدن ، لترسل الضوء إلى مسافة بعيدة^(١) .

وكانت المنارة تحمل ، على واجهتها الجنوبية ، نقشا هذا نصه : « سوستراتوس ابن دكسيفانس Dexiphanes من كنيديوس ، إلى الإلهين المنقذين (سوترس) باسم الملاحين » ، لكن من كان المقصود بالإلهين المنقذين ؟ أكان يراد بذلك بطليموس الأول وزوجه برينيكى اللذين عرفا بهذا اللقب بعد تأليههما ، وهذا طبيعى لأن بطليموس الأول هو الذى أمر ببناء المنارة ؟ أم كان يراد بذلك الإلهين كاستور (Castor) وبولوكس (Pollux) إلهى الملاحين ، اللذين كانا يوصفان عادة على هذا النحو ؟ وهذا محتمل أيضا ، ولا سيما إذا كان النقش قد وضع قبل تأليه بطليموس الأول وزوجه ؟ أم لعل هذا الغموض كان مقصوداً لكي يجوز أن تنصب هذه العبارة على بطليموس الأول وزوجه ، وكذلك على كاستور وبولوكس ؟ هذا أقرب الاحتمالات جميعا ، لكن يبدو غريباً أنه سمح للمهندس بأن يهدى باسمه بناء هاما مثل هذه المنارة . وقد قيل تفسيراً لذلك أن سوستراتوس حفر اسمه عميقاً في الصخر بحروف ضخمة ثم غطاه بطبقة رقيقة من الجبس تشبه الصخر فى المظهر ونقش عليها اسم بطليموس ، على أمل أن يقع الجبس بعد وفاته فيزول اسم بطليموس ويبقى اسمه^(٢) .

وكانت تمتد الإسكندرية بمياه الشرب قناة كبيرة تتفرع من النيل عند سخديا (Schedia = كوم الجيزة) ، على بعد حوالى ٢٧ ك . م من العاصمة ، وتتخذ مجرى يشبه كثيراً مجرى ترعة المحمودية . ويبين أن هذه القناة أقدم من الاسكندرية ، إذ تحدثنا « قصة الاسكندر » بأن راكوتيس والقرى المجاورة ، التى شيدت الاسكندرية عليها ، كانت تستمد مياهها من اثنتى عشرة قناة صغيرة تتفرع من قناة كبيرة ، وأنه عندما أسست الاسكندرية سدت هذه القنوات

(1) Cf. Breccia, Alex. ad Aeg., pp 106 - 8

(2) Bevan, p. 96.

جميعاً فيما عدا اثنتين منها وشيدت فوق الباقي شوارع المدينة وميادينها^(١). وتدل المصادر القديمة والأبحاث الحديثة على أنه أنشئ تحت سطح أرض المدينة نظام دقيق من القنوات لإمداد المنازل بحاجتها من مياه الشرب التي كانت تأتيها على هذا النحو من القناة الكبيرة . ويعزى إنشاء هذه القنوات إلى هيپونوموس (Hyponomos) الليبي^(٢) .

وبالقرب من حجر النواتية (Petrae) ، كانت القناة الكبيرة تتفرع فروعين يسير أحدهما في محاذاة الشاطئ إلى « أبو قير » بينما يتجه الآخر نحو الاسكندرية . ويرى أغلب العلماء أن هذا الفرع كان يلف حول العاصمة من الجنوب ويصب في ميناء ايونوستوس عند « الصندوق » ، لكن برتشيا يخالف هذا الرأي ويعتقد أنه كان طبيعياً أن تصب القناة في « الميناء الكبير » لأنه كان أهم من الميناء الآخر^(٣) . ونحن لا نستطيع قبول رأي برتشيا لسببين (وأحدهما) أن استرابون يحدثنا بأن قناة صالحة للملاحة كانت تصل « الصندوق » ببجيرة مريوط (والآخر) لو كان رأي برتشيا صحيحاً ، لمدت القناة بالمياه الحى المسكى الذى تحصن فيه قيصر خلال « حرب الاسكندرية » ، ولما اضطر قيصر إلى أن يعمل على مد تحصيناته جنوباً نحو البحيرة ليضمن الحصول على مياه الشرب . ولذلك نرجح أن القناة كانت تدور حول العاصمة من الجنوب وتصب في الناحية الشرقية من خليج بجيرة مريوط ، الذى شيد عليه ميناء البحيرة وكان يتوغل في داخل العاصمة مسافة كبيرة حتى شارع كاتوب بالقرب من منتصفه فيشطر المدينة شطرين ، ثم كانت القناة تخرج من ضفة الخليج الغربية وتمتد حتى الصندوق^(٤) . وبعد إنشاء جسر الهبتاستاديون وميناء البحيرة أصبح للاسكندرية ثلاثة موانئ : اثنان منها على البحر الأبيض المتوسط ، حيث كانت ترسو المراكب القادمة من هذا البحر ، والثالث على بجيرة مريوط حيث كانت تحتشد المراكب القادمة من داخل مصر ، وتحمل منتجاتها وكذلك منتجات الشرق الأقصى .

(1) Ps. — Callisthenes, I, 31 — 32.

(2) Ps. — Callisthenes, I, 31; Caesar, Bell. Alex. V; cf. P. - W. Real. Encycl. col. 1382; Berve, das Alexanderreich II S.V. Krates; Breccia, p. 80; Bevan p. 92.

(3) Breccia, p. 78.

(4) Grainger, pp. 65, 66; cf. Weigall, Life and Times of Cleop. p. 38.

وكانت توجد خارج أسوار الإسكندرية مدينتان للموتى ، إحداهما فى الشرق والأخرى فى الغرب . وكان يوجد فى الشرق أيضاً ، على طول القناة ، ضاحية إليوسيس (Eleusis) (بالقرب من بحيرة الحضرة) حيث أنشأ بطليموس الثانى عبادة للالهة ديمتر ، تشبه فى بعض مظاهرها عبادة هذه الآلهة فى إليوسيس بآتيكا . وكانت توجد كذلك على ضفة هذه القناة ، فيما بين الإسكندرية وأبو قير ، قصور وحدائق أغنياء الإسكندرانيين . وقد أصبحت كانوب (أبو قير) ، تلك المدينة المصرية القديمة ، مكاناً مختاراً لمباهج الإسكندرانيين . ويصف لنا استرابون المظاهر الصاخبة التى كانت تشاهد على المراكب المتقلبة آ ناء الليل وأطراف النهار فى هذه القناة ، بين الإسكندرية وكانوب^(١) .

ولما كانت الإسكندرية ثغراً تجارياً عظيماً ومدينة صناعية كبيرة ، وذلك فضلاً عن كونها عاصمة دولة كبيرة ، فإن سكانها لم يتألفوا منذ نشأتها من الأغريق والمقدونيين وحدهم ، بل سرعان ماغدوا خليطاً من مختلف الأمم . فقد عرفنا كيف أنها أنشئت فى بقعة كان يشغل جانباً منها عدد من القرى المصرية أو على الأقل قرية مصرية واحدة تدعى راكوتيس .

ويضاف إلى ذلك أن عدد المصريين هناك ازداد نتيجة لنقل سكان مدينة كانوب إلى الإسكندرية عندما كان كليومينيس الحاكم بأمره فى وادى النيل^(٢) . وإلى جانب أولئك المصريين المستقرين هناك يبين أن الإسكندرية كانت تجتذب إليها الكثيرين من مواطنيهم ، مما حدا بفيلاذلفوس إلى أن يحظر على المصريين الوافدين عليها من الريف أن يطيلوا إقامتهم فى العاصمة^(٣) .

وتصور لنا أشعمار ثيوكريتوس^(٤) كيف كانت تتجاوب فى شوارع الاسكندرية فى أثناء حفلات البطوليمايا أصدااء مختلف اللهجات الأغريقية ، فقد

(1) Strabo, XVII, I, 16 - 17.

(2) Ps - Arist., Oecon., 2, 33.

(3) Ps. - Aristos, ad Philoc. Epist., 109 - 111.

(4) Theoc., XV. 83, 93.

كانت الوفود الرسمية (theores) تنحج إلى الاسكندرية في هذه المناسبات من كل أنحاء العالم الأغريقي لأنها كانت تعتبر في مرتبة الألعاب الأولمبية . وترينا الآنية الجنائزية التي تضم رماد جثث المبعوثين الرسميين أن بعضهم قد توفي في أثناء أداء واجبهم الرسمي^(١) . ويرجح جوجيه أن شوارع الإسكندرية كانت لا تطن بكل اللهجات الأغريقية فحسب بل أيضاً بكل اللهجات الأفريقية والآسيوية^(٢) . ويذهب برتشيا إلى أن سكان الاسكندرية في عصر البطالمة كانوا يتكلمون من مثيل العناصر التي كانت تعيش فيها في خلال القرن الرابع للميلاد ، إذ يحدثنا خريسوستوموس (Chrysostomos) بأن أفواجاً من « الإغريق والإيطاليين والسوريين والليبيين والكيليكين والأثيوبيين والعرب والبكترين والسكيثيين (Scythians) والهنود والفرس كانت تتدفق على هذه المدينة » ، التي وصفها استرابون بأنها « خزان عام » ، وقال عنها فيلون إنها « عدة مدن داخل مدينة واحدة^(٣) » .

ويقول ديودوروس ، إستناداً إلى قوائم السكان الرسمية في عام ٦٠ ق . م ، إن عدد المواطنين الأحرار في الاسكندرية كان يبلغ ٣٠٠٠٠٠ نسمة^(٤) . لكن لاشك في أن عدد سكان هذه المدينة كان يزيد كثيراً على ذلك ، لأن المصريين واليهود والعبيد وكذلك كثيرين من الإغريق وأشباههم كانوا يعتبرون خارج هيئة المواطنين . ويستبعد أنه كان يوجد تزاوج بين الإغريق والمصريين في الاسكندرية ، إذ يرجح أن هذا الزواج كان يعتبر غير شرعي في الإسكندرية وبطولييس مثل ما كان في نقراطيس^(٥) .

ويصف بوليبيوس وفيلون الإسكندريين بأنهم شعب يسرى في غروقه

(1) Breccia, pp. 222-3, figs. 113-6.

(2) Jouguet, Trois Etudes, p. 110.

(3) Breccia, pp. 31 - 32; cf. Theoc., Adoniasusac

(4) Breccia, p. 32.

(5) Bevan, p. 98.

دم خليط (Migades) ، لكن يبدو أن المقصود بذلك أن هيئة المواطنين الإسكندريين كانت تتألف من خليط من كافة الإغريق ، أى من الأيونيين والدوريين والأبوليين ، ومن الإغريق القادمين من بلاد الإغريق الأصلية ، وكذلك من المدن الإغريقية التي أنشئت خارج تلك البلاد^(١).

ويقول پوليبوس إن سكان الاسكندرية كانوا يتألفون من العناصر التالية : (١) المصريين ، وكانوا حاضري البديهة ويميلون إلى الحياة الرتيبة (٢) الجنود المرتزقة ، وكانوا لا يخضعون لأحد ويميلون إلى فرض إرادتهم على الحكومة (٣) « الاسكندريين » ، وقد أظهروا شيئاً من الميل إلى الخروج على قواعد النظام ، لكنهم كانوا أهدأ من الجنود لأنهم وإن كانوا عنصراً خليطاً ، إلا أنهم كانوا أغريقاً في الأصل ، ولم ينسوا سبل الحياة الإغريقية العامة^(٢). ولا شك في أن هذا التقسيم لم يكن صحيحاً ، وليس إلا وليد تصورات زائر إلى تلك المدينة حوالى عام ١٠٠ ق . م ، لأن پوليبوس لم يذكر شيئاً عن الفرق النظامية ولا اليهود . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الفرق المرتزقة التي أحضرها البطالمة من الخارج كانت إذ ذاك أبرز العناصر الحربية في مصر . ويحتمل أن مظهر اليهود الإغريق في لغتهم وزيهم جعل من المسير التفرقة بينهم وبين الإغريق . ويبدو أن پوليبوس قد أطلق كذلك عبارة « الاسكندريين » على كل سكان المدينة من الإغريق سواء من كان منهم من فئة المواطنين أم لم يكن^(٣).

إنه يتمذر علينا إقتفاء أثر التطورات التي مرت بتكوين السكان في الاسكندرية لكننا نستطيع الجزم بأمرين : وأحدهما أنهم كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة . وإذا كان بعض هذه الجاليات تستمتع بقدر من الاستقلال الذاتي ومن

(1) Lumbroso, Archiv, V. p. 400.

(2) Strabo, XVII, 2, 12.

(3) Bevan, pp. 100 - 101.

ثم يمكن اعتبارها جمعيات قومية (Politeumata) فإن ذلك لم يكن حال كل الجاليات ولا سيما الجالية المصرية^(١) . والأمر الآخر أنهم كانوا دائماً ينقسمون طبقات كانت أهمها :

أولا — طبقة المواطنين الكاملين (astoi) أو الاسكندريين (Alexndreis) ، ويدل قانون الحرية الشخصية الوارد في إحدى البرديات المشهورة^(٢) على أن كلمة « إسكندري » كانت مرادفة لكلمة مواطن (astos) ، وعلى أنه كان يمكن استخدام إحدى هاتين الكلمتين بدلا من الأخرى . فقد جاء في هذا القانون « لا يجوز أن يكون إسكندري عبداً لإسكندري آخر ، ولا إسكندرية أمة لمواطن أو مواطنة من الإسكندرية » . وهذا النص نفسه يدل أيضاً على أنه لا مجال للزعم بوجود فارق بين « مواطنة » (aste) و « إسكندرية » (Alexandris)^(٣) .

وقد كانت هذه الطبقة تتألف من أفراد أقدم الأسر الإغريقية وأعظمها شأنًا ، وكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة ، أى بالحقوق الخاصة مثل الزواج مع المواطنين الإغريق (Epigamia) ، وامتلاك الأراضي في المدن الإغريقية (Ges enktesis) وبالحقوق السياسية وبعض الامتيازات الدينية . فقد كان يختار منهم أغلب الموظفين والكهنة^(٤) ، هذا إلى جانب ما كانوا يتمتعون به من الامتيازات الهامة كالإعفاء من بعض الضرائب ومن أعمال السخرة . ومنذ عهد بطلميوس الأول كان هؤلاء المواطنون ، مثل مواطني أثينا وغيرها من المدن الإغريقية ، ينقسمون إلى قبائل (Phylai) وأحياء (Demes) وكذلك إلى وحدات (Phratries) ، كانت عبارة عن جماعات دينية لإقامة طقوس العبادة الإغريقية^(٥) . وكان كهنة هذه الوحدات يؤلفون هيئة (hierothytai) يعقد المواطنون زواجهم أمامها^(٦) . وكان كل مواطن

(1) Jouguet, Trois Etudes, p. 111.

(2) P. Halensis VIII, ll. 219 - 221, pp. 92, 124. 163.

(3) Braunstein, Die polit. Wirksamkeit der griech. Frau, Leipzig, 1911, p. 16

(4) Broccia, in B. S. R. A. A, 10, 1908, pp. 176 ff.; Perdrizet, Le fragment de Satyros, B. S. R. A. A, 12, 1910, p. 56.

(5) P. Hib. 28 Wilcken, Chrest. 25; Grundzüge 16.

(6) Wolff, Written and Unwritten Marriages, pp. 38 - 39.

يضيف إلى اسمه اسم الحى الذى سجل فيه . أما السيدات اللاتى ينتمين بمولدهن إلى هذه الطبقة فإنهن كن لا يضافن إلى اسمهن اسم خيهن ، لكنهن كن يدعين اسكندرديات (Alexandrides) أو مواطنات (Astai) . وعند بلوغ المواطن الرابعة عشرة من عمره كان يسجل فى أحد الأحياء^(١) ويدمج فى جماعات الشبان (Ephebeia) ، فقد كانت هذه السن تعتبر فى العالم الإغريقى سن الرشد السياسى . ونحن لا نعرف شيئاً عن جماعات الشبان فى مصر البطلمية ، لكن يحتمل أن الغرض منها كان فى الإسكندرية وبطوليميس ، مثل ما كان فى المدن الإغريقية الأخرى ، نوعاً من التدريب العسكرى أو على الأقل الرياضى للشبان ، عندما يحين وقت تمتعهم بالحقوق السياسية . وينهض هذا إذن دليلاً على أن تسجيل المواطن فى أحد الأحياء كان يؤيد تمتعه بحقوق المواطنة^(٢) ، ولا سيما أننا نعرف أن الإمبراطور كلاوديوس أكد لأفراد « جماعات الشبان » الإسكندرانيين حقوقهم^(٣) . وفى وثيقة بردية ، عثر عليها فى هيبه (Hibeh)^(٤) وترجع إلى القرن الثالث ق . م ، نجد أنه فى مدينة ما ، لا بد من أنها كانت الإسكندرية أو بطوليميس ، كانت توجد خمس قبائل فى كل منها إثني عشر حياً . ولا نعرف من أسماء قبائل الاسكندرية سوى اثنين ، وهما : قبيلة ديونيسيوس (Dionysias)^(٥) وقبيلة بطوليميس (Ptolemais)^(٦) . ويحدثنا نص قديم بأن بطليموس الرابع أعطى مكان الصدارة بين قبائل الاسكندرية جميعاً لقبيلة ديونيسيوس^(٧) .

ونعرف أسماء أحياء كثيرة يبدو أنها اشتقت عادة ، إما من اسم أو لقب إله ، أو بطل من أبطال الأساطير الدينية الإغريقية . فى قبيلة ديونيسيوس ، نجد أسماء الأحياء مأخوذة من اسم ألثايا (Althaea) ، التى أنجب منها ديونيسوس ديانيرا (Deianira)

(1) Taubenschlag, pp. 143 - 4.

(2) Jouguet, Vie, p. 11, (3) Jouguet, Journal des Savants, 1925, p. 11.

(4) P. Hibeh, 28.

(5) F. G. H., iii, p. 164, Fragment 21.

(6) Westermann, Vit. Script. Graec. Min., p. 50.

(7) Perdrizet, op. cit., p. 53.

ومن اسم ثستيروس (Thestios) والد الثايا ، ومن اسم ديانيرا نفسها ، وكذلك من أسماء أريادنى (Ariadne) وثواس (Thoas) وستافيلوس (Staphylos) وإفانثيوس (Evanthéos) ومارون (Maron) ، وهى كلها أسماء شخصيات تتصل بقصص ديونيسوس . ونعرف كذلك حيا أخذ اسمه من اسم هرقل وآخر من اسم أكاكوس (Acacos) وثالثا من اسم تمنوس (Temenos) حفيد هرقل . وقد اشتقت أسماء أحياء أخرى من ألقاب ملوك البطلمة ، مثل إيفاناس وفيلومتور (١)

ثانيا — طبقة أنصاف المواطنين (٢) ، ويتبين من الوثائق أنها كانت تتألف من ثلاث فئات : ١ — فئة الذين لم يسجلوا بعد فى أحياء بعينها ورد ذكرها مقرونا بأسمائهم (٣) ، ٢ — فئة الذين لم يسجلوا بعد فى أحياء دون تحديد هذه الأحياء على الإطلاق « pepolitographemenoi » (٤) ، ٣ — فئة اسكندرى السلالة الذين لم يسجلوا بعد فى أحياء بذاتها ورد ذكرها مقرونا بأسمائهم .

ويرجح أن أفراد هذه الطبقة كانوا مواطنين جدد ، وترينا البردية المشهورة التى تتضمن بعض قوانين الإسكندرية ونظمها أنهم كانوا لا يتمتعون إلا بقدر محدود حتى من حقوق المواطنة الخاصة ، فقد كانوا لا يتقاصون إلا أمام محاكم الغرباء « Xenikon dekasterion » (٥) ، وكان لا يستطيع بيع أو شراء العقار إلا المواطنون المسجلون فى الأحياء (٦) .

ويبدو أن أفراد الفئتين الأولى والثالثة كانوا يمتازون على أفراد الفئة الثانية

(1) Bovan, pp. 99 - 100.

(2) Bickerman, Apropos des Astoi dans L'Ég. greco-rom., Rev. Phil., 3. Serie, I, 1927, pp. 364 - 5.

(3) P. Petr. III, 21b, ٤, 10; 55a, 7; 132, 20.

(4) P. Halensis I, 158.

(5) P. Halensis I. 157 ff.

(6) P. Halensis, I. 245 ff.

بأنهم سيتمتعون على الأقل قبلهم بحقوق المواطنة كاملة ، وذلك لأن الأحياء التي سيسجلون فيها قد ذكرت إلى جانب أسم كل منهم مع النص على عدم تسجيلهم فيها بعد . ولعل تأخير هذا التسجيل يرجع إما إلى أن عدد أفراد كل حي كان محدودا ولذلك كان يتعين عليهم انتظار خلو أما كن في كل حي ، أو لأنهم لم يستكملوا بعد الشروط اللازمة لتسجيلهم (١) .

ومن كان أفراد هذه الفئات الثلاث ؟ وما سر التفرقة بين أفرادها ؟ ليست لدينا معلومات تساعدنا على الأدلاء برأى حاسم في هذه المسألة ، لكنه يبدو لنا أن أفراد هذه الفئات كانوا جميعا أحدث عهدا بالمدينة من أفراد الطبقة الأولى ، غير أن أفراد الفئة الأولى كانوا يتألفون من مهاجرين جدد تتوافر فيهم الشروط التي تسمح بتسجيلهم في أحياء بعينها ، إلا أنهم لم يسجلوا بعد لعدم وجود أما كن شاغرة في تلك الأحياء ، على حين أن أفراد الفئة الثانية كانوا يتألفون من أفواج جديدة ولم يستكملوا بعد شروط التسجيل في أحياء المدينة . أما أفراد الفئة الثالثة فيبدو أنهم كانوا سلالة المواطنين الاسكندرانيين السكاملين لكنهم لم يستكملوا بعد الشروط اللازمة لتسجيلهم في أحيائهم .

ثالثا — طبقة المقدونيين ، وكانت طبقة أخرى متميزة تتمتع بنفوذ كبير في القصر وفي الجيش ، ولا غرو فإنها كانت تؤلف الارستقراطية العسكرية . وقد ورد في المصادر القديمة ذكر نظام مقدوني عمر مدة غير قصيرة في بعض الممالك الهيلينية وخاصة في مصر وهو جمعية الجيش ، وكانت في الأصل عبارة عن الأمة مدججة بالسلاح ومنتظمة في صفوف الجيش ، ومن ثم كانت مصدر السلطات . وفي عهد الملوك الأقوياء كان نفوذ هذه الجمعية محدوداً ، لكنها كانت تستخدم سلطاتها عند خلو العرش فتوافق على وصية الملك الراحل وتبايع الملك الجديد . ولم يأت الشطر الثاني من عصر البطالمة حتى كانت هذه الجمعية قد فقدت أهميتها إذ يتمذر أن نجد لها ذكراً في المصادر القديمة منذ عهد بطليموس الخامس (٢) .

(1) Cf. Jouguet, Vie, pp. 12, 17, 25; P. Hal. pp. 91 - 2, 163.

(2) Jouguet. Assemblée d. Alex; B. S. R. A. A. 37, 1948, pp 12-14

ويشار إلى هذه الجمعية في المصادر القديمة إما : بكلمة المقدونيين^(١)
(hoi Makedones) ، أو بعبارة الجمعية العامة (Koine ekklesia)^(٢) ، أو بعبارة
الجمعية العامة للمقدونيين (Koine ton Makedonon ekklesia)^(٣) .

ولاشك في أن المقدونيين كانوا يؤلفون جماعة قومية « politeuma » كانت
هذه الجمعية أحد نظمها ، لكننا لا نعرف شيئاً أكثر من ذلك عن هذه الجماعة
القومية . ومع ذلك لا نستطيع قبول ما يراه البعض من أن مرد ذلك إلى أن هذه
الجماعة لم تقم بدور هام في التاريخ^(٤) .

رابعاً — طبقة فرس السلالة ، وكانوا يؤلفون طبقة خاصة لها بعض
الامتيازات ، لكنهم لم ترتفع إلى مصاف الطبقات الثلاث الأولى . وكان عدد
هذه الطبقة كبيراً ، ولا شك في أنهم إصطبنوا سريعاً بالحضارة الإغريقية .

خامساً — طبقة عامة الإغريق ، وكانت تتألف من فقراء الإغريق الذين
كانت جموعهم تفقد باستمرار من كافة أنحاء العالم الإغريق ، ولم يحشروا في
زمرة المواطنين ، ولم يتمتعوا بحقوقهم ولا بامتيازاتهم .

سادساً — طبقة اليهود ، وكانوا يؤلفون جانباً كبيراً من سكان المدينة منذ
بداية القرن الثالث قبل الميلاد ويتمتعون بدستور خاص بهم وكان لهم من الإمتيازات
ما يعادل الإسكندرانيين وما يزيد على الفرس ، لكنهم لم يتمتعوا بحقوق المواطنة .
سابعاً — طبقة المصريين ، وكانت تتألف من الصناع والعمال وبعض الجنود ،

(1) Diod. XVI, 3; XVII, 74, 3; XVIII, 36, 7; Arr. Anab. III, 26, 7; IV, 14, 2; VII, 8; Plut., Alex., 55; Eumenes, 8; 12; Polyae. IV, 6, 74.

(2) Diod. XVII, 39, 4; XIX, 15, 1.

(3) Diod. XIX, 51, 1; 61, 1 .

(4) Heichelheim, Die auswärtige Bevölkerung in Ptolem, aereich. p. 38.

وتسكن في حى راكوتيس وفي جزيرة فاروس. وقد تجرد أفراد هذه الطبقة حتى من مظاهر الحضارة الإغريقية ، وكانوا يعتبرون عنصراً أجنبياً عن هذه المدينة فلم يدجوا في هيئة المواطنين . لكنه كانت لبعض المصريين في الإسكندرية مكانة ممتازة مثل كهنة السيرايوم وأولئك المصريين المتأخرين الذين عينوا في البلاط على عهد البطالمة الأواخر مثل ديونيسيوس بتوسيرايس^(١) .

وكانت توجد إلى جانب هذه الطبقات جماعات مختلفة من الأجانب والعبيد والمعتوقين^(٢) .

وإذا كان الكل يتفق على أن إغريق الاسكندرية كانوا إغريقاً في حياتهم الاجتماعية وثقافتهم الأدبية والفنية ، فإن قلة الأدلة افضت إلى تضارب الآراء تضارباً شديداً حول حظ الاسكندرية من النظم السياسية التي كانت المدن الإغريقية تتمتع بها عادة . فيرى فريق من الباحثين أن الاسكندرية لم تتمتع بمظاهر الحكم الذاتي ، لأن البطالمة وقد خلفوا الفراعنة في حكم البلاد اقتبسوا منهم حق الملوك الإلهي ، ولذلك فإنه لم يوجد في مصر مواطنون أحرار بل رعايا خاضعون ؛ ولا بد إذن من أن مدن مصر الإغريقية لم تكن إلا صورة مزيفة للمدن الإغريقية ولم تتمتع باستقلالها الذاتي^(٣) . لكن قضى على هذا الزعم الكشف عن ثلاثة قرارات أصدرتها الجمعية الشعبية والمجلس في مدينة بطوليميس^(٤) ، فقد ثبت بذلك أن هذه المدينة كانت تتمتع بالنظم السياسية الخليفة بمدينة إغريقية . ومن ثم لا يكون من الإسراف في الرأي القول بأنه لا يعقل أن تكون عاصمة البطالمة بل عاصمة الحضارة الإغريقية في العصر الهيلينستي قد عوملت أسوأ مما عوملت به تلك المدينة الرابضة في قلب الصعيد رغم بعدها عن مقر السلطة المركزية .

(1) Diod. XXXI, 15a.

(2) Breccia, p. 33.

(3) Mommsen, Roem Gesch, v, p. 557.

(4) Ditt., O. G, I. I, 47, 48, 49; Cf. Jouguet, Vie Municipale, p. 31.

ويرى البعض أنه كان طبيعياً ألا تتمتع الاسكندرية بمجالس دستورية لأنها كانت عاصمة البطالمة ومقرهم ، ولأن أهلها كانوا يميلون بطبعهم إلى الثورات ، فكان منح هذه المدينة مجالس دستورية يهدد سلطة الملوك على الدوام، ولذلك كان ينبغي الحد من استقلال المدينة الذاتي بعدم السماح بوجود مجالس دستورية فيها^(١) . ويمكن الرد على ذلك بأنه عند إنشاء هذه المدينة لم يكن في وسع أحد التنبؤ بأن أهلها سيتصرفون بعد مايزيد على قرن بالشغب والميل إلى الثورات . ويمكن القول أيضاً وكيف يحرم البطالمة الاغريق المتمتع بمجالس دستورية ويمنحون الجالية اليهودية في الاسكندرية مجلساً دستورياً ؟ ألم توجد وسيلة أخرى للحد من استقلال المدينة الذاتي سوى حرمانها حق التمتع بمجالس دستورية ؟ إن هذه المدينة لا تبدو لنا في صورة جماعة واحدة بل على الأصح في صورة مجموعة جماعات لا يربطها جميعاً سوى قوة السلطة المركزية ، فقد كان يوجد إلى جانب هيئة المواطنين الاغريق جاليات عديدة من غير المواطنين . وكانت جالية اليهود أهم جاليات الاسكندرية جميعاً بعد هيئة المواطنين الاغريق ، وقد كان في وسع أى حاكم تقدير استخدام إحدى هاتين الجماعتين لإخضاع الأخرى . ولا يبعد أنه كان في وسع السلطة التنفيذية أن تجد أيضاً في حامية الاسكندرية ورجال الحرس وموظفي البلاط أداة لتنفيذ إرادتها^(٢) .

ويستدل بثلاث حجج أخرى على عدم تمتع الاسكندرية باستقلالها الذاتي أو بعبارة أخرى على عدم وجود مجالس دستورية فيها . وإحدى هذه الحجج ما اثبتته الوثائق من وجود قائد للمدينة^(٣) (Strategos tes poleos) في الاسكندرية . ويمكن الرد على ذلك بأنه من الجائز أنه كان لسلطة هذا القائد

(1) Bouche - Leclercq III, pp. 153 - 4.

(2) Jouguet, Vie, pp. 31 - 2.

(3) Meyer. Archiv, III, p, 72.

نطاق غير النطاق الذى كان لحكام هيئة المواطنين ومجالسها ، فقد كانت فى الاسكندرية أعداد كبيرة من غير المواطنين . ويضاف إلى ذلك ما نعرفه من انه كان يوجد قائد فى برجام ، ومع ذلك لاشك فى أنه كان يوجد بها مجلس دستورى (Boule) (١) .

والحجة الثانية هى أنه لو وجدت مجامع دستورية حقا فى الاسكندرية لظهر أثرها وكانت خير معبر عن إرادة الاسكندريين فى الثورات التى وقعت فى بداية عهد بطلميوس الخامس ايفانوس والثورات التى أدت إلى خلع بعض البطالمة وارتقاء غيرهم العرش ، كما حدث فى عهد بطلميوس فيلومتور وإيوار جتيس الثانى وسوتر الثانى وبطلميوس اسكندر وبطلميوس أوليتس (٢) . ويرد على ذلك بأن المجالس الدستورية فى مدن مصر الإغريقية كانت مجالس محلية فقط لا يحق لها المساهمة فى أعمال لا تمس مدنها فحسب بل تعنى الدولة بأكملها . ولا شك فى أن الملوك لم يعترفوا على الإطلاق لمجلس الاسكندرية الدستوريين بحق التدخل فى مسألة ارتقاء العرش أو الوصاية ، على حين يبدو أن الدور الذى قام به «المقدونيون» (أى جمعية الجيش) كان قانونيا ، إذ أنه أمامهم توج الملك الصغير بطلميوس الخامس ، وأمامهم قرأ اجاثوكلس الوصية المزيفة التى جعلته وصيا ، ومنهم ومن الفرق الأخرى طلب اجاثوكلس فيما بعد النجدة ضد تلوولپوس ، فقد كان ذلك تقليدا متوارثا منذ الوقت الذى كان فيه ملوك مقدونيا يحصلون على مبايعة الجيش لهم . وإذا كانت مبايعة الجيش للبطالمة أصبحت فى الظروف العادية إحدى الشكليات الرسمية ، فانه كانت لها قيمة كبيرة فى الظروف غير العادية ، مثل التى صاحبت وفاة بطلميوس الرابع وارتقاء ابنه العرش ، لأن الموقف العدائى الذى اتخذته الجيش من اجاثوكلس هو الذى أشعل نيران الثورة التى أسهم فيها كل سكان المدينة من الإغريق والمصريين أى المواطنين وغيرهم . ووسط هذه الثورة الجارحة لم يكن لاجتماع هيئة المواطنين أى فائدة ، وإذا كان قد حدث فعلا فلا بد من أنه كان قليل الأهمية إلى حد أن بوليبيوس لم يشر إليه فى وصفه المفصل لهذه الحوادث (٣) . وعلى كل حال فان عدم

(1) Jouguet, Vie, P. 30.

(2) Bouché - Leclercq, III, p. 153 (3) Jouguet, Vie, pp, 29 - 30.

وجود مجامع دستورية في الاسكندرية عندئذ لا ينهض دليلا على أنه لم يوجد بها مجامع دستورية طوال عصر البطالمة .

والحجة الثالثة هي أن اسبارتيانوس (Spartianus)^(١) يروى أن الإمبراطور سبتيميوس سفروس هو الذي منح الاسكندرية مجلسها (Boule) ، ويضيف إلى ذلك أن الاسكندريين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت بدون مجلس « مثل ما كانوا يعيشون في عهد الملوك » (Ita ut sub regibus) . ولما كانت توجد في الممالك الإغريقية مدن بها مجامع دستورية مثل برجام وانطاكية فإنه لا سبيل إلى ما يذهب إليه البعض من أن اسبارتيانوس لم يقصد بعبارة « مثل ما كانوا في عهد الملوك » أن يقول « مثل ما كان الاسكندريون يعيشون في عهد البطالمة » وإنما « مثل ما يعيش رعايا الملوك » . لكن إذا صح أن الكاتب القديم كان يقصد فعلا « مثل ما كان الاسكندريون يعيشون في عهد البطالمة » فأننا سنرى من القرائن ما يشير إلى أن هذه العبارة تنطبق على شطر فقط من عصر البطالمة ، مما كان سببا في اختلاط الأمر على اسبارتيانوس فجاءت عبارته شاملة عامة على نحو ما أسلفنا .

ومن ناحية أخرى يرى فريق آخر من الباحثين^(٢) أن الاسكندرية كانت مدينة إغريقية ، ولذلك لا بد من أنها كانت على الأقل في بداية عهدها تتمتع بكل عناصر الحياة العامة في المدينة الإغريقية ، أي بجمعية شعبية ومجلس بولي وحكام ومحاكم ، لكن نتيجة للأحداث العنيفة التي شهدتها المدينة حد البطالمة من استقلال المدينة الذاتي ، ومن ثم فقدت مجلسها .

وإذا ألقينا نظرة سريعة على دستور برقه^(٣) الذي عثر عليه حديثاً ونرجح أنه يرجع إلى عام ٢٤٨/٢٤٧ ق . م . فأننا نلاحظ أن هذا الدستور كان يتألف من العناصر الأساسية التالية : (١) هيئة المواطنين العاملين وكانت كبيرة العدد وتتألف من ١٠٠٠٠ مواطن ، (٢) جمعية شعبية يؤمها كل المواطنين ، (٣) مجلس مكون

(1) Spart., Vita Sever. 17.

(2) Jouguet, Trois Etudes, pp. 118 - 9.

(3) Cf Ferri, in Abh. d. Akad. d. Wiss. zu Berlin, 1926, no 5 inser no 1.

من ٥٠٠ عضو يختارون بالإقتراع ، (٤) مجلس شيوخ (gerousia) يتألف من ١٠١ عضو تنتخبهم هيئة المواطنين ، (٥) كاهن للاله ابولو تؤرخ الوثائق باسمه (eponymous) ، وتسعة أوصياء على القوانين (nomophylakes) وخمسة حكام (ephors) وإثنى عشر قائداً (Strategoi) . وكان القواد أكثر الحكام أهمية ، فهم الذين كانوا يديرون دفة شئون الدولة ، وكانت وظيفتهم سنوية فيما عدا واحداً منهم فانه كان يتولى منصبه لمدى الحياة وكان هو الوالى .

ونحن لا نريد أن نعقد مقارنة بين برقة والاسكندرية وانما نريد أن نتخذ من عتمةها هي وبطولييس بمجامع دستورية قرينة على ميول البطالة الأوائل وموقفهم تجاه النظم المألوفة في المدن الإغريقية . وإذا قيل إنه لم يكن في وسع البطالة حرمان جمهورية ذائعة الصيت مثل برقة بمجامعها الدستورية ، فانه يمكن القول أيضاً إنه لم في وسع الإغريق في فجر تاريخ الاسكندرية أن يتصوروا مدينة إغريقية ليست لها مجامع دستورية .

وإذا جاز فرضاً — وهو فرض بعيد الاحتمال — أن الإسكندر لم يمنح الإسكندرية المجامع الدستورية الخليفة بمدينة إغريقية ، فان المعقول أن يكون البطالة الأوائل قد تلافوا هذا النقص بسبب حرصهم على توفير البيئة المناسبة لحياة الإغريق ، وذلك تشجيعاً لقدمهم إلى مصر واستقرارهم فيها ولا سيما أنهم كانوا يمنون أنفسهم بأن تصبح الاسكندرية عاصمة العالم الهيلينستى وأعظم مراكز الحضارة الإغريقية . وكيف كان يتأتى للاسكندرية الفوز بهذه المسكنة في نظر الإغريق إذا لم تتوافر فيها العناصر الأساسية التي لم يكن لأى مدينة إغريقية غنى عنها ؟

وفي متحف الاسكندرية نقش نشره برتشيا^(١) وقام بلاومان^(٢) بدراسته واستكمال ما فيه من فجوات وخرج من ذلك بأنه قرار أصدره مجلس الاسكندرية والشعب ، أى الجمعية الشعبية . ويعتقد جوجيه^(٣) أنه يصعب استكمال النقش بحيث

(1) Breccia, Iscrizioni Greche e latine no 164 PP XXVI, 94 ,

(2) Plaumann, in Klio, XIII, 1913, P. 485.

(3) Jouguet. Les Assemblées d'Alex. B. S. R. A. A, 37, 1948, P. 5.

يعطينا معنى آخر . ومع ذلك فإنه لا يجوز الإكتفاء بهذا النقش المهمل للاستدلال على وجود جمعية شعبية ومجلس في الاسكندرية ، ولا سيما أننا لا نعرف عن يقين المكان الذى وجد فيه ^(١) .

ويضفى على هذا النقش أهمية كبيرة ما يتضمنه خطاب الإمبراطور كلاوديوس إلى الاسكندريين رداً عليهم حين طلبوا إليه منحهم مجلساً (Boule) ، فقد جاء فى هذا الخطاب « أما أن المجلس كان مجمعاً مألوفاً بين ظهرانيتكم على عهد ملوككم القدماء فهذا ما لا علم لى به ، لكنكم تعلمون جيداً أنه لم يكن لكم مجلس على عهد الأباطرة الذين سبقونى . ومن الواضح أن هذا المطالب الجديد الذى تتقدمون به لأول مرة قد يكون مفيداً للمدينة والحكومة ، ولذلك فانى كتبت إلى إميلیوس ركتوس (Aemilius Rectus) لبحث الموضوع وموافاتى بما إذا كان يجب إنشاء هذا المجلس وطريقة تكوينه إذا كان ثمة داع لذلك » ^(٢) .

ومن اليسير أن نتبين من هذا الرد أن الاسكندريين استندوا فى طلبهم إلى أنهم كانوا يتمتعون بمجلس فى عهد ملوكهم القدماء . ورب معترض يقول ولماذا نستبعد أن يكون زعم الاسكندريين باطلاً . والرد على هذا يسير وهو أنه لم يكن فى وسعهم الكذب على الإمبراطور خشية افتضاح أمرهم وما يلحق بهم من أذى نتيجة لذلك ، فقد كان أمراً شائعاً معروفاً أن الإمبراطور نفسه باحث مؤرخ . وفضلاً عن ذلك فإن أعداءهم اليهود كانوا واقفين لهم بالرصاد ولن يترددوا عن كشف أباطيلهم . ولعل إمبراطوراً عالماً مثل كلاوديوس لم يجهل نظم الاسكندرية فى عهد ملوكها القدماء ، لكنه ادعى الجهل لأنه لم يشأ أن تتخذ تقاليد الملوك القدماء سابقة تلزمه بما يجب إتباعه . ومع ذلك فإنه لى لا يبدو متعسفاً وعد بالفصل فى مطلب الاسكندريين على ضوء المصلحة العامة وعهد فى بحث الأمر إلى الحاكم العام إميلیوس ركتوس . والواقع أنه لو كان لدى الإمبراطور أدنى شك فى صحة مزاعم الاسكندريين لاتخذ من ذلك ذريعة لرفض مطلبهم رفضاً قاطعاً .

(1) Cf. Bell, The Alex. Senate, Aegyptus, XII, p, 79. fn. 1.

(2) Hunt and Edgar, Select Papyri II, no 212, p. 84, ll. 66, 72.

ومن ثم نستطيع اعتبار رد كلاوديوس دليلاً على تمتع الأسكندرية بمجلس في عصر البطالمة ، وسنداً قوياً يظهر القراءة التي يقترحها يلاومان للنقش سالف الذكر .
ولما كان كلاوديوس يقتنى أثر سياسة أغسطس بدقة ، وكان الكل يسلم بأنه لم يكن للأسكندرية مجلس في العصر الروماني حتى عهد سبتيميوس سفروس ، فإنه لو كان أول الأباطرة أغسطس هو الذي ألغى مجلس الإسكندرية - وهو ما يمتقده البعض استناداً إلى عبارة جاءت فيما كتبه ديون كاسيوس - لسكان أمر ذلك معروفاً للأسكندريين وللامبراطور على السواء ، ولاستند الإمبراطور إلى ذلك واختلف رده تمام الاختلاف عما جاء في خطابه المشهور ^(١) .

وماذا يقول ديون كاسيوس ؟ يميل كثيرون إلى تفسير الفقرة التي وردت في ديون كاسيوس ^(٢) بأن أغسطس وقد أدرك ميل الإسكندريين إلى الثورات وعدم ثباتهم على حال ألغى مجلسهم . والواقع أن ديون كاسيوس لم يقل فعلاً أن أغسطس ألغى مجلس الإسكندرية وإنما قال بالنص «أن أغسطس أمر الإسكندريين بمزاولة حياتهم السياسية دون أن يكونوا أعضاء في مجلس » . ولما كانت هذه العبارة قد جاءت في أعقاب جملة تحدث فيها ديون كاسيوس عن حرمان الأهالي من عضوية مجلس الشيوخ الروماني فإن هذا قد حدا بشوربات ^(٣) إلى إقترح تفسير طريف لهذه الفقرة وهو أن أغسطس حرم الإسكندريين من عضوية مجلس الشيوخ الروماني . ولم يلبث هذا التفسير أن وجد أنصاراً يحبذونه ^(٤) لكننا لا نستطيع قبوله لعدم اتساقه مع سياق الحديث ^(٥) . فلم يبق إذن إلا التفسير الطبيعي : وهو أن يكون الأسكندريون قد طلبوا إلى أغسطس منحهم مجلساً لكنه أبى

(1) Bell, The Problem of the Alex Senate, Aegyptus, XII, 1932, pp. 183 - 4.

(2) Dio Cass. LI, 17.

(3) Schubart, Die Boule von Alex, B. I. F. A. O. XXX, pp. 407 ff.

(4) Bell, op. cit. p. 183.

(5) راجع مقال الدكتور لطفي عبد الوهاب في On The Question of the Alex. Senate

في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية العدد ١٢ الصادر في سنة ١٩٥٨ ص ٧٥-٧٦ .

(1) Modica Norsa and Vitelli, Da Papiri della Soc. Italiana, in B. R. A. A., no 25 and no. 27; P. S. I. X, fasc. 1; Bell, op. cit., pp. 137 - 8, 184.

عليهم ذلك . ولعلنا نجد صدق ذلك الطلب في وثيقة بردية ^(١) نشرت منذ عهد غير بعيد . ويرى ناشرو هذه البردية أنها عبارة عن جزء من وصف ، منقول من الوثائق الرسمية ، لمقابلة بين سفارة للإسكندريين والحاكم العام عقب الفتح الروماني حين كان أغسطس لا يزال في مصر وإنمسا خارج الإسكندرية . وإذا كان البعض يعتبر الوثيقة نصا أدبيا لا يمت إلى الوثائق الرسمية بصلة ^(٢) ، فإن أكثر الباحثين يرون أن الوثيقة مستمدة من الوثائق الرسمية وتمثل مطلباً للإسكندريين ^(٣) . وبينما يعتقد بعض الباحثين أن الإمبراطور الذي قدم إليه هذا الطلب هو أغسطس ، يعتقد البعض الآخر أنه كلاوديوس ، لكن الرأي الأول هو الأرجح في نظرنا ، ولا سبيل إلى الاعتراض عليه بأن كلاوديوس يصف مطلب الإسكندريين إليه بمنحهم مجاساً بأنه مطلب جديد يتقدمون به لأول مرة ، إذ يمكن الرد على ذلك بأنه لا يبعد أن يكون المقصود بذلك لأول مرة في عهده هو ، أو أن يكون مرور فترة تتراوح بين ٧٠ و ٧٥ عاما أسدل ستارا من النسيان على حادث غير ذي بال وقع بعيداً عن روما .

وهل طلب الإسكندريون الاحتفاظ بمجلس موجود فعلاً ؟ أم إنشاء مجلس في مدينة لم يكن بها مجلس من قبل ؟ أم إعادة إنشاء مجلس كان موجوداً من قبل لكن لم يعد له وجود ؟ إن نص رد كلاوديوس يستبعد الفرضين الأول والثاني ، فقد استخلصنا من ذلك النص أنه كان في الإسكندرية مجلس وأن أغسطس لم يبلغ هذا المجلس . وإذا كانت الإسكندرية في الأصل تتمتع بمجلس ، وكان أغسطس لم يبلغ هذا المجلس ، وكانت الإسكندرية لا تتمتع بمجلس في عصر الرومان طوال القرنين الأول والثاني ، فلا بد إذن من أن يكون أحد البطالة هو الذي الغاء . ومن عساه أن يكون هذا الملك ؟ ليست لدينا أدلة قاطعة نستطيع الاستناد

(1) Medea Norsa and Vitelli, Da Papiri della Soc. Italiana, in B. S. R. A. A., no. 25 and no. 27 ; P. S. I., X, fasc. 1; Bell, op. cit., pp. 173 — 8, 184.

(2) Oliver, Aegyptus, XI, 1931, pp. 167 — 8.

(3) Viereck, Aegyptus, XII, 1932, pp. 210 — 6 ; Bell, op. cit., pp. 177 — 8, 184 ; Jouguet, Assemblées, p. 8.

إليها للجزم في أى عهد ألغى مجلس الإسكندرية ، لكن لا يبعد أن يكون قد استحدث هذا التغيير أما بطلميوس الرابع فيلوباتور^(١) الذى نعرف أنه أعاد تنظيم القبائل والأحياء في الإسكندرية ،^(٢) أو على الأرجح بطلميوس ايوارجتيس الثانى الذى اضطهد الإسكندريين أشد الاضطهاد لمناصرتهم بطلميوس فيلومتور أول الأمر وزوجه كليوبتره الثانية فيما بعد . ولما كان إلغاء المجلس يعتبر عقاباً صارماً لهيئة المواطنين فإنه يتفق وسلوك ايوارجتيس الثانى مع ارسطقراطية الإسكندرية ، التى تشير القرائن^(٣) إلى أن هذا الملك اضطهدا اضطهاداً شديداً^(٤) .

وعلى كل حال فإن ما أسلفناه من قرائن ينهض دليلاً على أن الإسكندرية كانت تتمتع في عهد البطالمة الأوائل بمجلس دستورى . ويؤيد ذلك أيضاً ما تنم عنه بردية مشهورة من أن هذه المدينة كانت تتمتع باستقلالها القضائى^(٥) ، إذ أن الاستقلال القضائى لا يتحقق إلا في ظل الاستقلال السياسى ، فهذه البردية التى لا تذكر شيئاً عن المحاكم الملكية تحدثنا عن ثلاثة أنواع من المحاكم تعمل في الإسكندرية^(٦)

(1) Schubart, Archiv V, 89.

(2) Perdrizet, op. cit., pp. 53 — 82.

(3) Cf. Strabo. XVII, 2, 12.

(٤) ونحن لا نستطيع الأخذ بالرأى الطريف الذى يذهب إليه أحد الباحثين المحدثين وخواه أن إلغاء المجلس جاء نتيجة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية في مصر حوالى منتصف عصر البطالمة بحيث افضت هذه التطورات إلى تصادم مصالح البطالمة والإغريق مما جعل إلغاء البولي أمراً مرغوباً فيه . فنحن لانجد مبرراً للقول بأنه منذ عهد بطلميوس الثانى اتجه البطالمة إلى اتخاذ ما يكفل نقص امتيازات الإغريق الاقتصادية ، ولا نرى أن تكوين طبقة وسطي ثرية من الإغريق كان يهدد مصالح البطالمة وإنما نرى أنه يخدمها بتوفير مختلف أنواع الملتزمين والضامنين .

وقد كانت الثورات القومية التى أعقبت اشتراك المصريين في موقعة رفح نذيراً كافياً للبطالمة السكى لا يعهدوا للمصريين ثانية بدور رئيسى في الجيش بدليل أنهم عدلوا عن تكوين قلب الجيش منهم وأن الأغريق استمروا يؤلفون غالبية الجيش وأرسطقراطيته . ويجب ألا يفوتنا أن البطالمة وقد كانوا يدركون أن سلامتهم في اعتمادهم على الإغريق كانوا يدركون كذلك أنهم لا يستطيعون المساس بمصالح الإغريق دون الاضرار بمصالحهم شخصياً .

(5) P. Halensis, pp. 162, 171.

(6) P. Halensis, pp. 166 — 8.

مستقلة عن الملك . فلا عجب أن كانت الدعاوى التي تقام أمامها لا توجه ولا ترفع إليه . وكان النوع الأول يتألف من مدع عام « eisagogeus » ومحلّفين « dikastai » يختار أحدهم للرياسة « proedros » . وكان النوع الثانى يتألف من محكمين « diaitetai » يعملون تحت إشراف حارس القوانين « nomophylax »^(١) وكان النوع الثالث يتألف من قضاة « kritai » يبدو أنه كان لهم رئيس « ho epi tou kriteriou » وكاتب « grammateus » . وإلى جانب محاكم المدينة ومواطنيها كانت محكمة القضاة الإغريق « Chrematistai »^(٢) ، وهى محكمة ملكية متبقلة ، تنعقد أيضاً فى الإسكندرية ، مثل ما كانت تنعقد فى مدينة بطوليميس^(٣) التى كانت لها كذلك محاكمها الخاصة . ويبدو أن المحكمة الملكية كانت تنعقد فى المدن الإغريقية للفصل فى قضايا غير المواطنين .

وبما أنه لم يمد هناك مجال للشك فى أن الإسكندرية كانت تتمتع بمجلس دستورى فى بداية عهد البطالمة ، فإننا نستطيع فى ضوء ذلك تفسير عبارة « ملوككم القدماء » التى وردت فى رد كلاوديوس بأنها تعنى البطالمة الأوائل ، وكذلك تفسير ما سبقت الإشارة إليه عند مناقشة أقوال اسپارتيانوس من أن عبارة « مثل ما كانوا يعيشون فى عهد الملوك » صحيحة ومنطبقة على ذلك الجزء من عصر البطالمة بعد إلغاء المجلس .

وفى رأى بعض الباحثين أنه إذا كانت الإسكندرية قد منحت عند إنشائها مجلساً فإنها لم تمنح جمعية شعبية لأن ديمقراطيتها كانت ديمقراطية معتدلة ، لكن البعض الآخر يرى بحق أن الاسكندرية وقد منحت مجلساً مثل بطوليميس لا بد من أن تكون قد منحت كذلك جمعية شعبية . ونحن نميل إلى هذا الرأى ولا سيما أننا

(1) Taubenschlag, p. 369.

(2) P. Petr. III, 25 (3 B. C.) ; Enteuxois 8 (218 B. C.).

(3) P. Grenf. I. 40 ; B. G. U. 1249.

نجد له سندا في نقش بلاومان ، لكننا لا نستطيع مسايرة أصحاب هذا الرأى فيما يذهبون إليه من أنه إذا كان البطالمة الأواخر قد ضاقوا ذرعا بالمجلس وألغوه فإنهم كانوا أرحب صدراً إزاء الجمعية الشعبية وأبقوا عليها إلى أن ماتت ميتة طبيعية عند الفتح الرومانى^(١) . فنحن لا ندرى كيف تموت المجالس الدستورية ميتة طبيعية ، ولا سيما مجالس شعوب تندفق حيوية ونشاطا مثل شعب الإسكندرية ، دون أن يلغىها الحكام ؛ وليس هناك ما يشير إطلاقا إلى أن أغسطس ألغى الجمعية الشعبية فى الإسكندرية . وإذا صح ما يرويه ديون كاسيوس من أن يوليوس قيصر عقد اجتماعا للجمعية الشعبية وأخذ موافقتها على وصية بطلميوس الزمار^(٢) ، ومن أن أنطونيوس قسم الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية بين كليوبتره وأبنائها فى اجتماع عقده للجمعية الشعبية^(٣) ، فانه يمكن تفسير ذلك بأنه فى تلك المناسبتين دعيت هيئة المواطنين للاجتماع . ووصف هذا الاجتماع بأنه اجتماع الجمعية الشعبية صحيح من حيث أن اجتماع الجمعية الشعبية لا يخرج عن كونه اجتماع هيئة المواطنين لكن يصعب أن نتخذ من ذلك دليلا على وجود الجمعية الشعبية واجتماعها بانتظام فى الشطر الثانى من عهد البطالمة .

ولو أمكن تصور مدن ليس لها استقلال سياسى ولا استقلال قضائى ، أى ليست لها مجالس دستورية تتمثل فيها سيادة جماعة المواطنين ، ولا محاكم تستمد سلطتها من تلك السيادة ، لما أمكن تصور مدينة لا تتطلب إدارتها حكماً وواجبات عامة . وقد كان ملء مناصب الحكام والإضطلاع بالواجبات العامة يعتبران من أهم الحقوق والواجبات التى ينطوى عليها التمتع بحقوق المواطنة .

وغنى عن البيان أن طابع هذه الحقوق والواجبات يختلف فى المدن المستقلة عنه فى المدن غير المستقلة ، فى الأولى تكون هيئة المواطنين مصدر السلطة وهى

(1) Jouguet, Assemblées, pp. II ff.

(2) Dio Cass. XLII, 34.

(3) Dio Cass. XLIX, 41.

التي تختار الحكام ، أما في الأخيرة فإن الحكام يكونون بمثابة مندوبي السلطة المركزية ، لكنهم يقومون بنفس المهام ويحملون نفس اللقب مثل حكام المدن المستقلة ، إلا أن طبيعة سلطتهم من الناحية القانونية مختلفة في الحالتين لاختلاف مصدرها في كل منهما .

ولا شك في أن مدن مصر الإغريقية لم تكن دولا مستقلة ذات سيادة سواء كانت تتمتع بمجالس دستورية أم لم تكن ، بل كانت مدنا خاضعة لسلطة الملك التي تتجلى قبل كل شيء في اختيار الحكام . ولعله كان يتبع في اختيارهم إحدى طريقتين : إما أن المواطنين يرشحون عدداً منهم يختار الملك من بينهم من يشاء ، وإما أن المواطنين يختارون من يريدون من الحكام بشرط أن يوافق الملك عليهم . لكن تدخل السلطة المركزية في إدارة المدن لم ينته عند ذلك ، إذ كان لها أيضاً ممثلون في كل مدينة ^(١) ، كما أن بعض الموظفين الملكيين كانوا يشتركون في إدارة المدينة ^(٢) .

لكن هل كانت سلطة الحكام المحليين مقصورة على هيئة المواطنين أم تشمل كل سكان المدينة ؟ لا شك في أنها كانت لا تشمل اليهود في الإسكندرية ، لكننا لا نستطيع الجزم بأنها لم تمتد إلى باقي السكان الآخرين ، وإن كان من المحتمل أن المصريين وغيرهم ممن لم يكونوا مواطنين — فيما عدا الإغريق — كانوا يخضعون مباشرة لممثل السلطة المركزية ^(٣) .

وتبين من بردية من عهد بطليموس الثاني أن حكام الإسكندرية كانوا يدعون أرا كنة « archontes » لكن يصعب أن ندين أنهم كانوا في عصر البطالة يؤلفون هيئة « Koinon ton archonton » على نحو ما هو معروف في العصر الروماني ^(٤) . ونتعرف في هذه البردية على الحكام الآتيين :

(1) Jouguet, Vie, pp. 34 - 36 ; Mac. Imp., p. 306.

(2) Jouguet, Vie, pp. 41 - 42 ; Mac. Imp., p. 306.

(3) Jouguet, Vie, pp. 40 - 41.

(4) P. Hal., pp. 162 - 3.

أولاً : نوموفيلاكس « Nomophylax » وكان يشرف على محكمة المحكمين « diaitetai » ويقوم فيها بدور يشبه ما يقوم به المدعى العام « eisagogeus » في محكمة المخالفين ، فهو الذى كانت تقدم إليه جميع وثائق القضية وهو الذى كان يعلن الحكم وينفذه (١) .

ثانياً : ثسموفيلاكس « thesmophylax » ، ولا نستطيع أن نتبين شيئاً عن مهام هذا النوع من الحكام (٢) أكثر من أنه كانت لهم صلة ما بالدوطة (٣) . ويظن أنه كان يوجد واحد من هؤلاء الحكام فى كل حى من أحياء الإسكندرية ، وأن وجودهم لم يكن مقصوراً على الإسكندرية (٤) .

ثالثاً : استينوموى « astynomoi » وكانوا حفظة الأمن فى المدينة (٥) .

رابعاً : أمناء الخزينة « tamiai » ويبدو مما ترويه البردية المشهورة أنهم كانوا يتسلمون الأموال المستحقة للمدينة (٦) .

وفى وثيقة من حوالى ٢٨٠ — ٢٥٠ ق . م . ورد ذكر حاكم آخر يدعى « gynaikonomos » (٧) . ويظن أن هذه الوثيقة المهائلة كانت تتضمن فقرات من أحد قوانين مدينة من مدن مصر الإغريقية ، لعلها الإسكندرية التى يسود رأى أن قوانينها كانت تماثل قوانين أثينا (٨) . وقد كان الحكام الذين يدعون « gyanikononmoi » جزءاً من الجهاز الدستورى فى أثينا فى خلال حكومة ديمتريوس الفليرى (٣١٧ — ٣٠٧ ق . م .) بصفتهم الأداة التى تطبق القوانين التى تحدد قواعد السلوك والانفاق . ولا يبعد أن يكون ديمتريوس الفليرى

(1) P. Hal., I. 42, p. 57 ; P. Lille 29 ; Tanbenschlag, p. 369., Zucker, Beitrage, p. 63.

(2) Preisigke, Fachwörter, S. V. Thesmophylax.

(3) P. Fay, XXII, II 9 — 10, p. 126.

(4) P. Hal., I. 234, pp. 135 — 6.

(5) P. Hal., I. 237, p. 137.

(6) P. Hal., I. 244, pp. 143 — 4.

(7) P. Hibeh, II, 1955, p. 69, no. 196.

(8) P. Oxyrh., 2177, 13 — 14; P. Lille, pp. 125 — 6; P. Hal., pp. 173 — 4.

قد استحدث هذا النظام في الإسكندرية عندما دعاه بطليموس الأول إلى مصر في عام ٢٩٤ ق . م . لإنشاء « دار العلم » . وإذا صح أن قوانين الإسكندرية بوجه عام كانت مماثلة لقوانين أثينا فلا يبعد أنه قد كانت لديمتريوس يد في ذلك . ويحدثنا استرابون ^(١) بأن كبار حكام الإسكندرية في عهد الملوك كانوا : أكسيجيتس « Exegetes » وهيومناتوجرافوس « Hypomnematographos » وأرخيديكاستس ونوكترينوس ستراتيجوس « Nukrterinos Strategos » . لكن لا شك في أن هذه القائمة غير كاملة ، وفي أن هذا الكاتب خلط بين حكام المدينة المحليين وبين موظفي الدولة الملكيين ، الذين كان مقرهم في الإسكندرية وكان الهيومناتوجرافوس والأرخيديكاستس من بينهم ، لأننا لا نعرف موظفين يطلق عليهم في عهد البطالمة لقب هيومناتوجرافوس سوى سكرتيري الملوك وسكرتيري وزراء المالية ^(٢) .

أما وظيفة الأرخيديكاستس فهي إحدى مشا كل تاريخ مصر في عهد البطالمة ، لأنه إذا كان البعض يتفق مع إسترابون ويرى أن هذا الحاكم كان موظفاً محلياً في الإسكندرية ^(٣) ، فإن البعض الآخر يرى غير ذلك ^(٤) . ومما يجدر بالملاحظة أن وثائق العصر الروماني ترينا أن الأرخيديكاستس كان يحمل لقباً ترجمته « المشرف على محاكم القضاة الإغريق والمحاكم الأخرى » ، وبما أنه من المسلم به أن مهام الأرخيديكاستس لم تكن مقصورة في العصر الروماني على مدينة الإسكندرية ، وأنه لم توجد عندئذ محاكم للقضاة الإغريق ، فلا بد إذن من أن هذا اللقب كان أحد بقايا نظام القضاء البطلمي ، عندما كانت توجد تلك المحاكم التي كان يشرف عليها ^(٥) ، ولا بد أيضاً من أن نطاق عمل

(1) Strabo, XVII, c. 797 ; Bouché-Lecl., III, p. 154.

(2) Bouché-Leclercq, III, pp. 154 — 155.

(3) Mitteis, Grundzüge, II, p. 27 ; Koschaker, in Zeitsch. d. Savigny-Stiftung, XXVIII, pp. 245 ff. ; XXIX, pp. 1 ff.

(4) Schubart, Archiv, V, pp. 61 — 70.

(5) Jouguet, Vie, pp. 40. 168. 169 ; Bevan, p. 102.

الأرخيديكاستس كان يشمل في عهد البطالمة أيضاً كل مصر . ويؤيد هذا الرأي ما يرجح من أن وثيقه بردية مشوهة من هرموبوليس بتاريخ ٢٤ يولييه سنة ٥٥ ق . م . . كانت تحوى هذا اللقب^(١) . لكن إذا صح هذا فلماذا لم يرد له ذكر في الوثائق البردية من عصر البطالمة ؟ إنه لم يرد لهذا الموظف ذكر في عصر البطالمة إلا مرة واحدة في نقش يثبت مظاهر التشريف التي أعدها أهل جزيرة ثيرا على شخص يدعى ديونييسيوس بن تيمونا كس (Timonax) ، وصف بأنه أرخيديكاستس وبين الأصدقاء الأول للملك بطلميوس والملسكة كليوبتره^(٢) . ويحتمل أن هذا الشخص كان موظفاً قضائياً عينته حكومة البطالمة لجزيرة ثيرا ، ولم يكن له اختصاص في مصر^(٣) . ويحاول البعض تفسير صمت الوثائق المصرية عن ذكر هذا الموظف بأنه بالرغم من أن اختصاصه كان يشمل كل مصر ، فإن هذا الاختصاص كان مقصوراً على اختيار القضاة الذين كانت تتألف منهم المحاكم المختلفة ، ولم تكن له صلة بالمحاكم نفسها ولا باستئناف الأحكام^(٤) . لكن إذا صح هذا فكيف يمكن إذن تفسير لقب « المشرف على محاكم القضاة الإغريق وعلى المحاكم الأخرى » ؟ لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا اعتقدنا أن الأرخيديكاستس كان لا يفصل في قضايا الاستئناف وإنما هو الذي كان يعدها للملك عند عرضها على محكمته ، ولذلك كان لا يرد له ذكر في الوثائق . وعلى كل حال يبدو مما نعرفه أن استرابون قد أخطأ في وصف الأرخيديكاستس بأنه من حكام الإسكندرية المحليين في عهد البطالمة .

لم يبق إذن من المحاكم الذين ذكرهم استرابون سوى الإكسيجيتس والنوكترينوس سترانجوس . ويوجد خلاف كثير حول اختصاصات الأول ،

(1) B. G. U. 1000 ; Bouché-Leclercq., III, p. 157.

(2) Homolle, B. C. H., II, 1878, p. 398 ; Strack, n. 169 ; O. G. I S. I, n. 136.

(3) Bevan, p. 102.

(4) Schubart, loc. cit.

وإن كنا نعرف أن اختصاصات الإكسيجيتس في المدن الإغريقية ، مثل أثينا وإليوسيس وأولمبيا واسبرطة ، كانت تفسير الوحي وطلائع المستقبل وتطبيق التقاليد الدينية أو القوانين التي تستمد سلطتها من الديانة . وقد كان أول من تولى هذا المنصب في الإسكندرية تيموثيوس ، الذي ساهم في إنشاء عبادة سيرابيس^(١) . وإذا كان اختصاص إكسيجيتس الإسكندرية مشابهاً في الأصل لاختصاص نظرائه في المدن الإغريقية ، فلا بد من أن اختصاصه قد اتسع كثيراً بمضى الزمن ، إذ يصف استرابون عمله بأنه كان « الإشراف على مصالح المدينة » ، وهو وصف غامض . لكن يبدو أن اختصاصه لم يعد مقصوراً على شئون الديانة ولا سيما أن استرابون يحدثنا بأن هذا الحاكم كان يرتدى رداء قرمزيا ويتمتع بمظاهر إجلال تقليدية ، مما يوحي بأن هذا الحاكم كان رئيس الحكام المحليين^(٢) . وإذا قورنت أقوال استرابون عن الإكسيجيتس بما يصف به مرجع آخر^(٣) كاهن الإسكندر والبطالة المؤهلين من أنه كان « المشرق على المدينة ويرتدى تاجاً ذهبياً ورداء قرمزيا » فإنه يبدو لنا أن الإكسيجيتس كان أيضاً ذلك الكاهن ، ولا سيما أن اختصاصات هذين المنصبين كانت قبل كل شيء دينية ، وأنه كان لهذين المنصبين مكانة سامية . ويؤكد هذا المرجع أنه كان من اختصاصات كاهن الإسكندر تطهير النهر والإشراف على زراعة أملاك التاج وعلى استخراج الزيت . وقد يكون هذا صحيحاً ، إذا اقتصرَت هذه المهام على منطقة الإسكندرية ، وكان الملوك قد منحوا الإسكندرية أملاك التاج هناك وتنازلوا عن احتكار إنتاج الزيت وبيعه في هذه المنطقة . فإذا صح هذا وصح أن إكسيجيتس الإسكندرية كان أيضاً كاهن الإسكندر ، فإننا نجد هنا تفسيراً لقول استرابون الغامض بأن عمل الإكسيجيتس كان « الإشراف

(1) Bouché - Leclercq, III, pp. 159—160.

(2) Bevan, p. 103.

(3) Pseudo-Callisthenes, III. 33.

على مصالح المدينة « . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الإكسيجيتس كان أيضاً عميد دار العلم (Mouseion)^(١) . وهذا محتمل لأن نقشا من عهد بطليموس الثالث يحدثنا بأن شخصاً يدعى خريسترموس كان إكسيجيتس وعميد دار العلم^(٢) ، ولأننا نعرف أن شخصاً يدعى يوليوس قسطينوس (L. Julius Vestinus) كان في عهد هادريانوس « رئيس كهنة الإسكندرية ومصر بأجمعها وعميد دار العلم »^(٣) .

أما عن النوكترينوس ستراتيجوس (قائد الليل) فلا نعرف شيئاً ، وإن كان من المحتمل أن نرى فيه قائد المدينة (Strategos tes poleos) ، الذي وجد لقبه على لوحة من الجرانيت لا يعرف تاريخها ولا المكان الذي وجدت فيه ، لكن يرجح أنها من عهد البطالمة الأواخر ، وأن الإسكندرية هي المدينة المقصودة^(٤) . ويرى بعض المؤرخين أن هذا الحاكم كان في بادئ الأمر الشخص الذي يحكم المدينة في غيبة الملك ، لكن بمرور الزمن أصبحت وظيفته دأمة ، وأصبح يدعى « المشرف على المدينة » ، إلا أنه في أواخر عصر البطالمة وفي عهد الرومان كان يدعى « قائد المدينة » . ويظن أن هذا الحاكم كان يشبه « حاكم دار المدينة » (Praefactus Urbis) في روما ، ولذلك يرجح أنه لم يكن قائد الإسكندرية العسكرية بل رئيس الشرطة فيها^(٥) . وإذا صح أنه كان يوجد شبه بينه وبين « حاكم دار مدينة » روما ، فإنه من المحتمل أنه كان يعين من قبل الملك للإشراف على المدينة ولم يكن حاكماً يعينه المواطنون أنفسهم^(٦) . ومن المحتمل كذلك أنه كان يشرف على سكان المدينة الذين لم يكونوا في عداد هيئة

(1) Mommsen, R.G. V, p. 568 ; Cf. Bouché-Leclercq, III, p. 161, fn. 2.

(2) B. C. H. III, 1879, p. 470; O. G. I. 104.

(3) C.I.G. 5900.

(4) Bouché-Leclercq, III, pp. 162—163.

(5) Breccia, p. 38.

(6) Bevan, p. 103.

المواطنين . وإذا صح هذا الاحتمال الأخير ، فلا بد من أنه كان يوجد ممثلون آخرون لسلطة الملك ، الذى كان الحاكم الفعلى للمدينة .

ويبدو غريباً أن استرابون الذى يتحدثنا عن الجنازيوم لم يذكر رئيس الجنازيوم (gymnasiarch) ، الذى لا بد من أنه كان من أهم الحكام المحليين ، لأن الجنازيوم كان مقر حياة الإغريق الإجتماعية ورئيس الجنازيوم كان الرئيس الإجتماعى لهيئة المواطنين^(١). وفى العهد الرومانى عندما كانت تقع إضطرابات عنيفة ومصادمات بين إغريق الإسكندرية ويهودها ، كان رئيس الجنازيوم هو الذى يمثل هيئة المواطنين الإغريق ويدافع عن قضيتهم فى روما أمام الإمبراطور^(٢). فلا بد إذن من أنه كان لهذا الشخص مركز هام فى عصر البطالة . وإذا كان استرابون قد أغفل ذكره فإننا نجده فى نقوش من الإسكندرية^(٣).

* * *

إن جمال الإسكندرية وبهاءها وغناها قد أكسبتها شهرة واسعة ، استمر الكتاب القدماء يشيدون بها حتى بعد أن أخنى الدهر على هذه المدينة العظيمة وعفا الزمان على آثارها . فإن سيرياك من أنكونا (Cyriac of Ancona) ، وقد تأثر بما شهده فيها ، أطلق على أطلالها الباقية فى عام ١٤٣٥ « المدينة لمجيدة » (Urbs nobilissima) . ويعتقد المقرئ أن الله عز وجل يشير إلى الإسكندرية عندما يذكر فى القرآن الكريم المدينة التى ليس لها مثيل . ويقول عنها أحمد بن صالح : « إنها الجمعة التى أودع الله فيها خير سهامه » .

وإذا توغلنا بين طيات الماضى ، فإننا نجد الكتاب فى عصر المسيحية وقبل

(1) Bevan, p. 104; Jouguet, Vie, p. 40.

(2) Wileken, Zum Alex. Antisemitismus, Abh. d. süchs. Ges. d. Wiss. Phil., - - hist. Kl., XXVII, 1909

(3) Neroutzos, L'anc. Alexandrie, p. 98, no 10; Schahart, Klio, X,

ذلك فى عصر الوثنية ، سواء أكانوا إغريقاً أم رومان يكادون لا يذكرون الإسكندرية دون وصفها بما ينم عن عظمتها ومجدها وثرائها ، لأنها كانت فى نظر القدماء المدينة التى تحوى كل ما يمكن أن يحصل الإنسان عليه أو يرغب فيه . فىقول هيرونداس (Herondas) على لسان امرأة عجوز ، تتحدث إلى زوجة صغيرة رحل عنها زوجها إلى الإسكندرية : « لقد انقضت عشرة مشهور منذ سافر مائندريس إلى مصر ، لكنه لم يرسل إليك كلمة واحدة . ولا شك فى أنه قد نساك وانتهل من منبع سرور آخر ! مصر ! (يقصد الإسكندرية) هناك حيث يوجد معبد الآلهة (ارسينوى) ، وكل شئ يمكن وجوده فى أى مكان آخر : ثراء وملاعب . ومجد وراحة وعظمة ومباهج وفلاسفة وذهب وشبان وملك كريم ودار للعلم ونخمر وكل الأشياء الطيبة التى يمكن أن تتوق النفس إليها ، ونساء يفقن النجوم فى عددنهن ويضارعن الآلهات اللاتى إحتكمن إلى باريس ، فى جمالهن . . (١) .

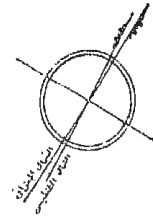
وكان أهل الإسكندرية يشتهرون بحبهم للعمل والمال وعييلهم للشورات وكل ما هو جديد وبشغفهم بالسخرية اللاذعة . وقد اشتهرت ألقاب السخرية ، التى كانوا يطلقونها على الملوك وفيما بعد على الأباطرة الرومان . ويشير إلى ذلك سنكا (Seneca) فىقول إن أهل الإسكندرية كانوا يحبون اللغو ويبزعون فى السخرية . ويقول الامبراطور هادريانوس عن أهل الإسكندرية ، إذا صح أنه مؤلف الكتاب المشهور الذى أرسل إلى أحد أقاربه : « لا يُبارى أهل الإسكندرية فى الإضطراب والغرور والأذى . ومدينتهم غنية ، تفيض بالخيرات ، ولا يوجد بها أحد عاطل ، فإنهم لا يعبدون سوى إله واحد هو : المال . . . » .

ويؤكد المقرئ أن أهل الإسكندرية كانوا جشعين ، ويصفهم كتاب

(1) Herondas, I, 23. A,

خريطة الإسكندرية القديمة

ولقد بينت عليها بعض المعالم الحديثة بخلاف مخططة
ووضعت الأسماء الحديثة بين قوسين



آخرون بأنهم كاذبون وجريئون . وكان يجتذب الأجانب وأهل الأقاليم إلى الإسكندرية مباهج الحياة فيها أكثر مما كان يجتذبهم إليها علماءؤها وأدباؤها ومماهدا . ونستطيع أن نستدل على مفاسد الحياة فيها من أن قيصر كان لا يثق بجنوده الذين ينغمسون فيها . ويشبهها أحد الكتاب الحديثين بفلورنسا في عهد أسرة مديتشى ، لأن وجه الشبه قريب جداً بين هاتين المدينتين في النشاط الفنى والأدبى والثروة وحب الحياة البهيجة . ومن المصعب أن نلاحظ أن مطلع إحدى المقطوعات الشميرة التى كان يترنم بها أهل فلورنسا يكاد يكون ترجمة مطلع إحدى المقطوعات التى كان ينشدها أهل السمر بأعلى أصواتهم فى شوارع الإسكندرية ، ومعناه « فلنأكل اليوم ونشرب لأننا سنموت غداً »^(١) .

(1) Breccia, p. 35.

الاسكندر ووحى آمون

عندما استتب الأمر للإسكندر في مقدونيا وبلاد الإغريق بادر إلى محاربة
الفرس برغم كل ما كان يكتنف مثل هذه الحرب من صعاب . فقد كان تحت إمرة
الفرس موارد تكاد لا تنضب فضلا عن تمتعهم بسيادة البحار ، على حين أن
موارد الإسكندر كانت ضئيلة نسبياً ، ولا سيما أنه كان لا يستطيع الاعتماد على
قوى الإغريق البرية أو البحرية . وقد استعاضت مقدونيا عن كل ذلك بما كانت
تتمتاز به من أنها أمة فتية قوية تتألف من جنود أشداء وتتسلح بأحدث الأسلحة
والمعدات ويقودها ملك شاب يجمع بين المقدرة والجرأة ويشد أزره عدد من
القواد المجريين .

ورأى الإسكندر أن الوسيلة المثلى للقضاء على سيادة الفرس البحرية هي
الاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسي الواحدة بعد الأخرى . ولذلك يبين
أنه قرر ألا يستولى على شواطئ سوريا وفينيقيا فحسب بل على مصر وكذلك
برقة ، فيضمن على هذا النحو سلامة مؤخرته ويترك الأسطول الفارسي بلا مأوى
يلجأ إليه لإصلاح أى عطب يصيب المراكب أو بلد محالف يستمد منه المونة
أو المدد⁽¹⁾ . وقد كان فتح مصر ضروريا للإسكندر لأنه كان من ناحية بمثابة
استكمال فتح فينيقيا ومن ناحية أخرى بمثابة ضمان لوضع بلاد الإغريق تحت
رحمة الإسكندر ، لأن استيلاءه على مصر بعد الدردنيل كان يضع في قبضته
أكبر مصدرين تعتمد عليهما بلاد الإغريق في استيراد ما تحتاج إليه من
القمح . فضلا عن ذلك فإن هذا الفتح كان يضع في قبضته موارد مصر الغنية
فيسهل عليه أن يتابع محاربة الفرس . ولعل عدم اطمئنان الإسكندر إلى مصر

(1) Bevan, Hist. Eg. under Ptol. Rule, p. 1; Rostovtzeff, Hist. Anc. World, 1, p. 332; Bell, Eg. from Alex. to Arab Conquest, 1948, p. 28.

لم يكن مبعثه خضوعها للفرس بقدر ما كان الخوف من أن تتخذها العناصر المعادية للإسكندر مأوى لها ، أو الخوف من قيام ثورة وطنية فيها تقودها الارستقراطية المصرية — وكان لا يزال لها شأن كبير في الدلتا — ويتحالف معها الإغريق ، فقد كان في وسع مثل هذا الحلف إخضاع قبرص وفينيقيًا وتهديد الإسكندر تهديدا خطيرا^(١). حقا إن استيلاء الإسكندر على فينيقيًا قد أزال من طريقه الخطر الرئيسي الذي كان يهدده لأن سفن فينيقيًا وقبرص ، وكانت أفضل جزء في الأسطول الفارسي ، انضمت عندئذ إلى الاسكندر ، غير أن اجيس (Agis) ملك اسبرطة كان لا يزال يعمل بنشاط على إثارة الحرب ضد الإسكندر^(٢). وإلى جانب كل ذلك كان يوجد اعتبار سياسي له خطره فقد كان الإسكندر على وشك تكوين امبراطورية أغريقية أسيوية ، وكان لا يمكن تصور قيام مثل هذه الإمبراطورية دون أن يكون بحر إيجه بمثابة قطب الرمح فيها ، وكان يتعذر السيطرة على هذا البحر بل على شرق البحر الأبيض المتوسط دون السيطرة أولا على مصر^(٣).

وازاء كل ذلك فإن الاسكندر عندما دحر دارا الثالث ملك الفرس في موقعة إيسوس (Issos) في خريف عام ٣٣٣ لم يتابع انتصاراته باقتفاء أثر الملك الأكبر الذي فر هاربا إلى بابل ، وإنما آثر أن يفتح أولا فينيقيًا ومصر وبرقة . وما كاد يستولى على صور وغزة حتى يعم وجهه شطر مصر فبلغ يلوزيون (Pelousion) في نوفمبر عام ٣٢٢^(٤) وقد طوقته هالة من جلال انتصاراته الحديثة . ولم يجد مازاكس (Mazakes) ، الوالي الفارسي الذي كان يحكم مصر إذ ذاك ، مفرًا من التسليم^(٥) لأنه أدرك أن المقاومة كانت غير مجدية

(1) Cf. Jouguet, *Trois Etudes*, p. 26 fn. 4.

(2) Wilcken, *Alex. The Great*, pp. 108 — 113.

(3) Cf. Ehrenberg, *Alex. u Aegypten*, Beiheft *Alt. Orient*, 71, pp. 30 .. 42.

(4) C. A. H. VI, p. 370.

(5) Arr., *Anab.* III, 1, 1.

ولا سيما أن المصريين لم يخفوا عواطفهم نحو الإسكندر ، بسبب المصائب التي جلبها عليهم الفرس والمساعدات التي لقيها المصريون من الإغريق كلما حاولوا التخلص من ربقة الملك الأكبر^(١) . وقد ظن المصريون أن الإسكندر قدم إليهم لينقذهم من بلائهم كما قدم الإغريق مراراً من قبل — إذ كان المصريون والإغريق حلفاء طبيعيين على عدوهم المشترك : الفرس — فرحبوا بالإسكندر دون أن يفتنوا إلى أن الإغريق لم يأتوا هذه المرة حلفاء وإنما ليفرضوا سيادتهم عليهم ويقيموا مكان الحكم الفارسي حكماً قدر له أن يكون أشد بأساً وأطول بقاء .

ولما كان من بين الأسباب التي احتفظت قلوب المصريين على الفرس أنهم انتهكوا حرمة الديانة المصرية ، فقد كان أول هم الإسكندر عندما حط رحاله في منف هو أن يظهر احترامه للديانة المصرية فقدم القرايين في معبد فتاح للآلهة الوطنية والمجل المقدس ايبس^(٢) ، بل يذكر مصدر قديم^(٣) أن الإسكندر رسم نفسه فرعوناً في معبد فتاح طبقاً للطقوس الدينية المصرية . ويشك بعض المحدثين^(٤) في صحة هذه الرواية على أساس أن مصدرها عبارة عن مجموعة الأساطير التي نشأت منذ القدم حول الإسكندر ، وأن هذه الرواية اخترعت في مصر لإرضاء الشعور القومي وإظهار الإسكندر في ثوب خليفة الفراعنة الشرعيين . أما البعض الآخر من المحدثين فيرى أنه بالرغم من الشك في قيمة هذا المصدر التاريخية فإن الفكرة ذاتها يمكن اعتبارها فوق مستوى الشك^(٥) . ولا يستعبد البعض صحة هذه الرواية وإن كان يرى أنه لم يكن هناك داع لإقامة طقوس التتويج ، وذلك لأن السماح

(1) Wickon, p. 113; Radot, Alex. Le Grand, p. 108

(2) Arr. III, 1, 1 - 4

(3) Pseudo — Callisthenes, A, 1, 34, 2.

(4) Bevan, p. 3, ١

(5) Wickon, p. 114.

للاسكندر بدخول قدس الأقداس باعتباره ملكاً كان ينطوى على الاعتراف به منذ تلك اللحظة فرعون مصر الشرعى (١). وهذا صحيح في ذاته لأن فرعون وحده هو الذى كان يستطيع تقديم القرابين للآلهة ودخول قدس الأقداس وإن كان ينبى عنه عادة كبير الكهنة . لكن لما كان الاسكندر قد عنى بكسب عواطف المصريين بالظهور فى ثوب جدير بخليفة حقيقى للفراعنة القوميين ، فإننا نرجح أنه حين ذهب إلى معبد فتاح فى منف لتقديم القرابين للآلهة المصرية قد توج أيضاً فرعوناً . وعلى كل حال فإننا نجد اسمه فى النقوش المصرية مشفوعاً بثلاثة من الألقاب الرسمية التى كان القراعنة يحملونها منذ غابر الزمن (٢).



الأسكندر يرتدى ثياباً مصرية ويضع فوق رأسه تاجى الوجهين
ويقدم القرابين للآلهة آمون (معبد الأقصر)

(1) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 2; Cf. Trois Etudes, pp. 15 — 17.

(2) Lepsius, Denk., Vol. IV, 4 C; Text III, p. 82; Sethe, Hierog. Urk., p. 8; Wilcken, p. 114; Jouguet, Trois Et., p. 16.

(م ٤ — البطالة)

وبعد أن فرغ الإسكندر من مهامه في منف وضع أساس مدينة الاسكندرية^(١)، وهي أول مدينة نعرف عن يقين أن الإسكندر أنشأها في خلال حملته^(٢). وقد كان في ضمير الدهر أن هذه المدينة ستصبح أعظم المدن التي حملت اسم الإسكندر بل أعظم عواصم العالم الإغريقي في هذا العصر. ونحن نستبعد أن الإسكندر كان يفكر في جعل الإسكندرية مقر امبراطوريته، لأنه لو قصر امبراطورته على الإمبراطورية الفارسية والعالم الإغريقي لسكانت بابل بحكم موقعها افضل من الإسكندرية للاضطلاع بمهمة العاصمة. ولو صح ما قيل من أنه كان يريد فتح الغرب أيضاً^(٣) لاتجه بتفكيره إلى أثينا بحكم ماضيها ومكانتها وموقعها. ولعل الأرجح أن الإسكندر، وقد حطم منذ فترة قصيرة مدينة صور، وكانت أكبر ميناء في شرق البحر الأبيض المتوسط، كان يريد أن تكون الإسكندرية ثغراً مقدونيا يخلف صور في العالم التجاري، ولا سيما أنه لم يكن لمصر على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ميناء جدير بأهميتها وغناها، وذلك بالرغم من أن علاقتها مع عالم بحر إيجه كانت في ازدياد مطرد منذ عدة قرون خلت. ولعل هدف الإسكندر لم يكن اقتصادياً فحسب بل كان حربياً وحضارياً بأن يجعل من الإسكندرية قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر إيجه وشرق البحر الأبيض المتوسط، ومركزاً لنشر الحضارة الإغريقية بين ربوع الشرق القديم.

وبعد أن وضع الإسكندر أساس مدينته الجديدة، أخذ جزءاً من جيشه واتجه غرباً في محاذاة الشاطئ حتى وصل إلى پاريتونيون (Paraetion) — مرسى مطروح) حيث استقبل سفراء برقة ثم اتجه جنوباً وضرب في بطن الصحراء حتى وصل إلى معبد آمون في واحة سيوة. ويتساءل الناس عن سبب ذهاب الإسكندر إلى سيوة

(١) لا يأخذ أكثر الباحثين بما جاء في ديودوروس (XVII, 52, 1) وكورتيس (IV, 8, 1) وجوستينوس (XI, 11, 3) من أن الاسكندر أسس الإسكندرية في طريق العودة من واحة سيوة.

(2) Arr., III, 1, 5.

(3) Cf. Diod. XVIII, 4; Tarn, J. H. S. 1921, pp. 1 ff.; 1939, pp. 124 ff.

عن طريق پاريتونيون مع أن الطريق الطبيعية من وادى النيل إلى سيوة كانت عبر وادى النطرون . ولا يمكن تفسير ذلك بأن الإسكندر قبل ذهابه مباشرة إلى سيوة لم يكن في الوادى نفسه وإنما كان عند الأطراف الشمالية الغربية للدلتا من أجل تأسيس مدينة جديدة ومن ثم كان أيسر عليه عندئذ أن يأخذ طريق پاريتونيون ، إذ أن القرائن توحى بأن تأسيس الإسكندرية جاء عقو الخاطر ودون تدبير سابق . وإنما يمكن تفسير ذلك بما نعرفه من أن طريق پاريتونيون كانت الطريق الطبيعية التى يسلكها الأغريق فى ذهابهم إلى سيوة . ونحن نعرف كذلك أنها كانت أيضاً الطريق الطبيعية إلى برقة ، وأن الإسكندر كان يرغب فى الاستيلاء على كل شرق البحر الأبيض المتوسط لى يترك أسطول أعدائه معلقاً فى الهواء ، ولا سيما أن برقة كانت أقلها هاماً يهدد سلامة حدود مصر الغربية إذا وقع فى قبضة يد قوية . ولا داعى لأن نذهب بعيداً فى التدليل على أهمية برقة لمصر ، إذ أن ما وقع على حدود مصر الغربية من أحداث الحرب العالمية الثانية مازال ماثلاً فى الأذهان . فهل كان الإسكندر يعتزم إخضاع برقة ؟ أم أنه لم يعياً بتركها مفتوحة أمام أعدائه ؟ أى هل يمكن أن يكون قد غفل عما وضعه البطالة نصب أعينهم ؟ إزاء هذه الاعتبارات وما تذكره بعض المصادر القديمة من أنه عندما وفد الإسكندر على پاريتونيون وجد فى انتظاره سفراء برقة الذين أهدوا إليه بضع مئات من الخيول الممتازة دليلاً على خضوع بلادهم له^(١) ، نرجح أن الإسكندر كان ينشد السيطرة على برقة وأنه تعمد الذهاب إلى سيوة عن طريق پاريتونيون ليتخذ الطريق التى ألف الأغريق أن يسلكوها عند حجاجهم إلى معبد آمون ، وليقوم بمظاهرة عسكرية تلقى أنباؤها الرعب فى برقة فتبادر إلى إعلان خضوعها له إذ أنه لم يكن فى وسعها مقاومته ، وبالفعل قابله سفرائها فى پاريتونيون وقدموا له فروض الطاعة .

(1) Cf. Diod. XVII, 49, 2; Q. Curtius, IV, 7, 9; Bevan, pp. 9 — 10; Wilcken, 123.

ومن پاريتونيون توغل الإسكندر في قلب الصحراء وقطع المسافة حتى واحة سيوة في إثني عشر يوما تحدثنا كل المصادر القديمة ^(١) بأنها كانت حافلة بالأخطار والغرائب ، مما اعتبر دليلا على عطف الآلهة على الإسكندر ، وإن كان من اليسير تفسير هذه الظواهر اليوم على أنها ظواهر طبيعية عادية ^(٢) . وقد كان رأى السائد حتى منتصف القرن التاسع عشر هو أن معبد أم عبيده كان معبد الوحي المشهور ، لكنه منذ زار هاميلتون معبد أغورمى في عام ١٨٥٣ اتجه الرأى إلى اعتبار هذا الهيكل معبد الوحي ^(٣) . وتدل بقايا هذا المعبد على أن بناءه قد أعيد في عهد الحكم الفارسي وأنه كان يتألف من فناءين وصالة تقوم وراءها ، على نفس المحور ، قاعة قدس الأقداس وإلى جانبها الأيسر قاعة مربعة الشكل تقريبا وإلى جانبها الأيمن وخلفها دهليز ضيق . ولما كان قد وجد في الواجهة الخلفية للجدار الشرقي لقدس الأقداس المطل على الدهليز ثلاث فتحات على ارتفاع ٦٦ سم من الأرضية وكذلك تجويفان قرب السقف ، وكانت هناك صلة وثيقة بين هذا الجزء من المعبد وبين الوحي ، فقد استخلص من ذلك أن الكلمات التي كانت تسمع في البهو ويتصور الناس أنها صادرة عن آمون كان مصدرها في الواقع كاهنا تختفي في الدهليز ^(٤) .

وقدس الأقداس حجرة متوسطة الحجم كان يقوم في وسطها مركب آمون المقدس الذي كان يستقر فيه تمثال الآله . ويحدثنا كورتيسوس ^(٥) بأن تمثال آمون

(1) Diod. XVII, 49, 4 — 5; Strabo, XVII, 1, 43; Curt. IV, 7, 12—15; Plut., Alex. XXVII, 1 — 2; Arr. , 3 — 4, 6.

(2) Cf Bayle St. John, Adventures in the Libyan Desert, p. 69.

(3) J. Hamilton, Wanderings in North Africa, London, 1856, pp. 282 ff.; Rohlf, Von Tripolis nach Alex., pp. 103 ff.; Steindorf, Durch die Libysche Wüste, pp. 118, 122; Z. A. S., 69, pp. 2. 3; Fakhry, Siwa Oasis, 1944, pp 83 — 5.

(4) Fakhry, op. cit., p. 88; Noshy, Annales de la Faculté des Lettres, II, 1953, p. 81 fn 1.

(5) Curtius, IV, 7, 23 .

سيوة كان كتلة مخروطية الشكل « Omphalos » تتكون من الزمرد وغيره. من الأحجار الكريمة . وعندما عثر رايزنر « Reisner » في نباتا داخل المعبد الكبير لآمون على كتلة من الحجر الجيري مخروطية الشكل بادر جريفيث إلى بيان وجه الشبه بين هذا الأثر وتمثال آمون سيوة على نحو ما يصفه كورتيس وكذلك تمثال « omphalos » معبد الوحي في دلفي ، واستخلص من ذلك أنه لا بد من أن أثر نباتا يتصل بوحى نوبى هناك ، وأن فكرة صنع تماثيل للآلهة على هذا النحو مأخوذة من دلفي ^(١) . وقد اعتنق هذا رأى وينرايت « Wainwright » الذى وجد شهما بين هذا الأثر وبين تمثال آمون سيوة وتماثيل مصرية ماثلة ^(٢) . وأول الأمر أيد شتايندورف « Steindorf » فكرة جريفيث واستخلص من قرب الشبه بين أثرى سيوة ونباتا وجود صلة قوية بين وحي آمون سيوة ووحى آمون الذى قيل بوجوده في نباتا ^(٣) . غير أن شتايندورف لم يلبث أن ناهض هذا الرأى عندما رأى بنفسه أثر نباتا وتبين له أنه في شكل خلية نحل في واجهتها نافذة (٠٢٤ × ٠٢٠ مترا) وفي قاعدتها تجويف (حوالى ٠٠٨٥ × ٠١٣ مترا) يسمح بوضع تمثال صغير . وقد خرج من ذلك بنتيجة تلخص في أن أثر نباتا ليس تمثالا للآله آمون وإنما هيكل صغير صنع على شكل كوخ إفريقي كان يوضع داخله تمثال الآله ، وفي أن ذلك كان أيضا شأن تمثال آمون سيوة ^(٤) .

ويعتقد ماسيرو أن تمثال آمون سيوة ، كغيره من التماثيل التى يصدر عنها الوحي ، كان مصنوعا بحيث يمكن تحريك رأسه أو ذراعيه أو يديه عندما يجذب الكاهن المختص حبالا معينة ^(٥) . وقد اقتفى راديه « Radet » أثر ماسيرو

(1) J. E. A. III, 221.

(2) Annales, XXVIII, 184.

(3) Z. A. S., 69, 23.

(4) J. E. A., XXIV, 147 — 150.

(5) Maspero, Ann. Ec. Prat. Hautes Et., 1897, p. 9 et n. 6; Etudes de Myth. et d'Arch. eg., VI, 1912, p. 271.

في هذا الرأي ^(١) ، لكنه لم يلبث أن عدل عنه ونادى بالرأى الآخر ^(٢) .
فأى الرأيين إذن أصح ، أو بعبارة أخرى أكان الشكل الذي صور فيه آمون
سيوة تمثالا كتمثيل غيره من الآلهة ، أم أنه كان كتلة مخروطية الشكل ؟ إزاء
وصف كورتيوس الذي لم ينقضه ما ورد في غيره من المصادر القديمة ، وإزاء ذلك
الأثر الذي عثر عليه في نباتا وأشباهه التي وجدت في الكرنك ^(٣) ومدامود ^(٤)
ومدينة هابو ^(٥) ومنف ^(٦) وأسيوط ^(٧) نشارك غالبية المحدثين في ترجيح الرأي
الثاني ^(٨) .

ومهما اختلف الباحثون حول شكل صورة الآلهة فإنها ، وفقا لرواية
ديودوروس ^(٩) وكورتيوس ^(١٠) ، كانت توضع في مركب آمون المقدس ، وعند
إجابة الوحي عما يوجه إليه من الأسئلة كان يحمل المركب وداخله صورة الآلهة
عدد من الكهنة يدورون في أرجاء المعبد ومن ورأيهم الكاهنات
يرتلن الأناشيد .

ويعضى ديودوروس فيقول إن عدد الكهنة الذين يحملون المركب في هذا
المهرجان كان يبلغ الثمانين ، وإنهم كانوا يطوفون في المعبد على هدى توجيهات الآلهة
لهم . ويحدثنا استرابون ^(١١) ، نقلا عن كاليبثينيس ، بأن إجابات الوحي كانت
لا تصدر في شكل كلمات ، مثل ما كانت عليه الحال في وحي دلفي وبرانخيدي ،
وإنما كان يُعبر عنها أساساً بإشارات وإيماءات ، ومع ذلك فإن الكاهن الذي

(1) Radet, Alex. le grand, p. 120.

(2) Melanges Bidez, Ann. Inst. Phil. et Hist. Orien., II, 784.

(3) Daresey, Annales, IX, 1908, 64 -- 9.

(4) Fouilles I FAO. II, 1ere Partie, Medamoud, 48 -- 53, pl. VI,

(5) Daresey, op. cit., p. I, 11.

(6) Daresey, Annales, III, pp. 139 - 40.

(7) Wainwright, loc. cit.

(8) Cf. Jouguet. Trois Et., p. 22 fn. 1.

(9) Diod., XVII, 50.

(10) Curt. IV, 7.

(11) Strab. XVII, 1, 43.

كان يعبر عن النبوءات (Prophet) ويقوم بدور الآله قال للاسكندر في وضوح إنه ابن زيوس .

وإزاء صمت رواية استرابون عن المهرجان الذى يذكره ديودوروس وكورتوريوس يمكن افتراض أحد أمرين وهما :

إما أن المهرجان لم يوجد إلا فى خيال كلايتارخوس (Kleitarchos) الذى استقى منه ديودوروس وكورتوريوس معلوماتهما ، أو أنه كان يوجد فعلا مهرجان . وفى هذه الحالة إما أن استرابون لخص رواية كاليستينيس تلخيصا معيبا بحيث أغفل الإشارة إلى جزء اساسى من الطقوس أو أن استرابون برىء من ذلك ويجب البحث فى روايته عن هذه الإشارة .

إن رأى السائد اليوم هو أنه كان يوجد مهرجان^(١) . ويرى بعض الذين يعتقدون أن تلخيص استرابون معيب أن « الإيماءات والإشارات » كانت حركات المركب والتمثال وأن الكاهن كان يقوم بنفسيرها ؛ وفى رأى فريق آخر أنها كانت تصدر عن الكاهن الذى يعبر عن النبوءات ويقوم بدور الآله تفسيراً لحركات المركب والتمثال . لكننا لا نستطيع قبول هذين الرأيين لأنهما يتضمنان أن أمر إجابات الوحي كان فى الواقع متروكا لتصرف حملة المركب من كهنة كانوا بطبيعة الحال أقل مرتبة ودراية من الكاهن المعبر عن النبوءات على حين قصر دور هذا الكاهن على مجرد تفسير تصرفات مرءوسيه .

أما الذين يرون أن رواية استرابون لا يشوبها أى نقص ، فإنهم يجدون الإشارة إلى المهرجان فى كلمة (themisleia) وردت فى الفقرة التى تسبق مباشرة الفقرة التى أوردنا مجملها ، وهم يقترحون أن معنى هذه الكلمة فى هذا السياق ليس « إجابة الوحي » وإنما طقوس يقصد بها المهرجان . لكن يبدو لنا أن هذا التفسير غير مقبول لأن المعنى المقترح لا يتماشى مع سياق الحديث

(1) Jouguet, Trois Et., p 23 fn, 1, pp. 23 -- 5.

في تلك الجملة التي تتحدث عن « سماع » لا « مشاهدة » themisleia . وقبل أن ندلي برأينا في هذه المسألة نحب أن نستعرض أولاً ما لدينا من شواهد عن مصادر الوحي الأخرى في مصر ولا سيما عن وحي آمون في طيبة .

إن عدداً من وثائق طيبة الفرعونية^(١) يدل على وجود مهرجان ، لكن بينما توحى بعض الوثائق بأن إجابات الوحي كانت تصدر عن التمثال الذي يحمل في المهرجان ، توحى البعض الآخر بأنها كانت تصدر عن كاهن . وقد ورد في بردية من عهد رمسيس الرابع أنه كان يعبر عن إجابات الوحي في أثناء المهرجان بإيماءات وكلمات^(٢) . وتشير بردية أخرى إلى أن إجابة الآله كانت على لسان أحد كهنته^(٣) . ويرى البعض أنه لما كانت عدة وثائق توحى إلينا بأنه كانت لا تصدر عن تمثال الآله المستنبأ إيماءات فحسب بل كلمات كذلك ، فلا بد من أنه كانت تصل إلى استماع الناس كلمات كانت بطبيعة الحال ينطق بها كاهن أدخل في عقول الناس أن الآله قد تقمصه وأنه يقوم فعلاً بدوره^(٤) . ومن المحتمل أنه لأسباب بديهية كان الكهنة يتجنبون التعبير للناس عن إجابات الوحي بكلمات يلقون بها إليهم مباشرة ، ويلجئون بدلاً من ذلك إلى وسيلة تتفق وماعرف عنهم من الأساليب الغامضة على نحو ما يتصور ما سפרو^(٥) حين ينهى إلينا أنه كان يوجد في بناء معبد خنسو إلى يسار قدس الأقداس وبالقرب من السقف تجويف لعله كان المكان الذي يختبئ فيه الكاهن الذي ينطق بإجابات الوحي .

ويؤكد تشرني (Cerny) أن الأسئلة كانت توجه إلى الوحي إما شفويا أو كتابة^(٦) . وبعد دراسة عدد من الأوسترا كا ونقش بينودجهم (Pinodjem)

(1) Cerny, B. I. F. A. O. 35, pp. 41—58 ; Fachry, op. cit., p. 43; Blackman, J. E. A., XI, op. 249 ... 55; XII, pp. 176 — 85.

(2) B. M. Pap. 10335; Blackman, J. E. A. XI, p. 253.

(3) B. M. Pap. 10417; J. E. A. XI, pp. 184 — 5.

(4) Blackman, J. E. A., XI, pp. 254 — 5.

(5) Maspero, Art in Egypt, 1921, p. 234.

(6) Cerny, op. cit., p. 41.

توصل هذا الباحث إلى رأى يقضى على الفكرة القائلة بأن تمثال الوحي كان مصنوعاً بحيث يستطيع تحريك بعض أجزائه . فقد استخلص من الوثائق أن المستنبيء كان يوجه سؤاله إلى الوحي في صيغتين تحمل إحداها معنى النفي والأخرى الإيجاب ، وتوضع قطعة الشقافة التى تحمل الصيغة الأولى خلف تمثال الإله والقطعة التى تحمل الصيغة الثانية أمام التمثال . وبعد ذلك كان التمثال يتحرك نحو إحدى هاتين القطعتين للدلالة على أن إجابة الوحي بالنفي أو الإيجاب^(١).

وإذا صح هذا الرأى فيما يخص الأسئلة المكتوبة ، فإننا نستطيع أن نتصور أنه فى حالة الأسئلة الشفوية كان المستنبيء يلقى سؤاله فى أثناء سير المهرجان ، فإذا تقدم التمثال كان معنى ذلك أن الرد بالإيجاب وإذا ارتد راجعاً كان الرد بالنفي .

وإذا كان هذا الرأى يقضى على الفكرة القائلة بأنه كان يمكن تحريك بعض أجزاء تمثال الإله ، فإنه لا يلقى ضوءاً على الاشارات والإيماءات التقليدية . ونحن نعتقد أنه إذا كان فى وسع الكاهن المعبر عن النبوءات التعبير عن مشيئة الإله بكلمات ينطق بها ، فمن المؤكد أنه كان يستطيع التعبير عن هذه المشيئة بإشارات وإيماءات تبين لجملة تمثال الإله الاتجاه الذى يسرون فيه . ومن ثم فإنه حين تتحدث النصوص عن الإشارات والإيماءات التى تصدر عن الإله أو تمثاله يجب أن يكون مفهوماً أن المقصود بذلك هو الإشارات والإيماءات التى تصدر عن الكاهن المعبر عن النبوءات للإعراب عن مشيئة الإله وبيان الاتجاه الذى يسير فيه جملة التمثال .

والآن يمكننا أن نستخلص مما أسلفناه : أولاً أن المهرجان كان جزءاً لا يتجزأ من طقوس استنباء الوحي ؛ وثانياً أن تمثال الإله كان لا يستطيع تحريك

أى جزء من أجزائه ؟ وثالثاً أن الكاهن المعبر عن النبوءات كان يقوم بدور الإله فتصدر عنه إجابات الوحي إما شفاهاً أو بإشارات أو إيماءات تعبر عن مشيئة الإله وتوجه حملة التمثال .

إننا لا نستطيع أن نجد أى شارة إلى المهرجان فى رواية استرابون ، لكن لما كانت القرائن تؤيد وجود المهرجان فإننا نستطيع أن نعزو الخلاف بين رواية استرابون ورواية كل من ديودوروس وكورتيسوس إلى عيب فى رواية استرابون . ونحن نرى أن الإيماءات والإشارات التى ورد ذكرها فى رواية استرابون كانت تصدر عن الكاهن المعبر عن النبوءات ، ويؤيد رأينا قول استرابون أن هذا الكاهن كان يقوم بدور الإله . ورب معترض يقول وما كانت إذن فائدة المهرجان إذا كان الكاهن يعبر عن مشيئة الإله ، ويوجه حركات حملة مركبه وتمثاله . يبدو لنا أن المهرجان لم يكن فى الواقع أكثر من مظاهرة يراد بها أن يلقى فى روع الناس أن إجابات الوحي كانت تصدر عن الإله نفسه الذى كان يعبر عن مشيئته بحركات مركبه . ويبين أنه فى بعض الأحيان كانت فى سيوة أيضاً تعطى إجابات الوحي شفاهاً لأنه عندما سئل الإسكندر لماذا كان يقدم القرابين لمجموعة بذاتها من آلهة الهند أجاب بأن آمون قد أوصاه بالآلهة التى يقدم القرابين إليها ^(١) . ومن الجلى إنه كان لا يمكن إعطاء مثل هذه الإرشادات بالأشارات أو الإيماءات أو التقدم نحو الأمام أو التراجع نحو الخلف . ولعل هذا يفسر فائدة الفتحات أو التجويفين فى الواجهة الخلفية للجدار الشرقى فى قدس الأقداس ، فقد كان فى وسع الكاهن المعبر عن النبوءات أن يتكلم خلال أى واحدة منها فيدخل فى روع الناس أن الإله نفسه هو المتكلم .

ولما كان الإسكندر قد رسم فرعوناً فى منف وأصبح تبعاً لذلك « ابن آمون

(١) Arr. VI, 19, 4.

رع » مثل من سبقه من الفراعنة ، فإن كبير الكهنة الذى رحب بمقدمه عند وصول ركبته إلى معبد الوحي خاطبه بـلقب « ابن آمون » ^(١) ودعاه وحده لدخول قدس الأقداس حيث سأل الوحي عما يريد الوقوف عليه وتلقى الإجابة عن أسئلته . أما رفاقه فإنه لم يسمح لهم إلا بدخول فناء المعبد فقط وذلك بعد تغيير ملابسهم ، وهناك القوا بأسئلتهم واجيبوا عنها ^(٢) .

وقد كان فرعون قبل زيارة أى معبد يفتسل ويتطهر ويتطيب ويرتدى ثيابه الرسمية وخاصة تاج الوجهين . وإذا كان من المرجح أن الإسكندر قد فعل ذلك فى منف ، فإنه عندما زار معبد آمون فى سيوة احتفظ بملابسه العادية ، مما ينهض دليلا على أنه قد قام بهذه الزيارة باعتباره قبل كل شىء ملك مقدونيا والقائد الأعلى للأغريق ، وكذلك على أن الأهداف المحلية كانت تأتى عنده فى المرتبة الثانية بعد أهدافه الدولية ^(٣) .

وعندما خرج الإسكندر من قدس الأقداس وعاد إلى صحبه فى الفناء وسأله أصدقاؤه عما حدث لم يجب إلا بقوله إنه قد سمع ما سره ^(٤) . وتدل إجابة الإسكندر على أنه اعتبر رد الوحي على أسئلته سرا ، ولعله قد فعل ذلك لأمر فى نفسه أو ربما كان الكاهن الأكبر قد أفهمه أن التقاليد المصرية تقضى بذلك لأن الإله خاطب ابنه ^(٥) . وعلى كل حال فإن الإسكندر كتم السر ، إذ أنه كتب

(1) Curt. IV, 7, 25; Plut., Alex., XXVII, 6; Diod., XVII, 51, 1.

ومن المرجح أن الكاهن الأكبر كان يعرف الإغريقية والا لاضطر الإسكندر إلى أن يصحب معه إلى قدس الأقداس مترجما ، ولو كان ذلك قد حدث فعلا لانتشر سريعا بين الناس خبر كل ما دار هناك بين الإسكندر والوحي (Tarn, II, p. 348) . فضلا عن ذلك فإن معبد الوحي فى سيوة كان قبلة وفود لا تنقطع من مختلف أنحاء العالم الأخرى . وإزاء هذه الصلات الوثيقة مع الإغريق لا بد من أن كهنته أو على الأقل بعضهم كانوا يلمون باللغة الإغريقية .

(2) Strabo XVII, 1, 43; Wilcken, op. cit. p. 125; Tarn, II, pp 347-8; Jouguet, Trois Et., pp. 24-5.

(3) Radet, Alex., p. 121.

(4) Arr III, 4, 5.

(5) Wilcken, p. 126.

بعد ذلك بقليل إلى أمه أولمبياس بأنه أبلغ توجيهات سرية سيفضى بها إليها عند عودته إلى مقدونيا^(١) ، غير أنه توفي قبل ذلك وحمل سره معه إلى القبر .

وإذا كنا لن نعرف عن يقين الأسئلة التي وجهها الإسكندر إلى الوحي والإجابات التي فاز بها ، فإنه لا يصعب استنتاجها في ضوء مشروعاته التالية وإجاباته على أسئلة أصدقائه ، وكذلك في ضوء العرف والتقاليد المصرية القديمة .

وبالرغم من أن الاسكندر قد كتم ما دار بينه وبين الوحي ، فإن كلايتارخوس لم يلبث بعد انقضاء بعض الوقت أن كتب يقول إن الاسكندر سأل الوحي عما إذا كان قتلة أبيه قد عوقبوا وأن الوحي نهى عن مثل هذا التساؤل الفاحش لأن أباه إله ولا يمكن أن يمسسه سوء . وعندئذ سأله الاسكندر عما إذا كان كل قتلة فيليب قد عوقبوا فرد الوحي بالإيجاب . وبعد ذلك تساءل الاسكندر عما إذا كان سيصبح سيد العالم وكان الرد بالإيجاب^(٢) . وإذا كان الشك يرقى إلى تصوير ما حدث داخل قدس الأقداس على هذا النحو المفصل لأن الاسكندر احتفظ بذلك سرا لم يبح به لأحد ، فإننا لا نرى سبيلا إلى الشك في أن الوحي اعتبر الاسكندر ابن الاله الأكبر آمون ، لأن الاسكندر كان فرعونا ولأن كل فرعون منذ حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . كان يعتبر رسميا ابن الإله آمون رع . ولا سبيل إلى الشك أيضا في أن الوحي قد منح الاسكندر السيطرة على العالم بأسره ، لأنه كان جزءاً من طقوس الإله آمون أن يسأل الكاهن الاله باسم فرعون السيطرة على العالم بأسره فيمنحه الاله هذه السيطرة^(٣) . ومن ثم يبين أن زيارة الاسكندر لمعبد الوحي في سيوة قد تمخضت على الأقل عن الاعتراف بأصله الالهى وبحقه فى السيطرة على العالم أجمع . ويروى كاليستينيس أنه فى عام

(1) Plut., Alex., XXVII, 5.

(2) Cf. Diod. XVII, 51, 2 --- 3; Curt. IV, 7, 27; Just. XI, 11, 9; Plut. Alex., XXVII, 3.

(3) J. H. S., XLI, 1921, p. 2; C. A. H. VI, p. 378.

٣٣١ جاء منف رسل من ميليتوس لينشروا في الناس ما أعلنه وحى برانخيдай من أن الاسكندر ولد من أب سماوى ومن أنه سيسيطر على العالم أجمع . ويعضى كاليستينيس فيضيف أن وحى اريترای (Erythrae) أكد أصل الاسكندر السماوى وسيادته العالمية (١) .

وهل كان من باب الصدفة أن تعلن ثلاثة مصادر للوحى في أوقات متقاربة أصل الاسكندر السماوى وتنبأ ببسط سلطانه على العالم كله ؟ أم أن الاسكندر كان يستهدف الفوز بذلك من مصادر الوحى ، وأن هذه المصادر بحكم ما جبلت عليه من الاستجابة عادة إلى رغبات أصحاب السلطان لم تخيب رجاء الاسكندر ؟ لعلنا نستطيع الإجابة عن ذلك عندما نتبين الأهداف التى كان الاسكندر ينشدها من وراء حجه إلى معبد الوحى في سيوة .

لا يجادل أحد في أمرين : وأحدهما مكانة هذا المعبد ، الذى كانت تقوم صلات وثيقة بينه وبين الذين يقيمون على القرب منه أو على البعد عنه — في برقة وقرطاجه وكذلك في آسيا والمدن الأوربية الإغريقية ولا سيما أثينا واسبرطة — فقد كان هذا المعبد يتمتع منذ عدة قرون بشهرة عالمية تضارع ما كان لمعبد زيوس في دودونا (Dodona) ومعبد أبولو في دلفى (Delphi) (٢) .

ولا أدل على شهرة هذا المعبد من أن كرويسوس (٣) وكيمن (٤) والكيبياديس (٥) وليساندر (٦) استشاروا إله هذا المعبد . كما استشاروا أعظم آلهة الإغريق ، ومن أن الشاعر الكبير بندار (Pindar) أنشأ في آمون سيوة قصيدة لم تصل إلينا . ومن أن الإغريق أمثال أهل إليس (Elis) واسبرطة وأثينا كانوا يوفدون الرسائل لاستلهم آمون الوحى ؛ ومن أن يوربيديس

(1) Strabo XVII, 1, 43; Cf. Tarn II, p. 357.

(2) Radet, Alex. p. 112.

(3) Herodot. 1, 46.

(5) Plut., Nicias XI11, 2.

(4) Plut., Cimon XV111, 8.

(6) Plut., Lysander, XX, 6.

يتحدث عن « مقر آمون غير المطر » كما لو كان مكاناً مألوفاً للإغريق يهرعون إليه كلما كانوا في حاجة إلى نصيحة إلهية^(١)؛ ومن أن الاثنينين أتموا قبل عام ٣٣٣ تشييد معبد للإله آمون في أثينا^(٢) وأطلقوا على مركبهم المقدس اسم «سالا مينيا أمونياس Salaminia Ammonias»^(٣)؛ ومن أن أريسطوفانيس قد شاد في رواية «الطيور» بمعبد آمون في واحة سيوة^(٤)؛ ومن أن أفلاطون قد ذكر في كتابه «القوانين» وحي آمون جنباً إلى جنب وحي دلفي ودودونا^(٥). وإزاء ما كان يتمتع به معبد آمون سيوة من مكانة عالمية وافتقاره إلى هذه المسكنة في نظر المصريين وأقدام الإسكندر على زيارة هذا المعبد بدلا من معبد آمون طيبة صاحب المسكنة العظمى لدى المصريين ، يبين أنه إذا كانت للإسكندر أهداف سياسية من وراء هذه الزيارة ، فلا بد من أنه كانت لهذه الأهداف صبغة دولية، وأن احتفال الإسكندر بالرأى العام الإغريقى كان مقدما على احتفاله بالرأى العام المصرى .

والأمر الآخر الذى لا يثير جدلا أن الإسكندر كان يتغنى غايتين من وراء حجه إلى معبد آمون سيوة ، وإحداها إشباع ميوله للمخاطرة ورغبته فى اقتفاء أثر بطلى الأساطير الإغريقية برسيوس (Perseos) وهرقل (Hercules) ، اللذين شاع الاعتقاد أن الإسكندر ينحدر من سلالتهم ، فقد ورد فى المصادر القديمة أن هذين البطلين تزودا بمشورة آمون سيوة قبل أن يقدموا على جلائل أعمالهما^(٦) . ويجب ألا يغرب على البال أن ما نعتبره اليوم قصصاً وأساطير كان فى نظر الإغريق

(1) Meyer, Alex. der Grosse, pp. 302 -- 4; Radet, Rev. Et. anc., 1925, pp. 201 -- 2; 1926, 216; Mallet, op. cit. pp. 170 -- 1; Jouguet, Nat. Eg. p. 4; Bevan pp. 8 -- 9; C. A. H. VI, p. 377; Ehrenberg, pp. 30 ff.

(2) Ditt 287, ll. 15, 29; cf. 289 l. 19; 1029, l. 33.

(3) Arist., Pol. Ath. 61., C. A. H. VI, pp. 377, 442.

(4) Aristoph., Orinthes, 619, 716.

(5) Plato, de leg. vol. I, Bk V, 738.

(6) Strabo, XVII 43, C. 814; Arr. III, 3, 1 -- 2.

القدماء تاريخاً صحيحاً^(١). والنهاية الأخرى هي استطلاع رأى الوحى فى نجاح مشروعاته^(٢) ، أو بعبارة أخرى الحصول أمام رأى الدولى العام على تأييد الإله آمون لهذه المشروعات ، التى يميل أغلب المؤرخين إلى اعتبار أنها كانت تنطوى على بسط سيطرته على العالم^(٣) ، وإن كان البعض يستبعد ذلك^(٤) . ويتفق أكثر المؤرخين ، قدماء ومحدثين ، على أنه عندما وصل الإسكندر إلى معبد الوحى كان فى استقباله عند المدخل كبير الكهنة الذى ناب عن الإله الأكبر فى تحيته ومناداته بلقب « ابن آمون »^(٥).

لقد ذكرنا أن الجدل لم يثر حول توخى الاسكندر من وراء زيارته معبد آمون سيوة الغائتين اللتين سلفت الإشارة إليهما ؛ لكن أكانت هاتان الغائتان هما كل ما استهدفه الإسكندر من وراء هذه الزيارة ؟ هنا مثار الجدل ، ففريق يرى أن الاسكندر كان يريد استجلاء لغز مولده ، أو بعبارة أخرى أثبات صلة نسبه بالآلهة أمام رأى الدولى العام^(٦) ، وفريق آخر ينكر أن الإسكندر ذهب إلى معبد سيوة لىكنى ينادى به « ابن آمون » وإن كان لا ينكر أن هذه المنادة قد حدثت فعلاً^(٧) . وقبل أن ندلى برأينا فى هذه المسألة يجدر بنا أن نستعرض بعض الاعتبارات الهامة .

ولا ريب فى أن استطلاع الاسكندر رأى الوحى فى نجاح مشروعاته كان من الممكن أن يتم بواسطة مبعوثين « theores » دون ما حاجة إلى تكليف نفسه

(1) Jouguet, *Trois Etudes*, p. 19.

(2) Jouguet, *op. cit.*, p. 18; Tarn, *Alex*, II, 347; Wilcken, *Alex. the Great*, p. 121.

(3) Cf. Jouguet, *op. cit.* pp. 37 ff.; Wilcken, *Alex. the Great*, pp. 224 ff., p. 248.

(4) Tarn, II, pp. 378 ff.

(5) Diod. XVII, 51, 1; Quint. Curt. IV, 7, 25; Just. XI, 11, 7; Plut. *Alex.* XXVII, 3; Tarn, p. 347; Wilcken *Berlin Akad. Abh.*, 1928, p. 576, 1930, p. 169; Larsen, *Class. Phil.*, XXVII, 1932, p. 74; Jouguet, *op. cit.*, p. 25.

(6) Radet, *Alex.*, pp. III ff., Jouguet, *op. cit.* pp. 19 ff.

(7) Wilcken, *Alex*, pp. 125 — 9; Tarn, *op. cit.* I, p. 43; II, pp. 347 ff.

عناء هذه الرحلة الشاقة ، وأهم من ذلك دون قضاء عدة أسابيع ثمينة في هذه الرحلة في وقت كانت مشاغل خطيرة تتطلب عنايته واهتمامه^(١). وإذا صح أن تحقيق هذه الغاية كان لا يستدعى ذهابه إلى أسيوط ، فهل كان تحقيق الغاية الأخرى ، إشباع ميوله للمخاطرة واقتفاء أثر برسيوس وهرقل ، وحده عاملاً حاسماً في قيامه بهذه الرحلة ؟ لما كان المعروف عن الإسكندر أنه رجل شاعري تستهويه المخاطر والأسفار ومشاهدة الأنوار القديمة ، فإننا لا نستطيع إغفال أهمية هذا العامل ، وإن كنا نستبعد أن يكون الحافز الوحيد على الإقدام على مثل هذه المغامرة . ومن ثم فلا بد من أنه كان يوجد عامل آخر له من الأهمية ما لا يقل عن هذا العامل إن لم يزد عليه . فما هو هذا العامل ؟

تذكر بعض المصادر القديمة أن الشائعات تواترت بأن الاسكندر لم يكن ابن فيليب مما كان سبباً في غضب هذا على أولمبياس وزواجه من كليوبترا ، وفي أن أتالوس ، خال الملكة الجديدة ، وصم الاسكندر أثناء حفلات هذا الزواج بأنه ابن سفاح^(٢). وفي الوقت نفسه ذاعت شائعات أخرى تدور حول مولد الاسكندر الإلهي ، فقد ورد في پلوتارخ أن ثعباناً كبيراً رأى ممتداً إلى جانب أولمبياس في فراشها وأن ذلك كان سبباً في تباعد فيليب عنها ، إما بدافع الخوف من أنها كانت تدبر له مكيدة أو بدافع الاحترام لرؤيته إلهاً يشغل فراشه^(٣).

ويذكر مصدر قديم آخر أن أولمبياس اعترفت لزوجها بأنها لم تنجب الاسكندر منه 'ولمّا من ثعبان ضخم'^(٤) ، فأفضى هذا الاعتراف إلى أقصاء أولمبياس عن فيليب . وقد قيل إنه عندما تعددت أمام فيليب المظاهر التي تنبئ بعظمة وريثه أرسل في استشارة وحى دلفي فأوصاه بتقديم القرابين

(1) Saint - Croix, Examen Critique des historiens d'Alex., 2 éd., 1810, p. 293; Radet, Alex., p. 111; Jouguet, op. cit., p. 19.

(2) Athen. XIII, 557 d.; Plut. Alex.; IX, 4.

(3) Plut., Alex., II, 4.

(4) Justin, XI, 11, 3.

للإله آمون وبأن يتوجه بالعبادة لهذا الإله بوجه خاص . وقد تواترت شائعات أخرى نحوها أن فيليب فقد إحدى عينيه لاجترأه على النظر خلال ثقب في الباب عندما كان زيوس إله ليبيا نائماً إلى جانب أوليمبياس بمذ أن تقمص شكل ثعبان ، وأنه عند ما كان الاسكندر يفكر في حملته استحثته أمه على القيام بها — وذلك بإقصاصها له عن سر مولده — وناشدته أن يظهر بالمظهر الذى يتناسب وأصله السماوى^(١) .

وأذا كان من الخطأ قبول كل ماجاء فى هذه القصص ، فإنه من الخطأ أيضاً اعتبار كل ماجاء فيها من نسج الخيال أو أن ليس له سند من الواقع . وبيان ذلك أن أوليمبياس كانت شديدة الولاء للإله ديونيسوس التراقى الذى يعرف باسم ساباتزيوس (Sabazios) وكانت تقام له طقوس صاخبة . ويحدثنا ديموستينيس^(٢) بأن طقوس هذا الإله كانت تتضمن عرضاً للشعابين المقدسة يعقبه فى الليل حفل سرى كان أبرز مظاهره تصوير زواج رمزى بين الإله وتابعاته اللاتى أطلقن على أسرارهم ، وذلك بوضع الثعبان المقدس داخل ملابس أولئك السيدات . فقد كان هذا الثعبان يعتبر الصورة المجسدة لساباتزيوس ، ويبدو أن وضعه داخل الملابس كان يعتبر رمزاً لوقوع المخالطة^(٣) . وهذه الشعابين المقدسة هى التى يروى پلوتارخ أن أوليمبياس كانت تحيط نفسها بها فيسير بعضها وراءها ويشاركها أحدها فراثها^(٤) ، وهذا دون شك هو الذى كان يقوم بدور الزوج الإلهى .

ولا يصعب إذن أن نرى أن قصة انجاب الاسكندر من الثعبان المقدس كانت وليدة هذه الألفة الغريبة بين أوليمبياس والثعبان المقدس ، أى وليدة معتقدات أوليمبياس وغيرهم من أتباع ساباتزيوس . ولا يصعب كذلك أن نتصور أن معتقدات

(١) Plut., Alex. III, 1 --- 2; cf. Radet, Notes. Rev. et. anc. XXVIII, 1926, pp. 222 --- 3; Alex. le grand, pp. 114 --- 5.

(2) Demosth., de Corona, 260.

(3) Radet, Alex., p. 119; Jouguet, Trois Et. p. 21; Clemens Alex., Protrept. II, p. 19.

(4) Plut., Alex. II, 4.

أولمبياس سيطرت عليها إلى حد أن خيالها قد صور لها أنها أنجبت فعلا الإسكندر من الثعبان المقدس . وعند ما انتشر هذا الخبر كان ذلك في نظر فريق من الناس مثارا للعجاب وفي نظر فريق آخر مثارا للريبة والشك في سلوك أولمبياس . ومعنى ذلك أن تكون دعوى أولمبياس هذه هي التي أفضت إلى اتهامها بسوء السلوك إلى حد الزعم بأنها أنجبت ابنها سقاحا . لكن من الجائز أيضا أن تكون مغالاة أولمبياس في احتفالها بطقوس ساباتريوس هي مصدر اتهامها مما حدا بها لدفع هذه التهمة عنها إلى الزعم بأنها لم تنجب ابنها إلا من الثعبان المقدس . وعلى كل حال لا بد أن يكون قد وصل إلى سمع الإسكندر وعلمه رأى أصدقاء أمه وأعدائها في مولده ، وأن يكون ذلك قد ترك في نفسه على الأقل شكاً حائراً في حقيقة مولده (هل هو من صلب إله أم من صلب بشر) أو رغبة ملحة في تأكيد دعوى أمه فيثبت من ناحية أنه من نسل إلهي ، ومن ناحية أخرى أن شرف أمه فوق مستوى الشبهات .

ويبدو لنا أن هذا العامل النفساني لا يمكن تجاهله أو اغفاله دون تجريد الاسكندر من إنسانيته وكرامته ، وهذا ما لا يمكن أن يخطر ببال أحد .

وهل لم يكن لدى الاسكندر دافع آخر لإثبات صلة نسبه بالآلهة ؟ لقد كان أشهر فيلسوفين سياسيين في شبابه هما ايسقراط (Isocrates) وارسطو ونعرف أن ايسقراط كتب إلى فيليب يقول إنه عندما يقهر ملك الفرس لن يبقى أمامه إلا أن يصبح إلهاً^(١) ، ونعرف كذلك أن ايسقراط أوصى فيليب بإنشاء مدن في آسيا لينزل فيها الذين أصبحوا لا وطن لهم^(٢) . وإذا كنا نعرف أن الاسكندر قام فعلاً بتنفيذ هذه الوصية فهل يبعد أنه كان يعد العدة لتنفيذ الوصية الأولى بإثبات أنه من نسل الآلهة ؟ وقد كان من تعاليم ارسطو أن الرجل

(1) Isoc., Ep. 3; Tarn II, pp. 365 — 9.

(2) Isoc., Phil., 106.

الذى يسمو على مواطنيه فى الكفاية والفضيلة يجب اعتباره آلهاً^(١) . ولا جدال فى أن الاسكندر كان يعتبر نفسه ذاك الرجل ، ولا فى أن الأفكار التى أخذها الاسكندر عن أستاذه ارسطو لم يأخذها من كتبه وإنما منه شخصياً فى خلال السنوات الثلاث التى عاشها سوياً فى ميزا (Mieza)^(٢) . ومعنى ذلك أن الاسكندر ، قبل أن يرتقى العرش وقبل أن يزور سيوة بفترة طويلة ، كان قد تعلم من أكبر مفكرين سياسيين فى عصره ضرورة تأليه الشخص الذى يسمو على سائر مواطنيه أو يقهر آسياه . وهل معنى ذلك أنه لم يكن لأثر فى الملكية الإلهية التى أراد الاسكندر إنشاءها ؟ هذا ما يصير عليه البعض^(٣) لكن اليمض الآخريون انه وإن كان تأليه الملوك الإغريق قد انبثق من الأفكار الإغريقية إلا أن هالة التقديس التى كان المصريون يحيطون بها ملوكهم ويرفعونهم بها فوق مستوى البشر كان لها دون شك أثر بعيد فى أفكار الاسكندر^(٤) .

ولا جدال فى أن الاسكندر قبل أن يبرح أوربا كان يدرك تماماً أنه على وشك تكوين إمبراطورية شاسعة تضم بين أرجائها مدناً إغريقية شديدة الحرص على استقلالها وحريتها ودولاً شرقية ألقت الخضوع للملكية المستبدة . ولا جدال أيضاً فى أن السبيل الوحيدة لإخضاع هذين العالمين لنفوذه والتوحيد بينهما كانت تقديس شخصية الحاكم الذى يسيطر عليهما . ويبين لنا أنه إذا كانت فكرة التأليه قد نبتت عند الاسكندر نتيجة لإيحاء ايسقراط وأرسطو ، فلا بد من أن تكون مزاعم أوليمپياس عن أصله السماوى قد غذت هذه الفكرة حتى إذا مارس فرعوناً فى منف ولس بنفسه مكانة الحاكم المؤله ومدى سلطانه ترعرعت الفكرة وازدهرت إلى حد أنه شرع فى التمهيد لتنفيذها . وهكذا يتبين لنا أنه كانت لدى الاسكندر

(1) Politics III, 13, 1284.

(2) Tarn II, p. 368.

(3) Tarn II p. 362.

(4) Jongut, p. 46.

دوافع قوية ليثبت أمام الرأى الدولى العام أنه من نسل الآلهة . ولا شك فى أن الإغريق لم يعتبروا البنوة من إله مرادفة تماماً للتأليه ، لكن لا شك أيضاً فى أن مثل هذه البنوة كانت تخضع على صاحبها طابعاً دينياً وتعدده للتأليه^(١) .

وإذا كنا قد استخلصنا هذه الرغبة بالاستنباط فإننا نستطيع أن ندلل عليها مما كتبه المؤرخ المعاصر كاليستينيس ، إذ أن هذا المؤرخ عني بوصف الاسكندر على أنه « ابن زيوس » وبالتبشير بالوهيته . ويقول « تارن » (Tarn) إنه لا يوجد مبرر للقول بأن كاليستينيس كان مؤرخ بلاط الاسكندر ولا بأنه كان يكتب تحت إشراف الاسكندر بحيث أنه كان لا يكتب إلا ما يحب الاسكندر أن يكتب ، بل الواقع أنه كان يكتب ما يريد هو أن يكتبه ، لكنه كان يريد أن يكتب ما يظن أن الاسكندر يحبه وكان يتملق الاسكندر لتحقيق غرض شخصى^(٢) .

ومع ذلك لا يلبث تارن أن يحدثنا بأن هذا الشخص الذى أوغل فى تملق الاسكندر لتحقيق أغراضه الشخصية كان أول من رفض تلبية رغبة الاسكندر عندما طلب فى باكترا فى عام ٣٢٧ إلى الإغريق والمقدونين أن يتبعوا معه العادة الفارسية التى كانت تقضى على كل من يقترب من الملك بالسجود له وتقبيل الأرض أمامه^(٣) (proskynesis) مما حمل الاسكندر على الاقلاع عن هذه الرغبة^(٤) . وفى رأينا أن كاليستينيس كان مؤرخ بلاط الاسكندر وأن تصرفه فى مسألة السجود يبرأه من تهمة التملق .

وإذا تمسكنا مع تارن وفرضنا جدلاً أن كاليستينيس لم يكن مؤرخ البلاط ، وأنه كانت له أطماع يريد تحقيقها ، وأنه أراد أن يكتب ما ظن أن الاسكندر كان يحب أن يكتب عنه ، فانه من المعقول أن نتوقع أنه حتى فى هذه الحالة لم يدخر

(1) Jouguet, pp. 3—21.

(2) Tarn II, p. 358.

(3) Arr. IV, 9, 9—12; Curt. VIII, 53; Cf. Arr. IV, 12, 3—5; Plut., Alex., 54.

(4) Tarn II, p. 360.

كاليستينيس وسعا في التحقق من رغبات الاسكندر . ومعنى ذلك أنه سواء أكان كاليستينيس مؤرخ بلاط الاسكندر أم لم يكن فإن ما كتبه يصور رغبات الاسكندر الحقيقية ، ولا سيما أن فحوى عباراته تتفق وما أعلنته مصادر الوحى الثلاثة .

وعندما اجتاز الاسكندر قمة كليما كس (Climax) في الأطراف الغربية لجبال الطوروس بجوار البحر دون أن تقف الأمواج في سبيله عزا ذلك إلى عناية الآلهة^(١) . وبعد ذلك عندما ضل طريقه في الصحراء في أثناء رحلته إلى واحة سيوة وكاد يهلك هو وصحبه لولا أن هدهاء ثعبانان أو بمض الطيور عزا نجاحه إلى عناية الآلهة أيضا^(٢) . ولا شك في أنه لم يكن في هذين الحادثين أمر غير مألوف ، إذ يبدو أن مرور الإسكندر عند قمة كليما كس قد تصادف أن كان وقت بداية الجزر ، ومن المعروف أن ظهور الثعابين أو الطيور في الصحراء على مقربة من الأماكن المأهولة وفرارها أمام الضاريين في الصحراء أمر يحدث كل يوم . لكن مبادرة الإسكندر إلى تفسير هذين الحادثين بأنه يرجع إلى تدخل العناية الإلهية يدل على إحساسه أو اعتقاده بوجود صلة قوية بينه وبين الآلهة التي تسهر عليه وترعاه . وإزاء كل ما مر بنا نرى أن الاسكندر كان يعتقد قبل ذهابه إلى سيوة أنه ابن إله ، لكن لما كان هذا الاعتقاد يفتقر إلى تأييد مصدر محترم ليصبح عقيدة عامة فإنه ذهب إلى واحة سيوة لتحقيق هذا الهدف ، أى ليثبت هذه البنية الإلهية أمام الرأى الدولى العام . وقد كان من الفطنة وإصالة الرأى ألا يكشف صراحة عن هدفه الحقيقى ، ومن ثم فقد روى أريانوس أن الاسكندر كان يريد اقتفاء أثر پرسوس وهرقل وكذلك « الاستفسار من آمون عن شىء خاص بمولده^(٣) » . وتشير رغبة الاسكندر فى الاعتماد على تأييد مصدر للوحى يتمتع بمكانة سامية فى الشرق وفى الغرب على السواء من أجل تحقيق هدفه إلى عزمه على نصب نفسه إلهاً عاماً للإمبراطورية .

(1) Arr. 1, 26, 2.

(2) Strabo, XVII, 1, 43; Arr. III, 3 — 5; Curt., IV, 7 — 15.

(3) Arr. III, 3. 1.

وزيرى « تارن » أن مطالبة الاسكندر من حوله من الإغريق والمقدونيين بالسجود له كان تمهيداً لإقامة نفسه إلهاً عاماً للإمبراطورية^(١). ويرى چوجيه أن الاسكندر كان يستهدف من وراء ذلك التوحيد بين شعوبه وإقامة سلطانه على حق الملوك الإلهي^(٢). أما فيلكن فيرى فى ذلك إحدى خطوات سياسته التى كانت تهدف إلى المساواة بين الشرقيين والغربيين^(٣). وترى الباحثة ليلى روس تايلور أن حادث باكترا يتصل اتصالاً وثيقاً بترتيبات الاسكندر الخاصة بتأليه نفسه^(٤). ونحن نعتقد أن الاسكندر لم يرفى عمله أكثر من التقدم خطوة أخرى فى سياسة المساواة والمزج بين الشرقيين والغربيين ، فإنه قبل ذلك أقام مازايوس (Mazaeus) واليا على بابل وتزوج من روكسانا ابنة أوكسيارتس وأخذ الملابس الشرقية رداء له . ويبدو لنا أن كاليستينيس ، الذى قيل إن موقفه من هذه المسألة قضى عليها فى مهدها ، لم يرفى عمل الاسكندر أكثر من محاولة فرض عادة أسيوية على الإغريق كانت كرهية فى نظرهم ، وذلك بدليل ما ختم به كاليستينيس كلمته فى هذه المناسبة ، عندما قال إن الإغريق والمقدونيين لن يقبلوا تمجيده على هذا النحو الذى يهدر الكرامة الإنسانية وإن كان مألوفاً لدى الفرس منذ عهد قورش^(٥). ومن ثم يتبين لنا أن مرد كراهية الإغريق لهذه العادة لم يكن إلى أنها تنطوى على التأليه ، إذ لا نعلم أن يكون ذلك هو الدافع إلى تصرف كاليستينيس الذى لم يدخرو سماً فى التبشير بالوهية الاسكندر، وإنما إلى أنها تنطوى على المذلة والإهانة والخضوع لحاكم مطلق . وإذا صح أن الإسكندر والإغريق كانوا يرون أن السجود يحمل معنى العبادة ، فلا بد من أنهم كانوا يدركون كذلك أن رفضه معناه أيضاً أن الإغريق يأبون تأليه الأحياء وتبعاً

(1) Tarn I, pp. 79 --- 80; II, pp. 359 ff.

(2) Jouguet, Trois Et pp. 32 ff.

(3) Wilcken, Alex. the Great, pp. 168 --- 9.

(4) Taylor, Proskynesis and the Hellenistic Ruler Cult, J. H. S. 47: 1927, pp. 53 --- 62.

(5) Arr. IV, 11, 8 --- 6.

لذلك تأليه الإسكندر . والقول بأن تصرف كاليستينيس في هذه المسألة جعل الإسكندر ينصرف عن محاولة ذلك ثانية^(١) ، لا بد من أن يستتبع انصراف الإسكندر عن محاولة تأليه نفسه لدى الإغريق . فكيف إذن أقدم الإسكندر بعد ذلك بثلاثة أعوام على أن يطلب التأليه في عام ٣٢٣ لآمن أصدقائه الملتفين حوله وإنما من المدن الإغريقية التي كانت تتألف منها عصابة كورنثا^(٢) وتعترف بزعامته كارهة ؟ وكيف أن هذه المدن لم تأب ذلك على الإسكندر ، بل أن المدن الإغريقية في آسيا الصغرى سارعت من تلقاء نفسها إلى تأليهه^(٣) ؟ وكيف يجوز عقلاً أن يقال إن رغبة الإسكندر في إقامة نفسه إلهاً عاماً للإمبراطورية لم تستحق إلا محاولة باكترا الملتوية التي لم تسكد تبدأ حتى توقفت إلى الأبد ، ثم يقال في تفسير تصرفه عام ٣٢٤ إنه طلب إلى مدن العصابة تأليهه لأنه أمرها بأن تسمح للمنفيين منها بالعودة إليها ، وذلك لأنه وفقاً لميثاق العصابة كان لا يصح له باعتباره رئيسها أن يصدر إلى أعضائها مثل هذا الأمر ، أما باعتباره إلهاً فقد كان ذلك من حقه لأن الميثاق كان يقيد إسكندر الملك لا إسكندر الإله^(٤) ؟ ومن المسلم به أن إرغام المدن على قبول المنفيين كان أمراً كريهاً لديها ، ولو كان ما حدث فعلاً في باكترا هو محاولة فاشلة للتأليه ، لكان معنى ذلك أن الإسكندر لجأ إلى وسيلة كريهة وهي التأليه لحل المدن الإغريقية على قبول أمر كريه آخر وهو قبول المنفيين . وهذا مالا يستقيم مع حسن السياسة ولا المنطق السليم .

وكيف نقبل أن مسألة إعادة المنفيين كانت تستحق منه أن يطلب تأليهه صراحة في حين أن مسألة المسائل : وهي تنفيذ جوهر سياسته ، أى لم تشمل العناصر المختلفة في الإمبراطورية وحفظ كيانه هذه الإمبراطورية ، لم تستحق أكثر من محاولة باكترا ؟ لقد كنا نفهم أن يقال إن الإسكندر لم يفكر إطلاقاً

(1) Tarn II, p. 360.

(2) Diod. XVIII, 4; Tarn II, pp. 370 ff.; Jouguet, pp. 44 — 5.

(3) Jouguet, p. 45.

(4) Tarn II, p. 370.

فى اتخاذ الألوهية وسيلة لتحقيق أهدافه السياسية ، لكننا لانفهم الاعتراف باستخدام الإسكندر هذه الوسيلة فى تحقيق أغراضه الثانوية فقط مع أنه من الجلى أنه كان يعجز عن تحقيق أغراضه الرئيسية دون اللجوء إلى هذه الوسيلة . وصحيح أننا لم نسمع ثانية عن محاولة الإسكندر نصب نفسه إلها عاماً للإمبراطورية ، لكن لعل الأصح أن يقال إنه لم يحاول إطلاقاً نصب نفسه إلها عاماً للإمبراطورية ، وذلك لسبب يسير جداً وهو أن الإسكندر كان يستبقى عمل ذلك حتى يتم بناء الإمبراطورية ، لكن قبل أن يحدث ذلك كان الموت قد طواه .

الاتجاهات الجديدة في سياسة مصر الخارجية

على عهد البطلمية

تتأثر سياسة مصر الخارجية بمجموعتين من العوامل : إحداهما هي العوامل الطبيعية التي جعلت مصر أولاً جزءاً من وادى النيل ، بل جعلت حياتها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت مصر ثانياً وفيرة الخيرات في بعض النواحي ، مع فقرها الشديد في بعض النواحي الأخرى ، وجعلت مصر ثالثاً حلقة الاتصال بين أفريقيا وآسيا وأوروبا . ويترتب على ذلك أن تسعى مصر إلى تصريف ما يفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ما تفتقر إليه ، وأن يكون لنشاط السياسة المصرية ثلاث جهات : إحداهما أفريقية والأخرى آسيوية والثالثة أوروبية . ومن الطبيعي أن يتباين اهتمام مصر بكل جبهة تبعاً للظروف الدولية المحيطة بها في كل عصر . وهذه الظروف الدولية هي المجموعة الثانية من العوامل التي تتكيف بها سياسة مصر الخارجية .

وفي ذلك الصدر من عهد الفراعنة حين كانت مصر ، أو كادت أن تكون ، المركز الأوحيد للحضارة ، كان طبيعياً أن تستأثر الجبهة الأفريقية بنشاط السياسة المصرية . أما حين قامت إلى جانب مصر مراكز للحضارة في آسيا فإنه كان طبيعياً أيضاً أن يكون للجبهة الآسيوية كذلك شأن كبير في السياسة المصرية ، ومن ثم لم تعد الجبهة الأفريقية تستنفد اهتمام السياسة المصرية . وعند ما أخذت تظهر في شمال البحر الأبيض المتوسط مراكز جديدة للحضارة ، استرعت هذه المراكز في الحال انتباه مصر لكنه لما لم يكن لهذه المراكز الحضارية الأوربية حينذاك شأن يذكر بجانب مراكز الحضارة الشرقية ، فإنه لم يكن للجبهة الأوروبية إلا حظ يسير من اهتمام ملوك مصر قبل العصر الصاوي . ومنذ ذلك الوقت أخذت أهمية هذه الجبهة تزداد باطراد حتى طغت على كل ما عداها .

وعلى عهد البطالمة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيراً محسوساً ، إذ أنه حين كان نجم الحضارات الشرقية آخذاً في الأفول ، كانت حضارة الإغريق تقفز إلى الأمام قفزات خاطفة أوصلتها سريعاً إلى ذروة المجد حتى تضاءلت إلى جانبها الحضارات القديمة طراً ، وغداً بحر إيجة أهم مراكز الحضارة في العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخاً حين أنشأ الاسكندر امبراطوريته وأدخل في حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة . وعندما توفي الاسكندر في شرخ الشباب قبل أن تنظم وراثة العرش وطريقة الحكم في تلك الامبراطورية واقتسمها قواده ، كان لذلك نتائج عدة يعيننا هنا من أمورها ثلاث : وإحداها أن عرش مصر آل إلى أسرة مقدونية الأصل إغريقية الحضارة . والنتيجة الثانية نشوب صراع عنيف بين هؤلاء القواد دام أربعين عاماً تمخض آخر الأمر عن قيام ثلاث دول فتية على أنقاض الامبراطورية المقدونية : وهي دولة البطالمة في مصر ، ودولة السلوقيين في سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هي احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ، ولا سيما بين البطالمة والسلوقيين .

وحين كان خلفاء الاسكندر يصطارعون في شرق البحر الأبيض المتوسط ، كانت روما تجدد في بسط سيطرتها على الحوض الغربي في هذا البحر . وهكذا تبين ظهور عامل آخر جديد له خطره في أفق السياسة الدولية . فما أثر كل هذه العوامل في سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة ؟

غداة وفاة الإسكندر في بابل عام ٣٢٣ ق . م . اجتمع قواده لبحثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية . وبعد خلاف عنيف اتفقوا على أن يرتقى العرش شاب معتوه يدعى ازهيدياوس (Arrhidaeos) كان أخاً غير شقيق للإسكندر مع الاعتراف بحق جنين روكسانا (Roxana) زوجة الإسكندر الفارسية (إذا كان ذكراً في مشاركة فيليب الملك بمثابة شريك تحت الوصاية^(١) . وبهذا الحل

(1) Bouché-Leclercq, His. des Lagides, vol. I. 9; Jouguet, Mac. Imp., p. 120; Nat. Eg., III, p. 6; Rostovtzeff, Soc. and Ec. His. Hell. World, pp. 3-4.

أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ، لكنها لم تكن وحدة إلا في الشكل فقط إذ أنها تقسمت في الفعل بين قواد الإسكندر نتيجة لتقسيم ولايات الامبراطورية بينهم ليحكموها بصفة كونهم ولاية من قبل الأسرة المالكة المقدونية . وقد كانت الأطماع التي تجيش في صدور أغلب هؤلاء القواد واضحة جلية ، ولذلك فإنهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكية متى توافرت لديهم القوة الكافية لتأييد رغبتهم في الاستقلال . أما الوصاية فإنها آلت إلى برديكاس (Perdikkas) القائد العام للجيش . وسرعان ما أظهر برديكاس رغبته إلى جميع القواد الذين يحكمون ولايات الامبراطورية — رغبته في أنه ينتظر منهم إطاعة الأوامر التي يصدرها باسم التاج ، فأخذ أكثرهم بأسا وقوة يستعدون لمقاومة هذه الأوامر^(١).

وقد كانت مصر من نصيب قائد فديعى بطلميوس . فما كانت أهداف بطلميوس مؤسس أسرة البطالة التي حكمت مصر من عام ٣٢٣ حتى عام ٣٠ ق . م . ؟ وما كانت أهداف خلفائه ؟ يختلف المؤرخون اختلافاً بيناً في تفسير سياسة البطالة الخارجية^(٢) لكن مهما بلغ الاختلاف في تفسير هذه السياسة ، فلا خلاف في أمرين ، وأحدهما أن الجبهة الأوربية في نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطالة قد غدت الجبهة الرئيسية ، والأمر الآخر أن البطالة كانوا يريدون إنشاء امبراطورية . وسواء أكان بطلميوس الأول وخلفاؤه يريدون إنشاء امبراطورية عالمية أم امبراطورية بحرية في شرق البحر الأبيض ، فقد كان يتعين أولاً وضع الأساس الذي يقام عليه هذا الصرح ، أى بناء دولة قوية غنية مستقلة في مصر . ولا ريب في أن بناء مثل هذه الدولة كان يحتم فصح عرى الامبراطورية

(١) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالة ص ٢٤ — ٢٦

(2) Kornemann, in Klio, XVI, 1916, p. 229; Wilcken, Grundzüge u. Chrestomathie, vol. I, p. 4; Schmöller's Jahrb. 1921, p. 61; Rostovtzeff., J. E. A., 1920, p. 172.

المقدونية ومكافحة كل من تحدته نفسه بإحيائها لحساب الأسرة المالكة المقدونية أو لحسابه خاصة . ولذلك فإن بطلميوس الأول اشترك في عدة محالفات كانت أهمها ثلاث : إحداها ضد برديكاس الذى قضى عليه فى عام ٣٢١ لأنه أراد أن يلم شعث الامبراطورية ويوحدها ^(١) ، والمحالفتان الأخريان ضد انتيجونوس (Antigonos) الذى أصبح بدوره خطراً يهدد سلامة الولاة الآخرين ، وانتهى الأمر بالقضاء عليه فى موقعة إبسوس (Ipsos) ^(٢) عام ٣٠١ وبموته ماتت فكرة أحياء الامبراطورية المقدونية .

ووسط الأطماع التى تيجش فى صدور القواد ، كان فوز بطلميوس باستقلال مصر والمحافظة على هذا الاستقلال وإحراز مكانة سامية فى السياسة الدولية — كان كل ذلك يتطلب تجنيد جيش كبير وبناء أسطول قوى . ولما كانت تحت إمرة منافسى البطالمة جيوش وأساطيل من الطراز الأول ، إذ كانت مؤلفة من خيرة جنود العصر ، وأعمى المقدونيين والأغريق ، فقد اعتقد بطلميوس وخلفاؤه أنه لتحقيق سياستهم الخارجية ، بل المحافظة على كيان دولتهم لا بد من أن يكون لهم جيش وأسطول من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، ومعنى ذلك ضرورة استقدام الأغريق وأشباههم للخدمة فى قوات البطالمة الحاربة . ولما كانت ثروة مصر الطبيعية قاصرة عن الوفاء بحاجات الجيش والأسطول ، فإنه كان يتمين استيراد الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج ، لكن الطريقة المثلى لضمان الحصول على هذه الضروريات كانت الاستيلاء على بعض الأقاليم القريبة الغنية بالأخشاب والمعادن .

ولما كانت وفرة المال شرطاً أساسياً لبناء الجيوش والأساطيل ، وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة إذا بقيت

(1) Bouché-Leclercq I. pp. 18 ff.; Rostovtzeff. S. and E., p. 6.

(2) Bouché-Leclercq I, pp. 42 ff.; Rostovtzeff, S. and E., pp. 11—15.

شؤونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح المقدوني ، فإنه لم تكن هناك مندوحة عن إعادة تنظيم شؤون الإدارة والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالاً منظماً دقيقاً وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها . وللقيام بهذه الأعمال الإنشائية الواسعة استشعر بطليموس الأول وخلفاؤه الحاجة إلى رموس أموال وإلى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفاني في خدمتهم ، ومعنى ذلك أنهم كانوا يستشعرون الحاجة أولاً إلى الإغريق لا لبناء جيوشهم وأساطيلهم فحسب ، بل أيضاً لإعادة تنظيم شؤون البلاد الادارية والاقتصادية ، فقد كانت تتوافر لديهم رموس الأموال ، وكذلك الخبرة بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم التجارة السائدة في عالم البحر الأبيض المتوسط . واستشعروا الحاجة ثانياً إلى السيطرة على الطرق البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها الخارجية . فلا عجب أن اعتبر بطليموس الأول وخلفاؤه سيادة بحر إيجه عماد كيانهم السياسى ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

وإزاء كل هذه العوامل نرى أن بطليموس الأول : (١) قد انسلخ عن الإمبراطورية المقدونية وأعلن نفسه ملكاً على مصر^(١) . و (٢) استولى على برقة لحماية حدود مصر الغربية^(٢) . و (٣) استولى على جوف سوريا^(٣) (فلسطين وفينيقيها وجزء من سوريا) وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطئ آسيا الصغرى في كيليكيا وليكيا وكاريا^(٤) ، وذلك لحماية حدود مصر الشرقية ، والحصول على المعادن والأخشاب التى يفتقر إليها وادى النيل ، والسيطرة على بعض منافذ الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، وضمان سيادة بحر إيجه . و (٤) سبق الدول الحديثة إلى الاتجار بالحرية فإنه تحت ستار إنقاذ عصبة

(1) C. A. H. VI, 499; Bevan, pp. 27—8; Bouché—Leclercq I, pp. 71—2.

(2) Bouché — Leclercq I, pp. 16 — 17.

(3) Bouché — Leclercq I, pp. 28 ff.

(4) Bouché — Leclercq I, pp. 56 ff.

جزر إيجه من ربة أنتيجونوس ، طرد حاميات أنتيجونوس من هذه العصبية ووضع مكانها حاميات بطلمية^(١) للدود عن الحرية الإغريقية ، ثم سارع إلى بلاد البلوبونيز فوضع حاميات بطلمية في سيكيون وكورنثا^(٢) حماية للحرية الإغريقية من أعدائها الظالمين ! ولا شك في أنه كان يهدف من وراء ذلك إلى الفوز بسيادة بحر إيجه وكسب عطف الإغريق فيسيطر على الطرق التجارية في العالم القديم ويحصل من العالم الإغريقي على ما يحتاج إليه من الرجال ورءوس الأموال .

ويجب أن يلاحظ أن السيطرة على عصبية جزر إيجه كانت لا تكسب البطالمة إلا سيطرة جزئية اقتصادية وسياسية على بحر إيجه ، وأن استكمال السيطرة على هذا البحر كان يقتضى فرض حماية مصر على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وكذلك الاستيلاء على موانئ فلسطين وفينيقيا^(٣) . وقد شيد بطلميوس الأول جانباً مهماً من هذه الإمبراطورية ، وترك لخلفائه استكمال بنائها ، إذ أن السياسة التي وضع هو أساسها لم يحد عنها أحد من خلفائه الأوائل .

وهكذا يتضح لنا أنه على عهد بطلميوس الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاهاً جديداً لم يكن لها به عهد من قبل ، فقد غدت الجبهة الأوربية أو إن شئت الجبهة الأوروبية الشرقية أو الجبهة الشمالية محور نشاطها الرئيسى . وقد أفضى هذا الاتجاه إلى اتجاه جديد آخر نحو آسيا . حقاً إن الجبهة الآسيوية كانت منذ أمد بعيد موضع اهتمام مصر ، لكن آسيا الصغرى لم تكتسب قبلاً من الأهمية في هذه الجبهة مثل ما أخذت تكتسبه منذ أيام بطلميوس الأول ؛ وفضلاً عن ذلك فإن الاتجاه الآسيوى لم يكن يوماً وثيق الاتصال بالاتجاه الأوربى للسياسة المصرية على النحو الذى نراه منذ بداية عهد البطالمة .

وعند ما ارتقى عرش مصر بطلميوس الثانى كانت دولته أقوى دولة في العالم

(1) Jouguet, Nat. Eg. p. 21; Bouché -- Leclercq I, pp. 63 — 4.

(2) Bouché—Leclercq I, pp. 65—6; C. A. H. VI, pp. 494—5; Jouguet, Nat. Eg. pp. 21— 22

(3) Rostovtzeff, S. and E., p. 29.

الهيلينستى . وكانت تليها دولة السليوكيين وكانت تشمل ولايات امبراطورية الإسكندر في بلاد ما بين النهرين ، وأغلب الولايات الشرقية البعيدة ، وجانباً كبيراً من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) . وكانت الدولة الثالثة هي مقدونيا وكانت تسيطر على بعض المدن الإغريقية في شبه جزيرة البلقان .

وقد كانت لكل دولة من هذه الدول أهدافها ومراميها . أما مصر فان بطليموس الثانى كان ينشد الهدف الأساسى نفسه الذى كان أبوه ينشده ، وهو الدفاع عن استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول في حلبة السياسة ومضمار الاقتصاد في العالم الهيلينستى ، وذلك بالسيطرة على بحر إيجه سيطرة تامة . والواقع أن عزلة البطالمة في مصر كانت تضعفهم أمام دولة السليوكيين التى كانت في قبضتها المدن الإغريقية في الأناضول ، وأمام مقدونيا التى كانت تسيطر على إغريق البلقان ، على حين أن سيطرة البطالمة على الطرق التجارية كانت توفر لهم موارد جمة في الرجال والأموال^(١) .

وقد كان طبيعياً ألا يسلم السليوكيون باستيلاء البطالمة على جوف سوريا وشواطئ آسيا الصغرى ، لأن ذلك كان يحول دون أن يكون لهم أسطول كبير ويحرمهم منافذ الطرق الهامة الحربية والتجارية القادمة من امبراطوريتهم الآسيوية ، فيترتب على كل ذلك أن تصبح دولتهم مملكة شرقية بحت منعزلة تماماً عن العالم الإغريقى . ولذلك لم يكن هناك مفر من أن يصطدم السليوكيون بالبطالمة اصطداماً عنيفاً

ولم يكن في وسع مقدونيا الاعتراف بسيطرة البطالمة على بحر إيجه لأنه كان يترتب على ذلك حرمانها السيادة على هذا البحر ، وتبعاً لذلك انتقال السيطرة على مؤنة بلاد الإغريق من قبضة مقدونيا إلى قبضة البطالمة المعادين لهم . ومن ثم فانه كان طبيعياً أن تناصب مقدونيا البطالمة عداء شديداً . وهكذا لم

(1) Rostovtveff, pp. 29—30.

يكن في وسع بطلميوس الثاني تحقيق أهداف السياسة الخارجية التي وضع أبوه أساسها دون القيام بمجهود عنيف . لكن هذا لم يفت في عضده أو على الأصح في عضد زوجه أرسينوى^(٢)، فقد : (١) وطد حدود مصر الغربية ، (٢) وأرسل حملة تأديبية إلى قبائل النبط في البتراء وأخضع الأدوميين والبحر الميت وشرق الأردن^(١)، وذلك لضمان الحصول على التجارة الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد العرب ، (٣) ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه بالطرق التي تربط وادي النيل بالبحر الأحمر^(٢)، (٤) ووطد حدود مصر الجنوبية واهتم بطرق أعالي النيل^(٣) (٥) ودعم سلطان مصر في جوف سوريا ، (٦) واسترد ممتلكات مصر على شاطئ آسيا الصغرى الجنوبي وكان أبوه قد فقدتها في عام ٣٠٦ ، وأضاف إليها ممتلكات جديدة على شاطئ آسيا الصغرى الغربي^(٤)، (٧) وبسط نفوذه على كريت ، وثبت سلطانه على عصابة جزر بحر إيجه^(٥).

غير أن الهزيمة التي نزلت ببطلميوس الثاني في خلال الحرب السورية الثانية سلبته سيادة البحار وكل ممتلكاته في آسيا الصغرى وبحر إيجه ، فيما عدا كاريا وجزيرة ثيرا . ولذلك فإنه قد حاول أن يسترد بالمصاهرة ما فقدته في ميدان الحرب ، وذلك أنه تمكن من إقناع أنطيوخوس ملك سوريا بترك زوجه الأولى لاوديكي والاقتران من ابنته برينيكى ، على أن يكون أبناؤها ورثاء عرش أنطيوخوس^(٦). وإذا كان بطلميوس قد منى نفسه من وراء هذا الزواج بفرصة تتاح له كي يتدخل في شئون سوريا أو يجعل من امبراطورية أنطيوخوس صديقاً له أو عميلاً ، فإن

(1) Jouguet, Mac. Imp. P. 246; Tarn, J. E. A, XV, pp. 14—16.

(٢) إبراهيم نصحي ص ٥٠ .

(3) Diod. I. 37.

(4) C. A. H. VII, pp. 703 - 4.

(5) Jouguet, op. cit. 246.

(6) C. A. H. VII, p. 715; Jouguet, Nat. Eg. III, pp. 53—4.

أنطيوخوس كان يطمع في أن يحقق من وراء هذا الزواج استرداد جوف سوريا ، لكن الحوادث لم تحقق آمال الطرفين .

وبين إذن أن الاتجاهين الجديدين اللذين ظهرا في أفق السياسة المصرية على عهد بطلميوس الأول قد استمررا مسيطرين على هذه السياسة في عهد بطلميوس الثاني أيضاً . بل لعل سيطرتها قد ازدادت قدراً ما في عهد بطلميوس الثاني ، على نحو ما يتضح من اتساع نطاق فتوحه في بحر إيجه وعلى شواطئ آسيا الصغرى .

لكن لعهد بطلميوس الثاني ميزة أخرى ، ففي عهده بدأ اتجاه جديد في سياسة مصر الخارجية . وبيان ذلك أن مصر في عهد بطلميوس الثاني كانت أول دولة هيلينستية أنشأت علاقات سياسية مع روما^(١) ، ففي عام ٢٧٣ ق. م. أرسل بطلميوس الثاني بعثة إلى روما تمخضت عن عقد اتفاق بين الدولتين .

وببدو أن هذا العمل كان جزءاً من سياسة عامة انتهجها بطلميوس الثاني مع الدول الغربية ، إذ تنهض الأدلة على وجود علاقات قوية حوالى ذلك الوقت بين مصر وسيراكوز ، أعظم دولة في صقلية . وكذلك بين مصر وقرطاجنة التي طلبت إلى بطلميوس الثاني إقراضها مبلغاً كبيراً من المال لتتأهله الحرب البونية الأولى ضد روما ، لكن بطلميوس الثاني رفض عقد ذلك القرض للاحتفاظ بالحياد الدقيق بين الفريقين المتحاربين . ومن المحتمل أن الدوافع التي أملت على بطلميوس الثاني سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية قبل كل شيء ، لأن الأسواق الغربية كانت تستطيع المساهمة بقدر كبير في رخاء مملكته . فقد كانت روما تمتلك أغنى مناجم الحديد . وكان يوجد في جنوب إيطاليا وصقلية وجزر ليباري كميات كبيرة من الكبريت التي تحتاج إليها الصناعة المصرية ، وكذلك الزراعة وبوجه خاص زراعة الكروم . وكانت صقلية وقرطاجنة غنيتين بالحيول التي تحتاج إليها جيوش

(١) C. A. H. VII. p. 823; Otto, Zur Gesch. d. Zeit d. 6. Ptol., Bay. Abh., XI. 1934, pp. 38 ff., 81, 90 ff., 133, 136; Rostovtzeff, S. and E., pp. 394. ff.

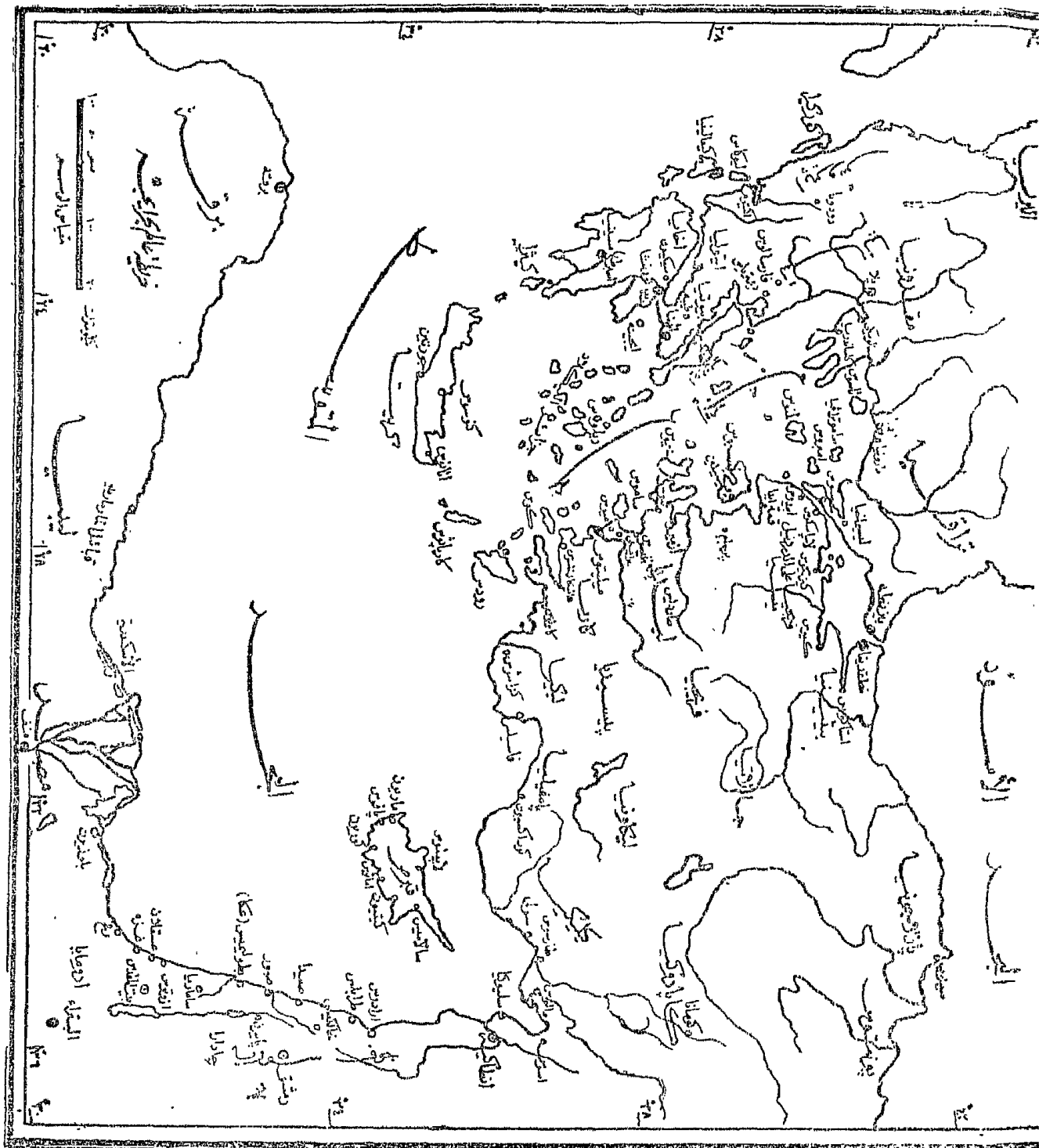
(م ٦ — البعثة)

مصر . وكانت أسبانيا غنية بالفضة ، وكانت قرطجنة تحتكرها في بداية العصر الهيلينستي . وكانت مصر في حاجة كذلك إلى صفيح بريطانيا ، وكان يجيء إلى مسيليا وقرطجنة .

إن السياسة الخارجية التي وضع بطلميوس الأول أساسها وسار بطلميوس الثاني على نهجها أصبحت سياسة تقليدية لدى ملوك البطالمة الأوائل . وآية ذلك أن بطلميوس الثالث أيضاً لم يكسب يرتقى العرش حتى وضع نصب عينيّه تحقيق الأمن والأهداف التي لم يستطع جده وأبوه تحقيقها جميعاً . ومن ثم فإنه لم يستمد فقط الممتلكات التي فقدتها مصر أيام أبيه في كيليكيا وبامفيليا وليسكيا وكاريا وأيونيا بل أضاف إليها أملاكاً أخرى في تلك الأقاليم . واستولى أيضاً على ممتلكات جديدة في أيوليا وعلى شاطئ الدردنيل وفي غاليلوى وتراقيا^(١) . وقد حدا كل ذلك ببعض المؤرخين إلى القول بأن حصول مصر على ممتلكات تمتد من كيليكيا إلى تراقيا يشير إلى أن البطالمة كانوا لا يستهدفون الإشراف على الطرق التجارية المؤدية إلى مصر فحسب ، بل يبتغون أيضاً الاستيلاء على كل بحر إيجه من أجل الحصول على سيادة العالم ، تلك الرغبة التي كانت الدافع وراء مشروعات كافة القوى المتنافسة في العالم الأغريق منذ بداية القرن الثالث^(٢) . ونحن نرى أن الأمر لم يقتصر على تلك الممتلكات الواسعة آنفة الذكر ، بل إن نفوذهم امتد كذلك إلى شواطئ بحر مرمرة وشواطئ البحر الأسود الجنوبية بفضل تحالفهم مع برجام وصداقتهم مع «العصبة الشمالية» في آسيا الصغرى ، تلك العصبة التي كانت تناصب السليوقيين العداء . ونرى أيضاً أن البطالمة لم يستهدفوا فقط الإشراف على الطرق التجارية المؤدية إلى مصر ، بل كانوا يستهدفون أيضاً الاستيلاء على منافذ الطرق التجارية الآتية من أواسط آسيا ، وذلك للتحكم في التجارة الشرقية الهامة ، ولضمان سيادة بحر إيجه ، لا من أجل الفوز بسيادة العالم ، وإنما من

(١) C. A. H. VII, pp. 718—9. Jouguet, Nat. Eg., pp. 57—8.

(٢) Jouguet Mac. Imp., pp. 248—9.



أجل تحقيق أغراضهم الخاصة باستقلال مصر وراثتها . ولا جدال في أن امبراطورية البطالمة قد وصلت في عهد بطلميوس الثالث إلى أقصى اتساعها ، لكن هذه الإمبراطورية لم تكن إلا امبراطورية بحرية ، وشتان ما بين هذه الإمبراطورية البحرية وبين إمبراطورية عالمية .

وفي مستهل حكم بطلميوس الثالث عندما توفي أنطيوخوس الثاني ملك سوريا ونشب خلاف عنيف من أجل العرش بين زوجه الأولى لاوديكي وزوجه الثانية برينيكى شقيقة ملك مصر ، هب هذا الملك لنصرة أخته والدفاع عن حقوق ابنها (١) . ويسكاد يكون مؤكداً أنه قاد جيوشه حتى سليوكيا على نهر الدجلة ثم أنفذ الرسل باسم برينيكى إلى حكام الولايات الشرقية يطلب منهم الطاعة فأذعبرا ، وبعد ذلك عين حاكماً عاماً على هذه الولايات وعاد إلى مصر لنشوب ثورة في الدلتا (٢) . وإذا صح أن برينيكى وابنها كانا قد قتلا قبل زحف بطلميوس شرقاً ، وأن ملك مصر قد تعمد إخفاء ذلك ، فلماذا كان الزحف ؟ لأنه كان يطمع في بسط نفوذه على الولايات الشرقية في امبراطورية السلوقيين ؟ وإذا كانت هذه الآمال قد دارت بخياله فأليس من المعقول أنه كان يترك وراءه قوة كبيرة لدعم سلطانه في تلك الأرجاء عندما اضطرته حوادث مصر إلى العودة سريعاً إليها ؟ لكن بطلميوس لم يفعل ، ورب معترض يقول : إن السر في ذلك لم يكن الزهد أو التعفف ، وإنما حكم الظروف نفسها التي اضطرت به إلى العودة . وقد كنا نقبل هذا الاعتراض لو لم نعرف أن بطلميوس الثالث لم يحاول شيئاً من ذلك وهو في أوج مجده يوم امتد سلطانه امتداداً واسعاً في بحر إيجه ، ولا سيما عندما داخل الانحلال إمبراطورية السلوقيين وتقطعت أوصالها ، مع أن الفرصة كانت مواتية له عندئذ لاقتطاع ما يشاء من الولايات الشرقية في تلك الإمبراطورية .

(١) إبراهيم نصحي ص ٦٥ — ٦٦

(٢) C. A. H. VII, p. 717; cf. C. I. G. 5, 127; Strack No. 39; Bouché-Leclercq I, pp. 260-2.

وليس لهذا سبب سوى أن البطالة لم يفكروا إلا في امبراطورية بحرية . غير أن عزوف بطلميوس الثالث عن اقتطاع ممتلكات جديدة من امبراطورية السيلوكيين لم يمنعه من تشجيع الخلافات التي دبت بين أفراد أسرة السيلوكيين ، مثل ما شجع الاضطرابات التي نشبت ضد غريمه الآخر ملك مقدونيا (١) ، بينما استمرت مصر محتفظة بحيادها الدقيق في النزاع العنيف بين روما وقرطجنة وبملاقاتها الودية مع الدول الغربية .

وهكذا يتكشف لنا أن بطلميوس الثالث اقتفى بدقة خطوات أبيه في اتجاهات السياسة الخارجية نحو الشمال والشرق والغرب .

وعندما ارتقى بطلميوس الرابع عرش مصر ، وأطلق العنان لشهواته الجامحة ، اعتقد أنطيوخوس الثالث أن الفرصة قد سنحت لسلب مصر جوف سوريا ، غير أن بطلميوس ترك عبثه ومجونه وخف للدفاع عن امبراطوريته . ومن أجل ذلك أعاد تنظيم الجيش وأدمج للمرة الأولى في قواته المقاتلة عدداً كبيراً من المصريين يعزى إليهم الفضل الأكبر في الانتصار في موقعة رفح في عام ٢١٧ على جيوش أنطيوخوس الإغريقية (٢) .

وعاد الملك المهزوم ليعمل بنشاط من أجل إعادة بناء امبراطوريته ، وسلب البطالة جوف سوريا ، ذلك الاقليم الذي أصبح منذ عهد بطلميوس الأول سبباً دائماً للنزاع بين هاتين المملكتين المتنافستين .

وفي الوقت نفسه وقف فيليب الخامس ملك مقدونيا جهوده على دعم سلطانه في بلاد الإغريق ، والفوز بسيادة بحر إيجه . وكانت روما عندئذ تجد في إفناء قوة قرطجنة وبناء صرح مجد شامخ لنفسها (٣) . وحين كانت ساحات البحر الأبيض

(١) ابراهيم نصحي ص ٦٧ وما بعدها

(2) Polyb. V, 63—66; Bouché-Léclercq I, pp. 301-314.

(3) Rostovtzeff, S. and E., pp. 49 ff.

المتوسط في شرقه وفي غربه تشهد هذه الأحداث الجسام ، أى حين اعتلت مسرح السياسة في العالم الهيلينستى ثلاث قوى فتنية وثابة ، وهى روما وفيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث ، قنع بطليموس الرابع بذلك النصر الباهر الذى أحرزه في موقعة رفح ، وانهماك أشد الانهماك في حياة المجون والعبث التى شغلته حتى عن العمل على الاحتفاظ بسيادة مصر البحرية كاملة في شرق البحر الأبيض المتوسط^(١) . وحتى نشاط أنطيوخوس الخطر لم يستنهض همته وإن دفعه إلى محاولات فائرة للتقرب من مقدونيا . وإزاء الصراع رهيب بين روما وقرطجنة احتفظ بحياء دقيق برغم كل محاولته سيرا كوز في عام ٢١٥ لاستدراجه إلى التحالف مع قرطجنة^(٢) . وتدل هذه المحاولة على أمرين : وأحدهما أن بعض الأوساط الهيلينية كانت توجس شراً من انتصار روما على قرطجنة ، ومن ثم تنتظر من الدولة المصرية العظيمة موقفاً غير الموقف الذى اتخذته ، والأمر الآخر أنه كانت لا تزال لمصر مكانة عظيمة بين الأغريق .

لقد عرفنا أنه كان للسياسة الخارجية التى اتبعتها البطالمة الثلاثة الأوائل هدفان رئيسيان ، وهما استقلال مصر استقلالاً تاماً سياسياً واقتصادياً ، والتمتع بأكبر قسط ممكن من السيطرة على عالم البحر إيجه . وقد نجح أولئك البطالمة إلى حد بعيد في تحقيق هذين الهدفين ، وكان لسياستهم الخارجية أول الأمر جبهتان ، في الشمال والشرق ، ثم أصبحت لها جبهة ثالثة في الغرب . أما منذ عهد بطليموس الرابع فإن البطالمة لم يحاولوا إلا تحقيق الهدف الأول ، إذ أنهم اضطروا تدريجياً إلى طرح تحقيق الهدف الثانى جانباً إزاء ضغط القوى الفتية الوثابة التى مر بنا ذكرها ، وإزاء الضعف الكامن في أولئك البطالمة الأواخر وفي رجالهم الذين ألقيت إليهم مقاليد الحكم ، وإزاء الثورات المصرية الخطيرة التى اندلع لهيبها في البلاد ، وأخيراً إزاء الخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطالمة منذ عهد بطليموس السادس .

(1) Polyb. XIV, 12.; cf. Bouché-Léclercq I, pp. 325 ff.

(2) Bouché-Léclercq, I, pp. 318 ff.

فلا عجب أن اتفق المؤرخون على اعتبار موقعة رفح حداً فاصلاً بين العهد الذى بلغت فيه دولة البطالمة أقصى اتساعها وأوج مجدها والعهد الذى أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب إليها ، حتى سقطت هيبتها وذهبت سطوتها ، ففقدت أملاكها فى الخارج وتزعزع سلطانها فى الداخل ، وأصبحت تتناوبها الغزوات والثورات إلى أن انتهى بها الأمر إلى أفول نجمها وزوال استقلالها .

ويلاحظ أنه منذ موقعة رفح فى عام ٢١٧ حتى موقعة اكتيوم فى عام ٣١ ق.م. قد مرت سياسة مصر الخارجية فى أدوار ثلاثة :

أما الدور الأول فهو من موقعة رفح فى عام ٢١٧ حتى وفاة بطليموس الخامس فى عام ١٨٠ ق.م. :

حين أثار مخاوف مصر انكباب أنطيوخوس الثالث على لم شمل إمبراطوريته وتوسيع رقعتها ، عملت مصر على التقرب من مقدونيا وروما^(١) ، لكن اضطرابات مصر الداخلية وخوار عزيمة حكامها وفسادهم شجعت أصحاب الطامع ، أعداءها منهم والخلفاء ، فإنه فى نفس الوقت الذى أحسن فيه فيليب استقبال بعثة مصرية أوفدت لتعقد معه معاهدة تتضمن شروطها زواج ابنته من بطليموس الخامس ومساعدة فيليب لمصر ضد أنطيوخوس ، عقد فيليب مع أنطيوخوس فى عام ٢٠٣ / ٢٠٢ معاهدة مخزية على نحو ما يصفها بوليبيوس اقتساماً بمقتضاها ممتلكات مصر الخارجية^(٢) . وهكذا سرعان ما فقدت مصر ممتلكاتها فى تراقيا وغاليبولي وآسيا الصغرى وجوف سوريا ، ولم يبق لها من ممتلكاتها سوى قبرص وبقرة^(٣) .

وقد خرجت روما فى عام ٢٠٢ من صراعها مع قرطجنة منتصرة وإنما منهوكة

(1) Bouché-Leclercq, I, pp. 342 ff.

(2) Polyb. XV, 20.

(3) Bouché-Leclercq I, pp. 351--3; C. A. H. VIII, pp. 150--1; Jouguet, Nat. Eg. III, p. 125.

القوى . وهكذا في الوقت الذي بدأ فيه فيليب وأنطيوخوس أعمال السطو على ممتلكات مصر ، كانت روما تستشعر الحاجة إلى فترة من الراحة والهدوء تستريح فيها أنفاسها وتضمّد جراحها ، لكن أطماع فيليب وأنطيوخوس ألقّت في قلب روما الفزع والهللع . لقد غزا هانيبال إيطاليا ، فلماذا لا يقدم فيليب وأنطيوخوس على غزو روما ؟ ألم يعتزم الاسكندر الأكبر ضم الغرب إلى إمبراطوريته العالمية ؟ ألم ينضم بيروس (Pyrrhus) بمد ذلك إلى المدن الإغريقية في جنوب إيطاليا ضد روما ، فأثبت بذلك أنه يوجد في بلاد الإغريق رجال قادرون على أن يوحّدوا ضد روما كل الذين يضيّقون بسيادتها في إيطاليا ؟ وإلى جانب كل ذلك لقد خرجت قرطاجنة من الحرب البونية الثانية مهزومة لكنه لم يقض عليها ، وكانت تود دون شك أن تثار لمزيعتها ، فهل كان يبعد أن يتحالف معها فيليب ؟ كانت كل هذه الأفكار تدور بخلد الرومان ، فهم لم يأمنوا يوماً جانب الدول الهيلينية الشرقية ، فقد كانت لها تقاليد حربية جليلة وكانت موطن أعظم الاختراعات في فنون القتال . ولذلك لم يضع الرومان وقتاً طويلاً قبل أن يشتبكوا مع فيليب ثم أنطيوخوس ويهزموها الأول في عام ١٩٧ والثاني في عام ١٨٩ ، وذلك بحجة الدفاع عن حرية الإغريق وأملاك بطلميوس المسلوقة^(١) .

ولما لم يكن من صالح روما أن ترى مصر قوية شديدة البأس فإنها عندما هزمت أنطيوخوس — وكان قد استولى على الجانب الأكبر من إمبراطورية البطالمة — وزعت ، بمقتضى معاهدة أباميا (Apamia)^(٢) ، كل ما انتزعت منه بين رودس وبرجام لتتخذ منهما أداة لتنفيذ سياستها ولتوجد توازناً بين القوى في الشرق بإضعاف مصر وسوريا وتقوية رودس وبرجام ، وكذلك لتنشر الفرقة والانقسام بين القوى التي كان من الممكن أن تتحد ضد روما بدافع الخوف على كياناتها إزاء ازدياد الأطماع الرومانية^(٣) .

(١) Rostovtzeff, S. and E. pp. 52 ff.; Holleaux M., Rome, la Grèce, et les monarchies hellénistiques au 3ème siècle av. J. C., Paris, 1921, pp. 60-96.

(٢) أنظر شروط المعاهدة في Appianus, Syr. 44; Mithrid. 62; Diod. XXIX, في Livius XXXVII, 55—56, XXXVIII, 37—39; Polyb. XXII, 7.

(٣) Jouguet, Nat. Eg, p. 132; Bouché-Leclercq I. pp. 392-3.

ومن ثم فإن مصر لم تفقد أغلب ممتلكاتها بحسب ، بل إنها ، وقد ارتقت في أحضان روما تنشد حمايتها من أنطيوخوس ، مهدت السبيل لضياع استقلالها الذي كانت لا تزال تتمتع به شكلا وفملا . وآية ذلك أنه عند ما توفى أنطيوخوس الخفيف في عام ١٨٧ وخلفه على العرش ابنه الضعيف سليوكوس الرابع ورأى بطليموس الخامس في ذلك فرصة لاسترداد جوف سوريا ، قرر اتباع سياسة مستقلة عن روما التي كانت قد خيبت آمال مصر منذ عهد قريب ولا يمكن أن توافق على مثل هذا المشروع . وبيان ذلك أنه حاول في عامي ١٨٥ و ١٨٣ عقد معاهدة تحالف مع المصبة الآخية (١) ، وكانت حليفة روما ، وإن كانت حليفة غير مطيعة ، وتشارك كل الإغريق تقريبا المواطن العدائية للرومان التي أصبحت تبحش في صدورهم . وينهض هذا الاتصال بالمصبة الآخية دليلا على أن بلاط الإسكندرية كان يحاول إحياء سياسته التقليدية التي تنطوي على القيام بدور حامى الحرية الإغريقية . وفي الوقت نفسه أنفذت الإسكندرية الرسل إلى بلاد الإغريق لتجنيد فرق جديدة من المرتزقة ، لكن وفاة بطليموس الخامس في عام ١٨٠ قضت على المفاوضات مع المصبة الآخية (٢) ، وتبعا لذلك على مشروعات الإسكندرية ولو مؤقتا (٣) . فلم تجد روما ضرورة لأفهام مصر أنها هي وحدها الحكم الفاصل في مسألة الحرية الإغريقية ، بل في كافة مشاكل العالم الهيلينستي (٤) .

أما الدور الثانى فهو منذ ارتقاء بطليموس السادس فيلومتور في عام ١٨٠

حتى وفاة بطليموس التاسع سوتر الثانى (لا ثيوس) في عام ٨٠

مهدت الظروف في هذا الدور لروما لكي تبسط سلطانها الفعلى على مصر ، وإن احتفظت مصر باستقلالها الاسمى . ويعزى تغلغل النفوذ الرومانى فى مصر

(1) Cf. Polyb. XXII 3, 5-6; 7, 1-2; 9, 1-12; XXIV, 6, 1-7.

(2) Polyb. XXIV, 6, 7.

(3) Bouché Leclercq, I, pp. 393-9.

(4) C. A. H. VIII, p. 283; Bevan, pp. 273-4; Jouguet, Nat. Eg., pp. 132-4.

في خلال هذا الدور إلى عاملين : أحدهما أنه في مستهل هذا الدور غزا أنطيوخوس الرابع مصر نفسها ولم ينقذها من برائته إلا تدخل روما التي أرغمته على الانسحاب من مصر ورد قبرص إليها (١) ، إذ لم يكن في وسع روما السماح لإمبراطورية السلوقيين بالأنساع بحيث تضم مصر بين جوانبها لأن ذلك كان دون شك يهدد مركز روما في شرق البحر الأبيض المتوسط ، ويقضى على سياسة توازن القوى التي كانت روما تتبعها هناك . وفي الواقع أن روما لم تقض من قبل على أنطيوخوس الثالث لكي تسمح الآن لأنطيوخوس الرابع بالاستيلاء على دولة البطالمة ، ومن ثم يتضح جلياً أن روما لم تنقذ مصر حياً فيها أو انتصاراً للاستقلال والحرية وإنما إشفاقاً على نفسها من قوة أنطيوخوس .

والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر بطلميوس الثامن واتخاذها روما فيصلاً وحكماً في هذا النزاع الدموي الذي استغلته روما لتحقيق أغراضها ، فاستفحل خطبه منذ ذلك الوقت بين أفراد أسرة البطالمة ، وسجل التاريخ صفحة حوادثه بين أقسى وأروع ما سجله عن أمراء أعمت أبصارهم وأضلت بصائرهم ألوان الترف والنعيم التي شبوا في أحضانها ، وأفسدت نفوسهم وألهبت شهواتهم مظاهر الساطة المطلق التي نشأوا في كنفها ، وضروب الخلاعة والاستهتار التي عاشوا في ظلها ، فكانوا مزيجاً من الرذائل التي تتولد في جو فاسد مسمم قوامه سلطان لا يحد ، وشعب ذليل مستكين يكاد لا يملك حق التآلم ، وحاشية فاسقة لا تعنى بغير اللهو والقصف ، وجرتومة عليلة منكورة هي ثمرة تزواج الأخوة بأخواتهم .

وبرغم هذه الأحداث الداخلية الجسيمة ، وكابوس النفوذ الروماني الثقيل ، فإن مصر لم تنس جوف سوريا ، وحاولت مراراً استغلال الاضطرابات التي كانت تقطع أوصال إمبراطورية السلوقيين لاستعادة ذلك الجزء الجميل من ممتلكاتها

(١) Polyb, XXIV, 11; Diod. XXXI, 2; Livius, XLIV, 19; XLV, 12; Bouché-Latréac II, pp. 21-7.

السابقة لكنها باءت بالفشل^(١). وفضلاً عن ذلك فإنها فقدت أيضاً برقة ، إذا أن بطلميوس الثامن ابواجتيس الثانى كان قد نزل عنها لابنه غير الشرعى بطلميوس ابيون وهذا أورثها لروما فى عام ٩٦ (٢).

أما الدهر الثالث فهو منذ وفاة بطلميوس التاسع سوتر الثانى فى عام ٨٠ حتى موقعة أكتيوم فى عام ٣١ ق . م

وقد بلغ من ازدياد نفوذ روما فى مصر أنه منذ وفاة بطلميوس التاسع فى عام ٨٠ ق . م . أصبح مصيرها متعلقاً بمصير الصراع الحزبى فى روما : إذ أن زعماء حزب الشعب كانوا يطالبون بضم مصر إلى الامبراطورية الرومانية استناداً إلى وصية زعموا أن بطلميوس الحادى عشر أورث مصر وقبرص بمقتضاها للأمة الرومانية ، وإن عجزوا عن إبراز هذه الوصية فى خلال المناقشات التى دارت حولها مدى عشرين عاماً . غير أنه لم يغلب عن أحسد أن الدافع وراء مطالبة الزعماء الديمقراطيين بضم مصر كان الرغبة فى الافادة من ثروتها لكسب رضا العامة فى روما . أما نبلاء الرومان فانهم كانوا يناهضون مطالب الديمقراطيين وذلك من أجل الاحتفاظ بسلطتهم ومن أجل الاغتراف من موارد مصر ، فقد كانت مصالحهم فى ترك المسألة معلقة لكى يستبقوا ملك مصر تحت رحمتهم ويرغموه على إشباع أطماعهم^(٣) . وقد بقى مصير عرش بطلميوس الثانى عشر (الزمار) فى كفة القدر إلى أن ابتاع تأييد الزعيم الشعبى يوليوس قيصر بمبلغ كبير يعادل تقريباً أكثر من مليون وربع مليون جنيه ، فصدر قانون تعترف فيه روما بهذا الرجل التعس مسلطاً على مصر وحليفاً وصديقاً للشعب الرومانى^(٤) . وهكذا أتت النجاة لبطلميوس من الجانب الذى أفض مضاجعه مدة طويلة ، لكن

(1) Jouguet, Nation Egyptienne, pp. 145 ff.

(2) Liv., Epit., LXX; Bouché-Leclercq II pp. 188-9; Jouguet, Nat. Eg. p. 151.

(3) Bouché — Leclercq, II, pp. 128 — 33; Jouguet, Nat. Eg. pp. 192 — 4; Cary, pp. 370 — 71; C. A. H., IX, pp. 475 — 86.

(4) Suet., Caes., 54; Cf. Cicero, Ad Att. II, 5 — 16; Bouché — Leclercq, II pp. 135 — 7; Cary, 376.

روما لم تلبث أن سلبت مصر قبرص (١). ولم يكن استيلاء روما على قبرص إلا عملاً من أعمال السطو الصارخة ، إذ لم يكن له أى مبرر إلا غنى هذه الجزيرة وجشع روما . وبضم قبرص إلى روما بعد برقة لم يبق من دولة البطالمة إلا مصر ، وحتى مصر لم يبق لها من الإستقلال إلا اسم أجوف .

وحين وصلت مكانة أسرة البطالمة إلى الحضيض حتى بدا محققاً أنها ستزول في ظرف سنين قلائل كما زالت من قبل أسرة السيلوكيين ، شاء القدر أن تشرق شمس البطالمة من جديد إشراقاً يخطف الأبصار قبل أن تنيب إلى الأبد ، فكان إشراقاً أشبه شىء بصحوة الموت . إذ عندما كانت دولة البطالمة تعالج سكرات الموت ، ارتقت عرش مصر كليوبترة السابعة وسرعان ما رأيت سلطانها لا يعتمد على ممتلكات البطالمة القديمة فحسب ، بل كذلك على أقاليم لم يحلم بها أحد من البطالمة الثلاثة الأوائل . ولما كان أولئك البطالمة الأوائل رجالاً فانهم أقاموا دعائم امبراطوريتهم على قوة سواعدهم ، لكن الآن وعندما لم تعد لقوة مصر الحربية قيمة تذكر إلى جانب قوة روما ، وعندما لم يعد فى وسع أى ملك متربع على عرش مصر إنقاذ دولته المتداعية بأى قوة يملكها ، كان القابض على صولجان مصر امرأة ، فاستخدمت فى السياسة والحرب سلاحاً جديداً — أو بلغة العصر الحديث سلاحاً ذرياً — هو سلاح المرأة الفاتنة التى تمكنت من استخدام قوة روما أداة لتنفيذ أغراضها (٢) .

فقد سيطرت أولاً على يوليوس قيصر الذى يبدو أنه ، وقد استسلم لهوى كليوبترة فى الوقت الذى كان يتطلع فيه إلى إقامة نفسه ملكاً ، كان يرى أن كليوبترة خير من تصلح لمشاركته سلطانه الواسع ، أو بعبارة أخرى كان يفكر فى أن يتم نعمة الله عليه بالزواج من تلك الملكة . ولا عجب أن عللت كليوبترة نفسها بأوسع

(1) Liv., Epit., CIV; Dio Cassius, XXXVIII, 30; Bouché-Leclercq II, pp. 277-8.

(2) Bevan, pp. 359 — 60; Jouguet, Nat. Eg. pp. 204 — 5.

الآمال ، وبدأ لها عندئذ أن صلة أسرتها بمصر لم تكن في أثناء القرون الثلاثة التي خلت إلا مرحلة انتقال للتربع فوق عرش امبراطورية عالمية لا تكون مصر إلا إحدى ولاياتها . لكن نبلاء الرومان لم يلبثوا أن أجهزوا على هذه الآمال عندما أجهزوا على قيصر في عام ٤٤ ق . م .^(١).

ومع ذلك لم تنقض بضعة سنين حتى انتعشت آمال كليوبترة مرة أخرى عندما أوقعت في شباكها صيداً جديداً : وهو مارك أنطونيوس الحاكم المطلق في النصف الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، الذي وضع نفسه وكل ما يملك تحت إمرة كليوبترة ، فقد تزوجها وقسم بينها وبين أولادها كل الولايات الرومانية في آسيا^(٢) . ولما كان أنطونيوس وكليوبترة لم يقنعا بالنصف الشرقي في العالم الروماني فإنهما أخذتا يستمدان لمنازلة أوكتافيوس للفوز بالنصف الغربي أيضاً وحكم العالم الروماني بأكمله . وهكذا بدأ لكليوبترة بعد عشر سنين من تبديد أحلامها بمقتل قيصر ، أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح إمبراطورة العالم . لكن شتان ما بين الأمانى العذبة والواقع الأجاج ، فقد حطم أوكتافيوس كل تلك الآمال في موقعة أكتيوم ، ولم يلبث أن دخل الإسكندرية في العام التالي وضم مصر إلى الامبراطورية الرومانية .

ويحق لنا أن نتساءل : أكان كل ما يدور بخلد كليوبترة أطماعاً جامحة فقط أم كان وراء ذلك أيضاً هدف أسمى وأنبى ؟ أو بعبارة أخرى : أكانت تشارك خيال أحد أنصارها الذي تصور فيها الزعيم الذي قيض له أن يقود ثورة الشرق ضد روما ، ثورة المظلوم على الظالم ، لا للانتقام لكل الإهانات التي نزلت بأسرتها فحسب ، بل لإنشاء عالم أفضل من العالم القديم ، بإنزال روما من عليائها إلى الخضيض ، لتأخذ بيدها ثانية وقد طهرتها الهزيمة من أوسارها ، فتشارك

(1) Bouché—Leclercq II, pp. 218 — 23; Bevar, pp. 368 — 9; Jougue, op. cit., pp. 217 — 8.

(2) Dio Cassius XLIX, 41; Plut., Ant., 54; Bouché — Leclercq II, pp. 277 — 9; Jougue, 229 — 30; C. A. H. X, pp. 80 — 2.

في عصر ذهبي يتخلص فيه العالم من الشرور والحروب ، وتنتهي إلى الأبد
العداوة بين الشرق والغرب ، فيقفان سوياً على قدم المساواة في كنف العدالة
وفي ظلال المحبة والأخاء ؟ ليس هناك أمل في أن نقف على كل نوايا كليوباترة ،
لكنه إذا صح أنها بلغت في نبل تفكيرها حد محاولة تحقيق آمال الإسكندر ،
فإن هذا يكسبها دون شك كل تقدير وإجلال ، وإن لم يكن مقدراً لها النجاح
في محاولتها (١).

ويستوقف النظر فيما عرضناه إعراض البطالمة عن الجبهة الجنوبية ، التي كانت
موضع عناية الفراعنة منذ أقدم العصور . وإذا كان هذا لا يدهشنا بالنسبة للبطالمة
الأواخر الذين اكتنفهم المخاطر من كل جانب حتى شلت حركتهم ، فكيف
نفسر ذلك بالنسبة للبطالمة الفاتحين ، ملوك الأسرة الأوائل ؟ لقد مر بنا أن البطالمة
الأوائل انصرفوا بوجه عام إلى تسكوين امبراطورية بحرية حول شواطئ البحر
الأبيض المتوسط الشرقية وبحر إيجه ، مدفوعين إلى ذلك بعدة عوامل ، أهمها
ظروف النضال مع خلفاء الإسكندر الأكبر على اقتسام الامبراطورية المقدونية ،
وطبيعة أصلهم ونشأتهم ، وما بينهم وبين الأغريق من أوشائج حتى أنهم جعلوا
جل اعتمادهم على الأغريق في تشييد صرح دولتهم ، وتقديرهم أن امبراطورية
تتألف من أقاليم تمت بصلته إلى الحضارة الإغريقية وتقع بالقرب من مراكز
هذه الحضارة تكون أبقى لهم على الدهر وأجدى عليهم ، وخير نصير لهم
في تحقيق ما كانوا يهدفون إليه من لعب الدور الأول في سياسة البحر الأبيض
المتوسط الدولية . ولا ريب في أنهم قد استشعروا أن مكائهم الدولية — في عالم
تعتبر فيه الحضارة الإغريقية أرفع الحضارات طراً — كانت تتوقف إلى حد كبير
على ظهورهم في ثوب رافعي لواء الحضارة الإغريقية ، بجمع مسحة ولو ظاهرية
من هذه الحضارة على دولتهم . وإذا كان ذلك أمراً ميسوراً فيما يخص مصر ،

فإنه كان ضرباً من المحال فيما يخص كل وادى النيل . ولعل البطالمة أن يكونوا قد قدروا أن تحقيق وحدة وادى النيل ، كان من الممكن أن يحمل في طياته خطراً داهماً عليهم باعتبارهم ملوكاً إغريقاً أخرجوا من أفق تفكيرهم بناء دولة قومية ، وذلك لأن وحدة الوادى بما تنطوى عليه من إحياء سيرة القراعنة العظام ومجد وادى النيل القديم قد تفضى إلى بحث أمة وادى النيل من جديد ، فيتلاشى في أرجاء بلادها المسيحة رسل الحضارة الإغريقية ، ولا يلبث أن يرتقى فرعون وطنى عرش وادى النيل . ومن ثم فإن البطالمة بوجه عام اكتفوا بالمحافظة على سلامة حدود مصر الجنوبية وعقد أواصر الصداقة مع مملكة الجنوب ، والاهتمام بتجارة الجنوب والشرق ، وخاصة عن طريق البحر الأحمر . وقد ازداد هذا الاهتمام بالتجارة الشرقية الوافدة عن طريق البحر الأحمر منذ فقد البطالمة منافذ التجارة الشرقية التى كان ينتهى عندها طريقا الشمال والوسط ، أى منذ فقدوا شواطئ آسيا الصغرى وجوف سوريا .

ويتضح إذن من كل ما مر بنا أنه إزاء الظروف التى اكتتفت البطالمة اتخذت سياستهم الخارجية وجهات جديدة صوب الشمال والشرق والغرب ، فقد قدروا أنه كان يمكنهم الاستغناء عن وحدة وادى النيل بإمبراطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية التى أنشأوها مع الغرب وكذلك مع الشرق . لكن يبين أن التوفيق قد أخطأهم في هذا التقدير ، فمن ناحية كلفهم إنشاء هذه الإمبراطورية جهوداً مضنية وأموالاً طائلة ، ودفعهم إلى ممالأة الإغريق على حساب المصريين واستنزاف موارد البلاد واستثارة عداء الكثيرين عليهم .

ومن ناحية أخرى عندما اشتد ساعد منافسيهم وأخذت روما تتسع باطراد في شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد البطالمة إمبراطوريتهم البحرية ولم يجدوا في داخل دولتهم عضداً كافياً حتى للاحتفاظ بملكهم من العدوان الخارجى . وهكذا استنفد البطالمة قوتهم وأضاعوا ثروتهم فالتهمت روما دولتهم لقمة سائنة .

أسطول البطالة الحربى

كان الهدف الرئيسى للسياسة الخارجية التى نهجها البطالة الأوائل هو المحافظة على استقلال مصر التام ، وضمان قيامها بالدور الأول فى العالم الميلىنستى فى حلبة السياسة وفى مضمار الاقتصاد . وكانت الوسيلة المثلى لتحقيق هذا الهدف هى إحراز سيادة بحر إيجه ، فتسيطر مصر على الطرق التجارية فى العالم القديم . وكان ذلك ينطوى على إقامة امبراطورية بحرية شبيهة بإمبراطورية أثينا النابرة . وقد أقام بطليموس الأول سوتر فى بسط سيطرته على عصبة جزر بحر إيجه ، ونجح بطليموس الثانى فيلادلفوس فى دعم هذه السيطرة . ولما كانت السيطرة على عصبة الجزر لا تكسب مصر إلا سيادة جزئية على بحر إيجه من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، فإنه لاستكمال هذه السيادة حاول فيلادلفوس بسط حمايته على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، ونشر نفوذه على المدن التجارية الكبرى القائمة على مضائق الدردنيل وبحر مرمرة والبسفور والشواطئ الجنوبية للبحر الأسود . وحيث أنه كان يهدد سلامة هذه الإمبراطورية الإيجية سيطرة قوة أخرى على الموانئ الكبرى فى فينيقيا وفلسطين وما يتوافر لديها من موارد بحرية ، فإن البطالة — حالما أتاحت لهم الفرصة — استولوا على فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا ، وحاولوا — بقدر ما سمحت لهم الظروف — الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الأقاليم . ومن أجل المحافظة على سيادة مصر فى بحر إيجه ، والحيلولة دون ازدياد قوة ملوك مقدونيا البحرية اضطر سوتر وفيلادلفوس وخلفاؤهما إلى محاولة دعم نفوذهم فى أهم الموانئ الأغريقية^(١) . وقد عنى البطالة أيضا بحماية حدودهم الغربية ، ولذلك فإن سوتر ما كاد يحط رحاله فى مصر حتى استولى على برقة^(٢) .

(١) Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 29.

(٢) Bouché — Leclercq, Hist. Lagides, I, pp. 16 — 17,

ومنذ ذلك الوقت حرص هو وخلفاؤه على الاحتفاظ بهذا الإقليم . وفضلا عن ذلك فإن مصر لا تطل على البحر الأبيض المتوسط فحسب ، بل تطل أيضا على البحر الأحمر ، ولم يهتم البطالة بتنشيط علاقاتهم التجارية مع الشمال والغرب فقط ، بل أيضا مع الجنوب والشرق^(١) . لكن فوز البطالة بسيادة بحر إيجه عليهم عقولهم وتغلب في نظرهم على كل ماعدا ، فقد كانوا يعتبرون سيطرتهم على بحر إيجه دعامة كيانهم السيامي ومصدر قوتهم وعماد استقلالهم ، فإن بقاءهم منعزلين في مصر كان يتركهم ضعافا عاجزين أمام سوريا التي تسيطر على إنغريق الأناضول ، وأمام مقدونيا التي تسود أغريق البلقان ، في حين أن سيطرتهم على الطرق التجارية في بحر إيجه وسوريا كانت توفر لهم موارد عظيمة من المال والرجال وحرية في النشاط والعمل تهيب لهم ما يبتغونه من الثراء والقوة^(٢) . اللازمين لتحقيق هدفهم السياسي .

ويتضح مما أسلفناه أن تحقيق هذا الهدف كان ينطوي على مناهضة مصالح مقدونيا وسوريا ، وكذلك على حرمان كثير من الجزر الإغريقية في بحر إيجه والدين الإغريقية في آسيا الصغرى استقلالها العزيز عليها . ومن ثم كان تحقيق ما يستهدفه البطالة يتطلب مجهودا حربيّا عنيفا مستمرا ، يتولاه جيش قوى وأسطول كبير . وعندما توفي الإسكندر الأكبر ، لم تقسم إمبراطوريته فحسب بل قسم أيضا جيشه ، وكان يتكون من ثلاث مجموعات : أولاها ، الفرق المقدونية التي كانت تحت أمرة أنتيباتروس في بلاد الإغريق ، وثانيتهما ، الجيش الذي اضطلع بمب الحملة في الشرق ، وثالثتها حاميات الولايات في طول الإمبراطورية وعرضها^(٣) . وعندما قسم جيش الإسكندر بين قواده ، احتفظ أنتيباتروس بالقوات التي كانت تحت قيادته ، وأخذ پرديكاس ، فيما يبدو ، جيش الحملة ، وآل إلى كل من القواد

(١) إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالة س ٣٩٩ — ٤٠٥ .

(٢) Rostovtzeff, op. cit., pp. 29, 30.

(٣) Droysen, Hist. de Phell., Paris, 1883—5 p. 130.

(م ٧ — البطالة)

الآخرين حامية الولاية التي فاز بها^(١) . ونحن لانعرف عدد قوات ولاية مصر ولا كيفية تكوينها عندما أقيم عليها بطليموس واليا في عام ٣٢٣ ، وإن كنا نعرف على الأقل أنه بعد مفاوضات الإسكندر مصر ترك فيها جيشاً وأنشطولا^(٢) . وعلى كل حال فإن القوات التي كانت تعتبر كافية لاستبقاء مصر في حظيرة الإمبراطورية المقدونية ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش هذه الإمبراطورية تحتاج كل شيء أمامها ، لم تكن كافية لتحقيق أهداف بطليموس ، ولذلك فإنه كأغلب القواد الآخرين ، اتخذ من القوات التي وجدها في ولايته نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم .

وليس هنا مجال الإفاضة في كيفية تكوين الجيش ، لكنه لابد من الإشارة إلى ما يجمع عليه المؤرخون من أن البطالة الأوائل ، على الأقل ، جعلوا جل اعتمادهم في بناء جيوشهم على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، الذين تطوع بعضهم في خدمة البطالة — أملاً في الفوز بالمنح والامتيازات — وكونت منهم الفرق النظامية ، وباع البعض الآخر خدماتهم للملك مصر وكونت منهم الفرق المرتقة . ولا شك في أن البطالة الأوائل اعتمدوا إلى أقصى حد على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، لنقمتهم في كفايتهم وبساتهم في ميادين القتال ، فقد كانوا خيرة جنود العصر ، كما أن جيوش منافسيهم كانت لا تتألف إلا من هذا الطراز من الجنود^(٣) . وفضلاً عن ذلك فإن البطالة كانوا لا يستطيعون الاعتماد على المصريين ، إما لارتياحهم في مقدرتهم الحربية ، أو في إخلاصهم الطاعة لهم ، أو لرغبتهم ، ككل دخيل منتصب ، في ألا ينتشلوا الأمة المصرية من وهدة الاضمحلال التي تردت فيها . وذلك لأن الجيش في كل دولة وفي كل عصر قلب الأمة النابض ، ورمز

(1) Lequier, Les inst. milit. de l'Eg. sous les Lagides, p. 1.

(2) Arriane, Anab. III, 5, 3 ff.

(3) Rostovtseff, op cit., pp 262 — 3; C. A. H. VII, p. 118.

حيويتها وعنوان مجدها . لكن لابد من أن أولئك البطالة كانوا يحشون أيضا إغفال أمر الجنود المصريين كالية ، وذلك لكي لا ينشر أولئك الجنود روح التذمر في البلاد فيثور المصريون ، يوم كان البطالة في أشد الحاجة إلى الهدوء والسكينة داخل دولتهم^(١) .

فكيف حل البطالة الأوائل هذه المشكلة ؟ يبدو لنا أنه من العسير علينا اليوم أن نعرف على وجه التحقيق الدور الذي قام به الجنود المصريون في جيش البطالة قبل عصر بطلميوس الرابع فيلوباتور ، لكن ديودوروس يحدثنا بأنه في موقعة غزة (عام ٣١٢) كان جيش بطلميوس الوالى يضم عددا كبيرا من المصريين ، كان بعضهم يقوم بأعمال النقل ، والبعض الآخر مسلحاً ويمكن استخدامهم في القتال^(٢) . وترينا بعض وثائق القرن الثالث مخارين مصريين في حيازة كل منهم اقطاع مساحته خمس أرورات^(٣) . ويحدثنا بوليبيوس بأن تسليح المصريين في عهد بطاميوس الرابع كان عملاً صائباً فيما يخص الحاضر ، لكنه كان بدعة خطيرة تهدد المستقبل^(٤) . فهل تدل عبارة ديودوروس على أن بطاميوس الأول اضطر في أزمة عام ٣١٢ إلى استخدام المصريين في الجيش ، ثم عدل بعد ذلك عن هذه التجربة ، حتى أنه عندما أشرك فيلو پاتور المصريين فعلاً في القتال في موقعة رفح اعتبر ذلك خروجاً على التقاليد البطلمية ؟ أم أن البطالة الثلاثة الأوائل لم يدمجوا المصريين في صلب الجيش ، بل عهدوا إلى بعضها بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال الثانوية ، وسلحوا بعضها الآخر بالأسلحة الخفيفة أو بأسلحتها المصرية المتيقة استعداداً للطوارئ في حالة الضرورة القصوى ، حتى أنه عندما أدمج فيلو پاتور المصريين في صلب الجيش وسلحهم بالأسلحة المقدونية اعتبر ذلك

(١) إبراهيم نصحي س ٤٦١ .

(2) Diod., XIX, 80, 4.

(3) Cf. Lesquier, op, cit., pp 172 ff.

(4) Polyb., V, 107, 1 — 3.

بدعة خطيرة ؟ وعندنا أن الاحتمال الثاني أدنى إلى الصواب ، استناداً إلى ما تنطوى عليه عبارة ديودوروس وبوليبيوس من المعانى ، وإلى صغر مساحة إقطاعات الجنود المصريين حتى موقعة رفح ، لأن ذلك يدل دلالة قاطعة على ما كان للمصريين من الأهمية الثانوية في الجيش البطلمي .

وإذا كان المصريون قد أدمجوا في صلب الجيش على عهد فيلو پاتور ، فإنهم كانوا يؤلفون فرقاً مستقلة بهم ، واستمروا يكونون جزءاً مستقلاً من الجيش حتى نهاية القرن الثانى على الأقل ، بل حتى نهاية أسرة البطلمة فيما يبدو^(١) . وفضلاً عن ذلك فإنه قد بقى للأجانب من رجال الجيش القديح المملى من ناحيتى الغلبة فى العدد والمكانة والامتيازات^(٢) .

نستخلص إذن مما مر بنا أن المقدونيين والإغريق كانوا خيرة جنود العصر ، وأن منافسى البطلمة كانوا يؤلفون جيوشهم من هؤلاء الجنود ، وأن البطلمة بوجه عام والأوائل منهم بوجه خاص كانوا يعتمدون فى تكوين جيوشهم على هذا الطراز من الجنود ، وأنه إذا كان المصريون منذ عهد بطليموس الرابع قد أدمجوا فعلاً فى الجيش وسلبوا بالأساحة المقدونية ، فإن الغلبة قد بقيت للأجانب من حيث العدد والمكانة والامتيازات . والآن ماذا كان من أمر الأسطول ؟

لقد أسلفنا أن سياسة البطلمة الخارجية كانت تستهدف السيطرة على طرق التجارة فى بحر إيجه وفى البحر الأحمر ، بل بناء امبراطورية بحرية ، وأن أهداف هذه السياسة كانت مناهضة لمصالح سوريا ومقدونيا ولتمتع الكثير من الجزر الإغريقية فى بحر إيجه والمدن الإغريقية فى آسيا الصغرى باستقلالها ، ومن ثم كان يتعين أن يكون للبطلمة أسطول كبير . وقد نجح البطلمة الأوائل فى بناء

(1) Lesquier, op. cit., pp. 7 — 8, 19 — 20, 28.

(٢) ابراهيم نصحي ص ٧٥٧ .

هذه الإمبراطورية البحرية ، التي بلغت أوج اتساعها على عهد بطلميوس الثالث أيوارجتييس ، واحتفظت مصر بهذه الإمبراطورية إلى أن ضاعت كل ممتلكاتها الخارجية ، ماعدا قبرص وبرقة ، على عهد بطلميوس الخامس إبيفانس . وفضلا عن ذلك فإن البطالة الأوائل قد تمتعوا بسيادة البحار في فترات من عهد بطلميوس الأول والثاني والثالث . وحتى بعد انهيار إمبراطورية البطالة ، كانت مصر لا تزال في حاجة إلى أسطول قوى لحماية تجارتها البحرية التي كانت لا تزال نشيطة^(١)، بل أنها ازدادت عندئذ نشاطا في البحر الأحمر . وبيان ذلك أن المجهودات التي كان البطالة الأوائل يوجهونها إلى آسيا الصغرى وسوريا من أجل السيطرة على منافذ الطرق التجارية القادمة من الشرق تحولت منذ عهد بطلميوس الثامن أيوارجتييس الثاني في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إلى « طريق الجنوب » ، فأخذت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد أن كانت لا تتخطى بوزاز باب المندب اجترأت إذ ذاك على اجتياز هذا البوغاز ، ووصلت إلى الأقليمين اللذين كانا ينتجان العطور وهما : حضرموت في جنوب بلاد العرب ، وبلاد بنت علي شاطئ الصومال^(٢) . ويحدثنا يوسايدونيوس (Poseidonios) بأنه في عهد بطلميوس الثامن أبحر أيودوكسوس (Endoxos) في رفقة بحار هندي إلى الهند^(٣) ، فكان أول أغريقي وصل إلى الهند دون الاستمانة بالطرق البرية . وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية إنهاء مملكة سبأ في عام ١١٥ ق . م^(٤) ، ومساعدة روما لمصر على حساب سوريا وفلسطين^(٥) ، واستكشاف هيبالوس (Hippalos) طرق الاستفادة من الرياح الموسمية حوالى

(1) Rostovtzeff, op. cit., p. 1256.

(2) Préaux, L'écon. royale des Lagides, pp 358 - - 9.

(3) Strabo, 90 - - 102.

(4) Tarn, Hell Civ., p. 214.

(5) Joseph. Ant. XIV. 249 - - 50.

عام ١٠٠ ق. م^(١) مما يسر اجتياز باب المندب بل الإبحار إلى الهند مباشرة .
والواقع أنه إزاء نقص موارد البطالة الأواخر وازدياد مطالب إيطاليا من
منتجات بلاد العرب والهند في أواخر القرن الثاني ، اكتسبت التجارة
الشرقية في نظر البطالة الأواخر أهمية لم تكن لها من قبل^(٢) . وليس أدل على
ذلك من إنشاء منصب جديد في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل
الميلاد ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والمحيط الهندي » (*epi tes Erythras*)
(*kai Indikes, thalasses*)^(٣) . وكل هذا يشير إلى اهتمام البطالة الأواخر بتأمين
البحار الشرقية ، وإلى وجود أسطول لهم يقوم بحماية التجارة فيها ، وإلى قيام
علاقات منتظمة بين مصر والهند أكسبت البحريين الأحمر والهندي أهمية
لم تكن لهما من قبل^(٤) . وفي الواقع لدينا أدلة على مجيء تجار هنود إلى مصر ،
مثل نصب الموتى التي وجدت في الاسكندرية وعليها رموز هندية^(٥) .

وفي الوثائق التي ترجع إلى أواخر عهد بطليموس الخامس إيفانوس رد لأول
مرة الإشارة إلى وجود سفن من الأسطول الملكي في النيل . ومرد ذلك إلى
الاضطرابات التي أخذت تسود البلاد منذ أواخر العهد السابق ، مما أدى إلى
ضرورة اتخاذ ما يكفل سلامة التجارة النهرية . ومن أجل ذلك أنشئت في عهد
بطليموس الرابع أو الخامس فرقة من المحاربين المصريين (*Machimoi*) لتقوم بتأمين
سلامة السفن في النيل ، ومن ثم أطلق على أفرادها *Naukleromachimoi* .
ونحن نعتقد أن الأصح ترجمة هذه الكلمة بالمحاربين البحريين لا بالمحاربين الذين
يحرسون الملاحين^(٦) .

ومن ثم يتبين لنا من القرائن التاريخية أنه كان للبطالة ، ولا سيما لأوائلهم ،
أسطول عظيم لعب دوراً هاماً في تاريخ العصر الهيلينستي ، الذي شهد سباقاً

(1) Jouguet, Nat. Eg. III. p. 171.

(2) Tarn. p. 215.

(3) Rostovtzeff, p. 928; O. G. I. S. 186, 190.

(4) Jouguet, Nat. Eg. III, pp. 169 — 170.

(5) Petrie, Jour. R. A. Soc., 1898, p. 875.

(6) Rostovtzeff, p. 715.

في التسليح البحري شبيها بما نراه اليوم^(١). وقد كان أحد أسباب إعجاب الناس إذ ذاك ببطلميوس فيلادلفوس قيامه بإنشاء أنواع جديدة من السفن الحربية ، ويرى أثينا يوس أن هذا الملك قد بز الملوك الآخرين في الأسلحة البحرية^(٢). . . وتنهض الأسانيد الأثرية أيضاً دليلاً على عظمة أسطول البطالة ، فقد عثر في الدلتا على قطعة من الفسيفساء ، محفوظة الآن بمتحف الاسكندرية ، صورت فيها الاسكندرية باعتبارها سيدة البحار . فقد رمز إلى الاسكندرية بسيدة على رأسها تاج بحري ، وعلى كتفها عباءة حربية ، وفي يدها اليسرى رمز الانتصارات البحرية ، وكان يحمل عادة في المهرجانات التي تقام في هذه المناسبات ، وهو عبارة عن زخرفة خشبية كان يزين بها مؤخر السفن . ويرجح روستوفتسوف أن هذه الفسيفساء ، التي قد ترجع إلى فترة متأخرة في عصر البطالة ، منقولة عن قطعة فنية أقدم عهداً وأعظم شأنًا من هذه الفسيفساء ، ابتكرها أحد فناني الاسكندرية للاشادة بالمجد البحري الذي أحرزه البطالة الأوائل^(٣).

وقد عثر في بيت ريفي روماني بالقرب من ليتيس ماجنا (Leptis Magna) على لوحة من الفسيفساء يعتقد روستوفتسوف أنها تصور « الميناء المسمى » داخل الميناء الكبير (الميناء الشرقية اليوم) ومدخل قصر البطالة ، وأن هذه الفسيفساء التي ترجع إلى القرن الثاني للميلاد — منقولة عن نموذج يرجع إلى عصر البطالة ويهدف فيما يبدو إلى تمجيد سيادة البطالة البحرية وازدهار تجارتهم في كنف أسطولهم العظيم^(٤) .

وبالرغم من كل ما نعرفه عن عظمة أسطول البطالة والدور الكبير الذي لعبه هذا الأسطول ، مما يقطع بأنه كان للبطالة ، ولا سيما لأوائهم ، أسطول ضخم ،

(1) Préaux, L'économie royale des Lagides, p. 37.

(2) Athen., V, 203. d.

(3) Rostovtzeff, op. cit, pp. 254, 1360, pl. XXXV.

(4) Rostovtzeff, pp. 352, 1042 — 3, pl. XL, 2.

فإن معلوماتنا عن هذا الأسطول طفيفة جداً^(١). فنحن لا نعرف عن قوة أسطول البطالمة في العهود المختلفة أكثر مما يرويه ديودوروس^(٢) من أن عدد سفن بطليموس الأول في موقعة سلاميس (عام ٣٠٦) كان ١٤٠ سفينة، بينما يقول بلوتارك^(٣) أنه في هذه الموقعة كان تحت إمرة بطليموس ١٥٠ سفينة وتحت إمرة أخيه منلاوس ٦٠ سفينة، ومما يذكره أثيناوس وإبيانوس عن معدل قوة أسطول فيلادلفوس - وقد ورد في كتاب أثيناوس^(٤)، نقلاً فيما يبدو عن كاليكسينوس، أن عدد أكبر السفن التي لدى هذا الملك كان يبلغ ٣٣٦ سفينة، وذلك فضلاً عن ٤٠٠٠ سفينة « كانت ترسل إلى الجزر والولايات الأخرى التابعة له وكذلك إلى ليبيا ». أما إبيانوس^(٥) فقد ذكر أنه كان تحت إمرة هذا الملك « ألفان من سفن النقل والسفن الصغرى و ١٥٠٠ سفينة حربية و ٨٠٠ سفينة بها حجرات ومضى سدرها وعجزها بالذهب، فقد كان الملوك أنفسهم يستخدمونها عند ذهابهم إلى المعارك البحرية ». وقد لاحظ أحد المؤرخين المحدثين^(٦) أن مجموع سفن فيلادلفوس وفقاً لما ذكره أثيناوس (٤٠٠٠ + ٣٣٦ = ٤٣٣٦) يتفق تقريباً مع ما ذكره إبيانوس (٢٠٠٠ + ١٥٠٠ + ٨٠٠ = ٤٣٠٠). ويميل هذا المؤرخ إلى الاعتقاد بأن سفن فيلادلفوس الحربية كانت ٣٣٦ سفينة، بل يشكك في أنها كانت تصل إلى هذا العدد. ومن الجلي أن هذا الرأي متأثر بالعبارة التي وردت في أثيناوس، وإن كان أثيناوس لم يحدد سفن فيلادلفوس الحربية بهذا العدد. وفضلاً عن ذلك كيف كان هذا العدد من السفن الحربية يسكن فيلادلفوس للتمتع بسيادة بحرية في وجه مقاومة

(1) Lesquier, op. cit, p. 255

(2) Diod. XX, 49, 2.

(3) Plut., Demetr., 16. 1.

(4) Athen., V. 203. d.

(5) App., Prooemion, 10.

(6) Tarn, Antigonus, Gonatas. pp. 456 . 7

منافسيه الأعداء ، مع الاحتفاظ بسلامة شواطئ مصر و سلامة ممتلكاته الخارجية في هذا البحر وضمان خضوعها له ، وكذلك سلامة الملاحة في البحر الأحمر ، التي كان يهددها قراصنة النبط^(١) . ومع ذلك إذا كان يصعب علينا أن نعتقد أن فيلادلفوس ، برغم وفرة موارده وما تتمتع به من سيادة بحرية وممتلكات خارجية وما كان عليه من تبعات جسام في البحرين المتوسط والأحمر لم يمتلك إلا ٣٣٦ سفينة حربية ، فإنه يصعب كذلك أن نقبل تلك الأرقام الضخمة التي ذكرها اثيناينوس وايبيناينوس ، ولا سيما أنه لا سبيل إلى التأكد من صحتها . وإزاء ذلك فإن كل ما يمكننا أن نستخلصه في الميثان مما ذكره هذان المؤرخان هو أن أسطول فيلادلفوس كان يتألف على الأقل من أربع فئات من السفن وهي :

١ — فئة لخوض المعارك .

٢ — فئة لحماية ممتلكات مصر الخارجية .

٣ — فئة لنقل الجنود والرسائل والمواد الحربية والغذائية .

٤ — فئة لنقل الملك وحرسه وحاشيته .

ومن الجائز أنه كانت توجد فئة خاصة لتأمين طرق الملاحة أو أنه كان يعهد في هذه المهمة إما إلى الفئة الأولى أو الفئة الثانية .

وكيف كون البطالة أساطيلهم ؟ لقد أسلفنا أن الإسكندر ترك في مصر بعد فتحها قوات برية وبحرية ، وأنه مهما كان عدد هذه القوات فإنها لم تكن كافية لتحقيق أغراض بطليموس ، ولذلك فإنه مثل أغلب قواد الإسكندر الآخرين اتخذ من القوات التي وجدها في ولايته نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم^(٢) .

(١) إبراهيم نصحي ص ٣٩٩ .

(٢) Lesquier, op. cit., p. 2; Rostovtzeff, p. 263.

ويبدو طبيعياً أن نفترض أن الملك كان يبنى جانباً من الأسطول على نفقة الدولة . وإذا كان يعوزنا الدليل المادي على ذلك من عهد بطليموس سوتر ، فإن وثيقة بردية محفوظة في أكسفورد ولم تنشر بعد وترجع إلى عام ٢٥١/٢٥٠ ق . م . تحتوى على أمر من فيلادلفوس إلى وزير مالىته أبولونيوس ليقطع عدداً كبيراً من الأشجار لبناء سفن حربية^(١) .

ويستخلص من إحدى الوثائق البردية^(٢) ومن أحد المراجع القديمة^(٣) أن جانباً آخر من الأسطول كان سفناً يستأجرها الملك . ولم يكن ذلك أمراً غريباً ، فقد كان الملك يستأجر المحاربين الذين يتقنون فناً معيناً من فنون الحرب . وفضلاً عن ذلك فإنه كان شائعاً بين ملوك العصر الهيلينستي نظام استئجار السفن والبحارة من المدن ، وأحياناً استئجار وحدات بحرية من القراصنة^(٤) .

وتشير القرائن إلى أن جانباً ثالثاً من الأسطول كان يتألف — وفقاً للنظام الذى ابتدعه أثينا — من السفن التى كان يفرض على الأثرياء من المواطنين إعدادها وتقديمها للملك . فقد شاع هذا النظام خارج أثينا في كل عصر واتبعه الاسكندر الأكبر نفسه^(٥) . حقاً ليست لدينا إلا وثيقة بردية واحدة (عام ٥٢٨/٢٥٧ ق . م .) خاصة بتطبيق هذا النظام في إحدى مدن الامبراطورية البطلمية وهى مدينة هاليكارناسوس^(٦) ، لكن ، كما يقول فيلكن^(٧) ، من العسير أن نتصور أن هذه المدينة كانت تتحمل وحدها هذا العبء دون غيرها من سائر

(1) Rostovtzeff, p. 1318.

(2) Lesquier, p. 257, fn 4; P. Lond. 1, 106.

(3) Polyb. V, 89, 4.

(4) Rostovtzeff, p. 1579; C. A. H. VII, p. 118.

(5) Wilcken, in Raccolla Lumbroso, 1925, pp. 97 -- 8.

(6) C. Zen. P. 67; Annales XXII, pp. 209 ff.; P. C. Zen. 59036; Hunt .

Edgar, Select, Papyri II, 410; Raccolla Lumbroso, pp. 98. ff.

(7) Op. cit., p. 97.

الشعور الأغريقية التي في حظيرة الإمبراطورية البطلمية . ومن المعقول أن نتصور أيضاً أن البطالمة قد فرضوا هذا العبء كذلك على مواطني الشعور الفينيقية وعلى مواطني مدن مصر الاغريقية ^(١) . ولا شك في أن هذا العبء لم يفرض على المصريين أيضاً ، لاشفقة بهم وإنما لأنه لم يكن في وسعهم ، على الأقل على عهد البطالمة الأوائل ، الاضطلاع به بسبب فقرهم وقلة مواردهم مع كثرة الالتزامات الأخرى التي أرهقهم البطالمة بها .

وعندما سيطر البطالمة على عصابة جزر بحر إيجه كان أسطول هذه العصابة يكون جزءاً مهماً من أسطولهم ^(٢) .

أما عن رجال الأسطول فيجب أن نلاحظ أنهم كانوا يتألفون من عنصرين رئيسيين وهما عنصر المجدفين والبحارة ، وعنصر المحاربين . ووفقاً للنظم المتبعة في كافة أنحاء العالم القديم ، كان العنصر الأول يتألف من أدنى طبقات السكان ^(٣) . ولما كان البطالمة قد وضعوا المصريين في أسفل الدرك ، وكان طبيعياً أن يتبع البطالمة النظم المألوفة ، فلا بد من أن العنصر الأول في أساطيلهم كان يتألف من المصريين . ويتأيد ذلك بما ورد في القرار الذي صدر في العام التاسع من عهد بطلميوس الخامس ابيفانس (شهر مارس عام ١٩٦ ق.م) وحفظه لنا حجر رشيد المشهور ، فإن هذا القرار يتضمن إعفاء مزارعي المعابد وعبيدها من الخدمة في الأسطول ^(٤) . ويبدو معقولاً أن البطالمة لم يفرضوا هذه الخدمة على مزارعي المعابد دون غيرهم من سائر فئات المزارعين . لكن البطالمة الأواخر ، وقد وهنت قواهم ولسوا قوة الكهنة المصريين وأخذوا يتقربون إليهم بشتى الوسائل ، لم يعفوا إلا مزارعي المعابد وعبيدها من الخدمة في الأسطول . وإذا كان هناك شك في أن بطلميوس

(1) Rostovtzeff, p. 334.

(2) Rostovtzeff, p. 333.

(3) Lesquier, p. 256.

(4) Cf. Mahaffy, Empire of the Ptolemies. p. 320; Bevan, pp. 264 — 5
Lesquier, pp. 256 — 7.

الرابع — ليتقرب إلى المصريين بوجه عام والسكينة بوجه خاص — قد توج على نهج الفراعنة لأول مرة في عهد البطالمة ، فلا سبيل إلى الشك في أن بطليموس الخامس قد فعل ذلك في شهر نوفمبر عام ١٩٧ ، أى خمسة أشهر قبل ذلك القرار الذى ورد فيه هذا الإعفاء . وتشير إحدى الوثائق إلى أن المساجين أيضا كانوا يشتركون في تكوين المنصر الأول من رجال الأسطول^(١) . ويبين أن بعض المرتزقة كانوا يستخدمون كذلك لهذا الغرض^(٢) .

وبرى لسكيبه أن جنود الأسطول أيضا كانوا يؤخذون من المصريين ولكن من تلك الطبقة الممتازة ، طبقة المحاربين المصريين (machimoi) . ويستند هذا الرأى إلى أن پاوسانياس^(٣) يحدثنا ، في خلال الكلام عن دور أمير البحر البطلمي پاتروكلوس (Patroclus) في أثناء حرب خرمونيدس ، بأن پاتروكلوس طلب إلى الاسبرطييين مهاجمة انتيجونوس ورجاله المقدونيين على أن يقوم هو بالهجوم عليهم من الخلف ، وإلا فإنه لا يكون من الانصاف لرجال أسطوله المصريين منازلة المقدونيين في البر .

فلنناقش أولا الحجة التى يعزوها پاوسانياس إلى پاتروكلوس ويستند إليها لسكيبه ، وفيما يبدو أيضا غيره من المحدثين^(٤) . أمن المقول أن يكون البطالمة الأوائل — الذين لم يثقوا في كفاية المصريين الحربية ومقدرتهم على منازلة المقدونيين ، ومن ثم لم يعتمدوا عليهم في تكوين جيوشهم — قد اعتمدوا عليهم في تكوين قواتهم المحاربة البحرية مع العلم بأن أغلب ، إن لم يكن كل ، معارك الأسطول البطلمي كانت ضد إغريق ومقدونيين ؟ أليس ما عزام پاوسانياس إلى پاتروكلوس يدل دلالة قاطعة على عدم ثقة البطالمة وقوادهم في كفاية المصريين

(1) P. Petrie III, 43, l. 3.

(2) P. Grenfel. I, 9, l. 2; Lesquier, p. 257, fn. 4.

(3) Paus. III, Laconia, VI, 5.

(4) Bevan, p. 175; C. A. H. VII, p. 118.

الحرية ؟ ومعنى ذلك أن حجة پاتروكلوس غير مقبولة . وإذا صح أن جنود الأسطول كانوا فعلا من المصريين ، فلا بد من أن البطالة لم يقدموا على ذلك إلا بعد أن أثبت المصريون كفايتهم ومقدرتهم على منازلة المقدونيين وغيرهم واقتنع البطالة وقوادهم بذلك . وفي هذه الحالة أيضا تبطل حجة پاتروكلوس ، وإلا فانه يكون معنى كلامه أن البطالة وقوادهم ، بالرغم من عدم تقهم في كفاية المصريين الحرية ومقدرتهم على منازلة المقدونيين ، قد كونوا جنود أسطولهم من المصريين . وإذا جاز هذا ، وهو أمر غير مقبول في نظرنا ، فما كانت إذن فائدة مثل هذا الأسطول للبطالة الذين كانت قوات منافسيهم البحرية تتألف من المقدونيين والاعريق ؟ ولماذا إذن ذهب پاتروكلوس لنجدة أثينا مع علمه تمام العلم بأن الأعداء الذين سيجابههم كانوا من المقدونيين وبأن رجاله غير أكفاء لمنازلتهم ؟ وهكذا يتبين لنا شيطان : واحدهما أن حجة پاتروكلوس لم تكن إلا عذراً منتحلاً لتبرير سياسة سيده الذي لم يكن متحمساً للتعرض للمخاطر من أجل قضية لم يكن ينتظر من ورأها أى منفعة ؛ والآخر أنه لا يمكن الاستناد إلى هذه الحجة في القول بأن جنود أسطول البطالة ، وخاصة الأوائل منهم ، كانوا من المحاربين المصريين .

وإذا كان لا يمكن الجزم بأن المصريين قد اشتركوا فعلا وباستمرار في جيوش البطالة قبل موقعة رفع في عام ٢١٧ ق . م ، بل سيساعد على الاعتقاد بأن هذا الاشتراك لم يحدث أن مساحة اقطاعاتهم حتى هذا التاريخ لم تزد على خمس أرورات ثم زيدت هذه المساحة بعد ذلك . وإذا كنا نعرف أن بطليموس الرابع قياويناور لم يعتمد على المصريين في موقعة رفع إلا مضطراً حين كانت المخاطر تحف به ، ولم يكن في وسعه تجنب عدد كاف من المقدونيين والاعريق^(١) ، وكنا نعرف أيضاً أن أحداً من البطالة الأوائل لم تضطره الظروف إلى ذلك في

(١) ابراهيم نصحي س ١٦٥ و ١٦٦ .

تكوين القوات البحرية ، وكنا نعرف كذلك أنه حين أقدم بطليموس الرابع على الاعتماد على المصريين وصف القدماء عمله هذا بأنه « بدعة خطيرة » مما يقطع بأن أحداً من أسلافه لم يسبقه إلى ذلك ، فإننا نستبعد أن يكون البطالة الأوائل قد اعتمدوا على المصريين في تكوين جنود الأسطول . وفضلاً عن ذلك فإنه عندما كون فيلوطاتور قلب جيشه في موقعة رفح من المصريين — وبذلك أتاح لهم الفرصة لإثبات كفايتهم الحربية — وأحرزوا نصراً مبيناً في هذه الموقعة على القوات المقدونية والإغريقية ، أذكى هذا الفوز روح الوطنية الكامن في صدورهم وأعاد إليهم ثقتهم بأنفسهم فأصبحوا لا يتهيئون الثورة على طغاتهم . ويسلم المؤرخون منذ عهد بوليبيوس^(١) بأن ثورات المصريين على البطالة منذ عهد بطليموس الرابع ترجع إلى انتصارهم في موقعة رفح . ولا جدال في أن البطالة الثلاثة الأوائل كانوا أكثر صلفاً وتعنتاً في معاملة المصريين من البطالة الأواخر ، ولا جدال أيضاً في أن أسطول البطالة الثلاثة الأوائل قد قام بأعمال باهرة جداً ، فلو صح الزعم بأن جنود هذا الأسطول كانوا من المصريين لكان لهذه الانتصارات من الأثر في نفوس المصريين مثل ما كان لانتصار رفح . لكننا لا نجد دليلاً على تدمير المصريين من حالهم على عهد أولئك البطالة أكثر من الاحتجاج والإضراب عن العمل والفرار إلى المعابد للاحتباء بالآلهة^(٢) ، وذلك على عهد بطليموس الثاني ، ومن القيام بثورة واحدة غير خطيرة على عهد بطليموس الثالث . ولم تكن هذه الثورة نتيجة لانتصار بحري رائع وإنما فيما يبدو من جراء ما أصاب المصريين من إرهاب نتيجة للاستعدادات الكبيرة لفتوحات بطليموس الثالث في أواسط آسيا ، وكذلك نتيجة للمجاعة التي يذكرها قرار كانوب^(٣) .

وإزاء ما تقدم إذا كان من الجائز أن جانباً من المحاربين البحريين في أسطول البطالة الأوائل كانوا مصريين ، فإننا لا نستطيع التسليم بأن كل أولئك الجنود

(1) Polyb. V, 107, 1 — 3.

(2) Peremans, in Rev. Belge de Phil. et d'Hist., 1933, pp. 1005 ff; Chron. d'Ég., 1936, pp. 159 ff.

(3) إبراهيم نصحي ص ٧٦٨ و ٧٦٩ .

البحريين كانوا مصريين . والواقع أنه يأخذنا العجب حقاً إذا كان أولئك البطالمة ، الذين وضعوا جل اعتمادهم على المقدونيين والإغريق في تكوين قواتهم البحرية ، لم يمتدوا على الإغريق والمقدونيين إلى حد كبير في تكوين قواتهم البحرية أيضاً . أما منذ عهد فيلوطور ، أى منذ سمح للمحاربين المصريين بالاشتراك الفعلي في جيوش البطالمة ، فأننا لا نستبعد أنهم قد استخدموا أيضاً جنوداً في الأسطول . لكن إذا كانت لم تصبح لهم حتى في ذلك الوقت الغالبية بين رجال الجيش ، فن المقول أيضاً أنهم لم يصبحوا غالبية جنود البطالمة البحريين . ولذلك نعتقد أنه على عهد البطالمة ، الأوائل منهم والأواخر ، كان جل ، إن لم يكن كل ، جنود البطالمة البحريين من الإغريق ومن على شاكلتهم ، وأن كل جنود الأسطول النهري كانوا ، من المحاربين المصريين ، وأن كل مجد في الأسطول البحري — أى الأداة الدافعة في هذا الأسطول — كانوا من الزراع والعمال المصريين والمساجين . ويؤيد هذا الرأي أن ديودوروس يحدثنا بأنه عقب موقعة غزة في عام ٣١٢ وضع بطليموس الأول أسرى الحرب في الوحدات البحرية (nauarchiai)^(١) ، وأن وثيقة بردية^(٢) من عام ١٥٩ ق . م . ترينا بين محاربي الأسطول رجالاً من الجزر الإغريقية .

أما أجر جنود الأسطول فليست لدينا عنه أى معلومات ، فهل كانوا يعاملون معاملة جنود الجيش ، أى هل كانوا يمنحون اقطاعات مثلهم ومثل كثير من موظفي الدولة ؟ أم أنهم كانوا يعطون مرتبات كالأغريق من رجال الشرطة في القرن الثالث مثلاً ؟ لقد حدا بالبطالمة إلى اتباع نظام منح الإقطاعات ولا سيما لرجال الجيش دوافع عدة لعل أهمها أنه لم يكن من الحكمة ولا في الإمكان تسريح الجيش بعد كل حرب وإعادة تكوينه قبل الحرب التالية ، لأن أسواق الجنود المرتقة كانت في بلاد معادية للبطالمة . ومن ناحية أخرى

(1) Diod. XIX, 85, 4.

(2) Klio, XV, pp. 376. ff.

كان يسبب لهم متاعب حمة ويكلفهم نفقات كثيرة الاحتفاظ بجيش قائم من الجنود المرتزة يقضون معظم وقتهم عاطلين في الشكبات . وكان منح الجندي قطعة من الأرض يقوم على استغلالها يربطه بمصر فيتحذرها وطفالة وتنشأ بينه وبين الملك علاقات قوية دائمة ، وبذلك يستطيع الملك الاعتماد عليه دائماً في تكوين جيشه وتأييد ملكه ، وادخال وسائل اقتصادية جديدة في مصر ، وزيادة عدد الأيدي العاملة ، ونشر الحضارة الإغريقية في أنحاء البلاد^(١) . ولا شك في أن هذه الدوافع نفسها لم تغب عن البطالة عند تكوين الأسطول ، وكان طبيعياً أن تؤدي بهم إلى اتباع النظام نفسه مع رجاله . لكننا لم نجد في وثيقة بردية واحدة ما يدل على أن رجال الأسطول كانوا أيضاً من أرباب الاقطاعات ، مما يثير الشك في أن البطالة قد اتبعوا معهم أيضاً نظام الاقطاعات ، فهل يرجع صحت الوثائق إلى الصدفة وحدها أم إلى اختلاف النظام ؟ إن أغلب الاقطاعات التي منحها رجال الجيش كانت من الأراضي التي استصلحها البطالة في الفيوم ، ويرجح المؤرخون أن أعمال الاستصلاح لم تكن مقصورة على الفيوم ، بل امتدت إلى مناطق أخرى تشبه الفيوم^(٢) ، وخاصة في الدلتا ، حيث كانت تكثر الأراضي المنبسطة الواطئة التي تفرها المستنقعات وتغطيها الحشائش والأدغال^(٣) . فهل كانت المنطقة المخصصة لاقطاعات رجال الأسطول في الدلتا لقربها من الموانئ ، ولم تصل إلينا الوثائق البردية الخاصة بأرباب الاقطاعات من رجال الأسطول لأن طبيعة أرض الدلتا لم تساعد على الإبقاء على هذه الوثائق ولا على انتشار أعمال التنقيب هناك ؟ هذا محتمل ، ويؤيد هذا الاحتمال قلة معلوماتنا عن الأسطول

(1) Rostovzeff, A Large Estate, pp. 135—6; Soc. and Econ. Hist. pp. 284, 287; Préaux, pp. 265—6.

(2) Edgar, Zeno Pap. in Mich., p. 32.

(3) C. A. H. VII, p. 132.

بسبب ندرة ما وصل إلينا من الوثائق البردية عنه . وعلى كل حال إذا جاز
أن جنود الأسطول كانوا يمنحون إقطاعات ، فإنه من المعقول أن المجدفين
والبجارة كانوا يعاملون معاملة العمال ، أى يشتغلون لقاء أجر معين .
ونحن لا نعرف كذلك شيئاً عن عدد رجال الأسطول بنوعيتهم ولا عن تشكيلاتهم ،
ولكنه يفهم من عبارة ديودوروس التى سبقت الإشارة إليها أن سفن الأسطول
كانت تنقسم إلى وحدات ، كل منها تحت إمرة قائد بحرى . فقد ورد في هذه العبارة
أنه عقب غزوة عام ٣١٢ . وضع بطليموس أسرى الحرب في الوحدات البحرية
(nauarchiai)^(١) ، ونعرف من النقوش والمراجع القديمة أسماء عدد كبير
من قواد (nauarchoi) هذه الوحدات^(٢) . ولابد من أن عدد وحدات
الأسطول البطلمي كان يختلف تبعاً للعهود المختلفة ، بل تبعاً للظروف المختلفة
في عهد واحد . وبطبيعة الحال كانت لهذه الوحدات قواعد بحرية متعددة كانت
أهمها الأسكندرية ، وسلاميس بجزيرة قبرص ، وجزيرة ثيرا ، ومن المحتمل أيضاً
برقة^(٣) . ولما كان اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر قد حدا بهم منذ عهد أوليهم
إلى القيام بسلسلة من البحوث الكشفية لمعرفة الشواطئ والشعوب وموارد الثروة
أولاً في البحر الأحمر وفيما بعد في المحيط الهندي ، وإلى القيام بتأسيس عدد
كبير من الثغور والمستودعات على الشاطئ الأفريقي للبحر الأحمر من أقصى
الشمال إلى أقصى الجنوب ، وكنا نعرف أنه قد كان للبطالمة أسطول بحرى لتأمين
الملاحة في هذا البحر^(٤) ، فلا بد من أن هذا الأسطول قد اتخذ من بعض هذه
الثغور قواعد له .

(١) Diod. XIX, 85, 4.

(٢) راجع القائمة بأسماء هؤلاء القواد والقائمة بأسماء حكام قبرص في كتاب ليسكلييه
سالت الذكر من ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٥١ .

(٣) Lesquier, p. 258.

(٤) إبراهيم نصحي من ٣٩٨ — ٤٠٤ .

(م ٨ — البطالمة)

ولانعرف شيئاً كذلك عن مراتب ضباط الأسطول أكثر من أنه كان على رأس كل سفينة ضابط (trierarchos) — لا يبعد أنه كان له مساعد (hypotrierarchos) — وأنه كان على رأس كل وحدة بحرية قائد (nauarchos) ، يظهر أنه كان إلى جانب مهامه البحرية يتولى حكم تلك المنطقة من ممتلكات مصر الخارجية ، التي كانت توجد فيها قاعدة وحدته ، وكذلك قيادة الجنود البريين في تلك المنطقة ، على نحو ما كان حال حاكم جزيرة قبرص البطلمي . لكننا لا نجد الجمع بين هذه المهام المختلفة ، باستثناء قبرص ، إلا في القرن الثاني قبل الميلاد أى في الفترة التي أخذ فيها نفوذ مصر الخارجى يتقلص أمام نفوذ روما في شرق البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أنه كان يساعد قواد الوحدات ضباط لانعرف مرتبتهم مثل زينون مساعد القائد البحرى باكنخون (Bacchon)^(١) .

وقد كان الملك البطلمي القائد الأعلى لقواته البرية والبحرية ، شأنه في ذلك شأن الفراعنة وفيليب المقدونى والإسكندر الأكبر من قبل . وكان بعض البطالمة يتولون فعلاً قيادة قواتهم البرية ، لكنهم كانوا عادة ينيبون عنهم أحد قواد الجيش ليتولى القيادة العامة دون منحه لقباً يميزه عن غيره من القواد ودون أن يكون لعمله صفة الدوام^(٢) . ويبدو أن الحال كان مماثلاً لذلك فيما يخص الأسطول ، أى أن الملك كان يعهد في تولى القيادة العامة إلى أحد قواد الوحدات البحرية . فقد أسلفنا أن الأسطول كان يتألف من عدة وحدات (nauarchiai) ، وأنه كان على رأس كل وحدة قائد (nauarchos) ، ونعرف وأن كلا من تيموستينيس وياتروكلوس كان أميراً للبحر ، وأنه لم يكن لأحدهما لقب آخر هذا لقب (nauarchos) .

(1) Lesquier, p. 259.

(2) Lesquier, pp. 67 — 9.

البحر الأحمر في عهد البطلمة

البحر الأحمر فريد في موقعه ، فإن هذا الطريق المائي الذي شاءت الطبيعة أن يكون حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية ، يقع عند التقاء ثلاث قارات من العالم القديم ، فهو يمتد من البحار الجنوبية صوب البحار الشمالية حيث ينتهى بخليجين ، يتجه أحدهما نحو مصر والآخر نحو فلسطين ، كما لو كان الله — جات قدرته — قد أراد أن يترك الخيار للإنسان بعد أن أوحى إليه بالفكرة ليشق لنفسه السبيل .

وقد كانت الملاحة في هذا البحر شاقة عسيرة على سفن العصور القديمة ، فخلال شهور طويلة تسود فيه درجة حرارة مرتفعة ، وتهب عليه رياح عاصفة تموق السير إلى الشمال . هذا إلى أنه على كثرة ما في هذا البحر من الجزيرات والأعشاب المرجانية ، قلما يجد الملاح فيه مأوى أميناً يلجأ إليه ، فشمالاً عدن لا توجد موانئ جديرة بالاسم . وقد ترتب على ذلك أنه لم يكن من المتيسر دائماً أن تستمر السفن في شق عباب هذا البحر حتى نهايته ، بل كثيراً ما كانت تضطر إلى الالتجاء إلى الشاطئ الشرقى أو الغربى في مكان ما ، حيث تفرغ حمولتها وتستكمل البضائع رحلتها بالطريق البرى . ولم تكن اليابسة أكثر رقفاً بالتجار من البحر ، فقد كانوا يواجهون في الشرق مشاق الصحراء العربية ، وفي الغرب متاعب جبال الحبشة ثم النوبة .

وبرغم تلك الصعوبات البحرية ، كان طريق البحر الأحمر دائماً قبلة أنظار التجار في العالم القديم . فمنذ أتجه الإنسان إلى الملاحة كانت تجارة الصين والهند وبلاد العرب ملتبقة أطماع المستغلين بالتجارة . وقد كان هذا شأنها في غابر الأزمنة ، ولا يزال هذا شأنها اليوم ، وسيبقى ذلك شأنها ما بقيت قوانين الحضارة معتمدة

على قوانين الطبيعة ، وما بقيت الهيئة الاجتماعية خاضعة لظروف البيئة التي تعيش فيها . ومنذ شقت قناة السويس وكشف عن البترول في منطقة الشرق الأوسط ازدادت قيمة طريق البحر الأحمر زيادة كبيرة .

وقد كانت من أولى المشكلات التاريخية مشكلة الطرق ، وخاصة الطريق الرئيسى بين الشرق والغرب . فالأمس ، كالسيوم ، كانت توجد طرق ثلاثة مباشرة جميعها مفتوحة في بدايتها ، وجميعها مغلقة في نهايتها ، وجميعها تتنازع المصادرة أمام عيون أقطاب التجارة . أما هذه الطرق فهي طريق البحر الأحمر بنهايتيه نحو مصر ونحو فلسطين ، وطريق الخليج الفارسى الذى ينتهى برحلة شاقة من بلاد ما بين النهرين نحو دمشق أو صور .

ونستخلص من استعراض حوادث الماضى أن الفراعنة وغزاة مصر من الآشوريين والفرس والإغريق والرومان وجدوا حل هذه المشكلة في مصالحهم باستيلائهم على فلسطين وسوريا ومصر . وفي العصور الحديثة نجد أن سانت لويس ونابليون ، عند ما جذبتهما هذه الأقاليم ، اعتبروا دائماً مصر وفلسطين بمثابة عينين تتجهان نحو الهندو داخل آسيا . وقد راودت الكثيرين في الأجيال الماضية فكرة ربط البحر الأحمر والبحر المتوسط بقناة تيسر نقل التجارة والاتصال بين الشرق والغرب ، لكن حال دون تنفيذ هذه الفكرة صعاب كثيرة إلى أن أفصح فردناند دلسبس في تذليل هذه الصعاب ، فشقت قناة السويس وفتحت للملاحة رسمياً في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ .

ولا جدال في أن مشكلة السيطرة على طرق الشرق هي التي حدثت ببريطانيا تبادى ذى بدء إلى احتلال مصر وفلسطين وشرق الأردن والعراق وعدن . ولا جدال أيضاً في أن هذه المشكلة ذاتها هي التي دفعت في الماضى القريب — في عشية الحرب الأولى — بريطانيا وألمانيا إلى نضال عنيف من أجل سكة حديد بغداد .

وعندما كشف عن حقول البترول في الشرق الأوسط ازدادت بريطانيا تشبثاً بمركزها في هذه المنطقة .

ولا جدال كذلك في أن البترول ومشكلة السيطرة على الطرق كانا في مقدمة العوامل التي جعلت فرنسا ، حليفة بريطانيا ، تحتل سوريا ولبنان . ومع ذلك فإن انبعاث الروح القومية في هذه المنطقة اضطر فرنسا ثم بريطانيا إلى الجلاء عنها كارهتين . واليوم تقرب الدول الكبرى أحداث الشرق الأوسط باهتمام شديد ، وبينما يداعب بعضها الأمل في استعادة مكائنها القديمة يحاول البعض الآخر التسلل إلى هذه المنطقة بحجة أو بأخرى .

والواقع أن جل المطامع الكبرى تلتقي في البحر الأحمر ، في هذا الممر الضيق الذي كانت السيطرة عليه بالأمس ، كما هي اليوم ، وكما ستكون في الغد ، من الأركان الأساسية في الحوادث العالمية . وإذا كان لا يزال هناك من يعوزه الدليل على أهمية طريق البحر الأحمر فحسبه ا كفه راد وجه العالم حتى بات قاب قوسين أو أدنى من حرب عالمية رهيبة حين استكملت مصر سيادتها على أراضيها بتأميم قناة السويس ، وحسبه كذلك اضطراب الحياة في غرب أوروبا اضطراباً شديداً حين أدى الاعتداء على القناة إلى تعطيل حركة المرور فيها بضعة أشهر بسبب اعتماد تلك الحياة إلى مدى بعيد على ما يمر بالقناة من سلع ولا سيما البترول .

ويمكننا أن نلمس اهتمام الفراعنة بالتجارة الشرقية في البعثات البحرية المتكررة ، التي كانوا يوفدونها منذ أيام الأسرة الخامسة ، أي منذ حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م . ، إلى بلاد بنت ، وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه على ساحل الصومال وعلى الجزء الجنوبي الغربي من بلاد العرب . وقد كانت التجارة الإفريقية أقل في الأهمية من تجارة الجزء الجنوبي الغربي من بلاد العرب ، فإن هذا الإقليم الأخير كان مركزاً هاماً للتجارة البرية والبحرية ، ليس بسبب غنى منتجاته

فحسب بل لأن أهله كانوا كالفينيقيين يشتهرون بميل غريزي إلى التجارة ، ويحتسرون نقل منتجات بلاد العرب والهند والصين صوب الشمال : إما إلى الثغور العربية في البحر الأحمر فالبتراء وعزة والمدن السورية ، أو إلى الثغور المصرية على شاطئ ذلك البحر . فقد كان الأعراب لا يسمحون لسفينة أجنبية باجتياز بوغاز باب المندب ، ولذلك كان يتعين أن تفرغ في جزيرة سقطرى أو ثغر أدانا (عدن الحديثة) كافة السلع التجارية القادمة نحو البوغاز . وتدل القرائن على أن تجارة مصر مع بلاد العرب لم تكن مقصورة على منتجات تلك البلاد فقط ، وإنما كانت تشمل أيضاً ما يصل إليها من منتجات الشرق الأوسط والأقصى . ولعل اهتمام الفراعنة بتجارة الشرق كان أحد الدوافع التي حملتهم على فتح سوريا ، لكي لا يكون الطريقان الآخريان في حوزة قوة أخرى تستطيع أن تجعل من كليهما أو من أحدهما منافساً خطيراً للطريق المسار بمصر .

وفي عهد الفراعنة كان المصريون يسلكون ثلاثة طرق للذهاب إلى بلاد بنت ، اذ كانوا يتبعون من فقط طريق القوافل الذي يمر شمال محاجر الحامات وينتهي عند شاطئ البحر الأحمر بميناء صغير يدعى دواو (Douaou) على بعد بضعة أميال شمال الثغر البطلمي ليوكوس لين (Leukos Limen) ، والميناء الحديث القصير . وكان الركب يصل من الوادي إلى هذا الميناء بعد مسير خمسة أيام عبر الصحراء الشرقية . ولتشجيع حركة الانتقال بالطريق الصحراوي بين النيل والبحر الأحمر اهتم الفراعنة بحفر الآبار وإقامة الحاميات على جانبيه .

أما الطريق الثاني فكان القناة التي تربط فرع النيل الشرقي بالبحر الأحمر مارة بوادي الطميلات ، تلك القناة التي يهزو الإغريق حفرها إلى سينوستريس ، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ويقال إن حفرها أعيد في عهد رمسيس الثاني . ثم نحاو الثاني وكذلك دارا الأول وأجزركسيس . أما الطريق الثالث فهو طريق أعلى النيل ، ولعله كان أقدم هذه الطرق لأن ملوك الأسرة الأولى كانوا يتبعون

بمنتجات بلاد بنت ولم يعرف عنهم أنهم أخذوا إلى البحر . ولذلك يرجح أن تجارة تلك البلاد كانت تفد عن هذا الطريق ، ولا سيما أنه معروف أن العلاقات التجارية بين شاطئ البحر الأحمر الشرقي والغربي بدأت منذ أقدم العصور . وربما كان اهتمام الفراعنة بهذه التجارة هو أحد الأسباب التي دفعتهم إلى فتح بلاد النوبة وتأمين طرق أعالي النيل .

وقد ترتب على اهتمام الفراعنة بتجارة مصر الشرقية رواج تلك التجارة التي نعرف أنها ازدهرت حيناً وتدهورت حيناً آخر بل إنها كادت تتلاشى في أواخر أيامهم بسبب ما انتاب البلاد من الغزوات والثورات . لكن عندما فتحها الاسكندر الأكبر وآل ملوكها إلى البطالة الذين وضعوا نصب أعينهم أن يشيدوا فيها صرح دولة مستقلة قوية وغنية ، رأى البطالة أنه يتعين عليهم أن يعملوا على تفكيك عرى الامبراطورية المقدونية ليفوزوا باستقلالهم السياسي ، وأن يضموا ملحقات مصر الطبيعية ، ويسيطروا على الطرق التجارية ، لينضموا سلامة استقلالهم السياسي والاقتصادي . وكان طبيعياً ألا يوجه البطالة عنايتهم إلى طرق التجارة في بحر إيجيه فتحسب ، بل أيضاً إلى طرق التجارة الوافدة من أفريقيا وبلاد العرب والهند ، وإلى جعل مصر الطريق الرئيسي لمزور تلك التجارة صوب الأسواق الغربية . وقد ترتب على ذلك أن صادرات مصر إلى الممالك الشمالية لم تقتصر على منتجات البلاد فقط ، بل شملت أيضاً منتجات الصين والهند وبلاد العرب وأواسط أفريقيا ، وكانت مصر تصدر أغلبها بعد صناعته ومثل ذلك العطور والحلي والماج . وكانت مصر تصدر إلى البلاد الجنوبية والشرقية منسوجاتها وزيتها وبضائعها المعدنية والزجاجية ، وكذلك منتجات البلاد الشمالية مثل المادن والأصباغ والنبذ .

ومما يجدر بالملاحظة أنه رغم ما أظهره البطالة من الاهتمام بطريق البحر الأحمر فإنهم في خلال القرن الثالث كانوا أكثر اهتماماً بمنافذ هذا الطريق وغيره من طرق التجارة

الشرقية . وآية ذلك أنهم كانوا يوجهون جل عنايتهم في خلال ذلك القرن إلى الاستيلاء على الاحتفاظ بشرق الأردن وفلسطين وفينيقيا وشواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وتراقيا ، لكنهم عندما فقدوا ممتلكاتهم في تلك الأقاليم وطردوا منها في أثناء الربع الأول من القرن الثاني وجهوا كل اهتمامهم ولاسيما في النصف الثاني من ذلك القرن إلى البحر الأحمر ، فنشطت تجارة مصر مع الجنوب والشرق نشاطاً كبيراً ساعدت عليه عدة عوامل ، كان من أهمها : أولاً ، انهيار مملكة سبأ في عام ١١٥ ق . م . فلم يمد في وسع الأعراب إغلاق بوزاباب المندب في وجه السفن الأجنبية . وثانياً ، كشف طرق الإفادة من الرياح الموسمية حوالى عام ١٠٠ ق . م . وقد كان لهذا الكشف أهمية خاصة لأنه مكن السفن من الإبحار إلى الهند مباشرة دون اضطرارها إلى المساحلة ، وبذلك اختصرت جانباً كبيراً من الرحلة . وفي عصر بطليموس الثامن أيوارجتيس الثاني وصل إلى الهند أحد أبناء كيزيكوس النازلين بمصر يقوده أحد الملاحين الهنود .

ولا أدل على اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر من أنهم أوفدوا سلسلة من البعثات الكشفية لمعرفة الشواطئ والشعوب وموارد الثروة في البحر الأحمر وفي منطقة المحيط الهندي . وقد بدأ بطليموس الأول حركة الكشف في البحر الأحمر ، إذ أن فيلون قائد أسطول له كشف جزيرة الزمرد . واقتفى بطليموس الثانى خطوات أبيه فأرسل حوالى عام ٢٨٠ أريستون للتعرف على شواطئ بلاد العرب من شبه جزيرة سيناء حتى بوزاباب المندب ، فزار شاطئ سيناء حتى أيلة النبطية عند رأس خليج أيلة (خليج العقبة) ، ثم اتجه جنوباً ولا حظ أن النبط لم يتسموا بعد جنوباً إلى ما وراء نهاية الشاطئ الشرقى لخليج أيلة ، وأنه لم يوجد جنوبى النبط لإقبال صغير . وقد كان أريستون أول إغريق عرف شيئاً عن القبيلة الكبيرة ثمود ، وكانت تقطن جزءاً من الحجاز ، ووجد جنوبى ثمود على ضفاف نهر دباى (Dehai) إقليماً أطلق عليه أرض الذهب ، وزار مملكة معين في جنوب بلاد

العرب . ولا بد من أنه قد زار أيضاً مملكتي سبأ وكاثابانيا إذ يذكرهما ، بين ممالك بلاد العرب الجنوبية ، أرانوسثينيس ، الذي اعتمد فيما كتبه على تقرير أريستون . ولم يذكر هذا الرحالة شيئاً شرق حضرموت ، لأن مهمته انتهت بوصوله إلى مضيق باب المندب .

ومن المحتمل أنه عقب رحلة أريستون أرسل بطليموس الثانى حملة ضد النبط ، الذين اشتهروا فى عهد البطالمة بأعمال السطو والقرصنة ، اذ لا يبعد أنه كانت توجد منذ القدم علاقات تجارية بين أيلة وهرؤنوبوليس (Heroonopolis) — عند الطرف الشمالى للبحيرات المرة — زادت نشاطاً زيارة أريستون إلى أيلة ، فنشط أيضاً قراصنة النبط فى الاعتداء على المراكب . ولما كان ينبغى على فيلادلفوس حماية تجارهم فمن المحتمل أنه غزا النبط لمعاقتهم على سوء أعمالهم . ومن المحتمل أيضاً أنه استولى إذ ذاك على الشاطئ الشرقى للبحر الميت الذى كان فى قبضة النبط .

وإذ كان هناك خلاف فى رأى حول إرسال بطليموس الثانى حملة ضد النبط للحد من قرصنتهم ، فإن الكل يتفق على أن رحلة أريستون كانت تمهيداً لتقوية علاقات مصر التجارية مع شمال بلاد العرب ، إذ أن الماهل الاقتصادى كان فى أغلب الأحيان أهم الدوافع وراء ما قام به هذا الماهل . وإذا كانت أشور وبابل وفارس قد حاولت فى أيام عزها الاستيلاء على « طريق البخور » ، فقد كان طبيعياً أن يحاول هذا الملك العظيم أيضاً الاستيلاء على هذا الطريق جنوبى النبط ليحول جانباً من التجارة الشرقية إلى مصر فيجنى من وراء ذلك فائدة كبيرة . وفى الوقت نفسه يلحق بأعدائه النبط أضراراً فادحة . ولذلك فإنه عقب رحلة أريستون أنفذ حملة إلى بلاد العرب تمخضت عن تنشيط العلاقات التجارية مع شعب ينزل فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية على حافة « طريق البخور » ، عند المدينة التى تعرف الآن باسم « العلا » وكانت تعرف باسم مصران وذكربت فى الإنجيل باسم « ددان » ، وكانت مستعمرة لمعين أو فرعا من تلك المملكة .

وكانت تجارة هذه المدينة تنقل بالبر والبحر ولذلك لابد من أنه كانت لها ميناء يظن أنها كانت إرجا (Erga) . وكانت هذه الميناء تقع تقريباً في مواجهة مدخل وادى حمد .

ويبدو محتملاً أنه قد ترتب على تنشيط العلاقات التجارية القديمة بين مصر والعلا أن بطليموس الثانى شجع ميليتوس على إنشاء مستعمرة لها على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر في مواجهة « المدينة » . ومن هذا الثغر ، الذى عرف باسم امپلوني (Amplone) ، كانت تجارة الهند وبلاد العرب الجنوبية تنقل إلى مصر . وعندما خربت امپلوني أنشئ مكانها أو بالقرب منها ميناء يدعى ليوكى كوى (Leuke Kome) ، وجنوبها كان القدماء يعرفون ثغرين آخرين وهما نجراؤكوس (Negra Vecus) وموزا (Muza) . وتحدثنا نقوش الكاهن المصرى زيدل (Zidl) بأنه فى العام الثانى والعشرين من حكم فيلادلفوس استبدل بالبوسنوس المصرى بضائع شرقية مع تجار معينيين دون وسيط . ومما يجدر بالملاحظة أن المستكشفين القدماء قد وصلوا فى عصر بطليموس الرابع إلى أقصى نقطة وصل إليها الملاحون فى العصور القديمة وهى رأس نوتوس (Notos = غاردافوى Gardafui) .

ونجد دليلاً آخرًا على اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر فى المدن والمستودعات التى أسسوها على الشاطئ الأفريقى لهذا البحر ، فقد أسسوا هرؤنوبوليس ، عند الطرف الشمالى للبحيرات المرة ، وارسينوى ، على خليج هرؤنوبوليس ، وميوس هورموس (Myos Hormos) ، عند رأس ابى شعر ، وفيلوتيرا (Philotera) عند سفاجة ، وليوكوس ليمن (Leukos Limen) ، عند القصير ، وبرينيكى (Berenike) ، فى مواجهة أسوان تقريباً ، وعدداً من المراكز لصيد الفيلة فى بلاد النوبة والسودان مثل بطوليميس الصيد وسوتيراس ليمن (Soteiras Limen) وبتوليميس ثيرون (Theron) وغيرها . ولا يجب أن يأخذنا العجب من

كثرة مراكز الصيد في هذه الاصقاع الجنوبية ، فقد كانت هذه المراكز مقصد ما يوفده البطالمة من حملات لاصطياد أنواع الحيوان النادرة وخاصة الفيلة الإفريقية التي كانوا يستخدمونها في حروبهم إلى أن ثبت لهم في موقعة رفح (عام ٢١٧ ق.م.) أن الفيلة الإفريقية كانت أقل استعداداً للحرب من الفيلة الهندية في جيوش خصومهم ، فقل اهتمامهم بهذه العدة تدريجياً إلى أن تلاشت من جيوشهم . وقد أسس البطالمة أيضاً ثغراً يدعى ادوليس (Adulis) جنوبي مصوع للاتجار مع مملكة أكسوم ، كما أسسوا ثغراً يدعى ارسينوى بجوار بوغاز باب المندب .

وكذلك يتمثل اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر في عنايتهم بالطرق التي تربط وادي النيل بالبحر الأحمر ، فقد أعاد بطلميوس الثاني حفر تلك القناة القديمة التي كانت تبدأ بالقرب من بوباسطس ثم تخترق وادي الطميلات مارة ببيتوم (Pithom) وهرؤنوبوليس ثم تنحني صوب الجنوب وتلتقي بالبحر الأحمر عند الميناء البطلمي الذي كان يدعى أولا ارسينوى ثم عرف فيما بعد باسم كليوباتريس — ارسينوى ثم القازم ثم السويس . واهتم البطالمة أيضاً بالطريق البري الذي كان يبدأ عند قفط وينتهي عند ليوكس لين ، وفتحوا طريقاً آخر بين قفط وخليج أموندى (Immonde) حيث أنشأوا ثغر برنيكي في مواجهة أسوان تقريباً . وكان يوجد طريقان آخران يمر أحدهما بمحاجر السيماقى وينتهي عند ميوس هورموس ، ويمر الآخر بطريق الجرانيت الرمادى وينتهي عند فيلوتيرا . وقد كان يشجع القوافل على استخدام هذه الطرق أنه على جوانبها أقيم عدد من الحاميات وحفر عدد من الآبار ، لكن يبين أن هذه الآبار لم تكن كافية إلى حد يغنى القوافل تماماً عن حمل الماء معها . ولا شك في أن كثرة استخدام هذه الطرق الصحراوية — فقد كان أغلب التجارة في عصر البطالمة والرومان يمر بهذه الطرق وأقلها بالقناة التي تربط النيل بالبحر الأحمر — ساعد على الاهتمام بتربية الجمال التي أدخلت في مصر في العصر الصاوى .

بعض المراجع

Breasted, History of Ancient Egypt.

Cary and Warmington, The Ancient Explorers, London, 1929.

Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge. 1926.

Hanotaux, G. , Histoire de la nation Egyptienne, III.

Jones, A. H.M. , The Cities of the Eastern Roman Provinces.

» , Ancient Economic History.

Kammerer, A. , La mer rouge.

Preaux , L'economie royale des Lagides, Bruxelles, 1939.

Rostovtzeff, M. , Caravan Cities.

» , Social & Economic History of the Hellenistic
» , World, Oxford, 1941.

Tarn, W. , Hellenistic Civilisation, London, (3 rd ed.)

العلاقات بين مصر والدول العربية

في العصر الهيلينستي

عند وفاة الإسكندر الأكبر في شهر يونية عام ٣٢٣ ق . م . كانت الإمبراطورية المقدونية تشمل مقدونيا وبلاد الإغريق ومصر وأغلب آسيا من بحر إيجه حتى البنجاب جنوبي القوقاز وبحر قزوين ، فيما عدا شمال آسيا الصغرى وأرمينيا والجزيرة العربية^(١) . ومن ثم كانت أغلب الدول العربية التي نعرفها اليوم ، وهي العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ومصر ، تكون جزءاً من هذه الإمبراطورية . وعندما اجتمع قواد الإسكندر في بابل ، غداة وفاته ، لبحثوا مشكلة حكم الإمبراطورية المقدونية تقسمت أقاليمها بين عدة منهم ليحكموها باعتبارهم ولاية من قبل الأسرة المالكة المقدونية . ولم تلبث الدول العربية سائلة الذكر أن آلت إلى اثنين من هؤلاء القواد وهما بطلميوس والي مصر وسايوكوس (Seleucus) والي بابل . وبحكم الجوار وتشابه الأهداف تارة وتعارضها أطواراً ، كانت العلاقات السياسية بين أسرتي هذين الماهلين ودية أحياناً وعدائية أحياناً أخرى . وقد كان لهذه العلاقات الطويلة الأمد أبلغ الأثر في السياسة الدولية بوجه عام وفي مصير مصر بوجه خاص .

ولم يكدهمضى على وفاة الإسكندر عامان حتى بدأ بين خلفائه صراع عنيف دام أربعين عاماً . وكان السبب الرئيسى لهذا الصراع تصادم الأطماع بين القواد الذين كانوا يهدفون إلى لم شمت الإمبراطورية وتوحيدها وبين حكام الولايات الذين كانوا يتطلعون إلى استقلال كل منهم بولايتهم . وقد تمخضت الحلقة الأولى في هذا الصراع عن مقتل پرديكاس (Perdikkas) الوصى العام على

(1) Tarr, Hellenistic Civilisation, 1930, p. 6.

الإمبراطورية حين أراد أن يفرض سلطانه على الولاة الباقين ، وعن اجتماع القواد في تريپاراديسوس (Triparadisos) في عام ٣٢١ ق . م . لإعادة تقسيم ولايات الإمبراطورية من جديد . وكان من أهم قرارات هذا الاجتماع تعيين القائد العجوز انتيپاتروس (Antipatros) وصياً عاماً على الإمبراطورية وتميين سليوكوس والياً على بابل ، واحتفاظاً أنتيجونوس (Antigonos) بولايته ، وكانت تشمل الجانب الأكبر من آسيا الصغرى مع تعيينه قائداً عاماً للجيش المقدوني في آسيا^(١) .

ولما كان بطلميوس قد لعب الدور الرئيسي في القضاء على برديكاس ، فإنه كان أكثر القواد نفوذاً يوم اجتماع تريپاراديسوس . ولو قدر له أن يقرأ صفحة المستقبل لوسمه أن يحول دون منح بابل لسليوكوس ، غير أنه ليس في وسع أفطن الساسة وأبعدهم نظراً وأصدقهم حساً أن يتنبأوا دائماً بمجرى الحوادث ويتحكموا في تسكييفها . ولو شاء بطلميوس لآلت إليه الوصاية على الإمبراطورية ، لكنه رفض هذا المنصب المخوف بالمخاطر عندما عرض عليه مفضلاً الاكتفاء بولايته والعمل على الاستقلال بها وتشجيع مملكة قوية غنية فيها ، يحمل صولجانها أحفاده على تعاقب الأجيال . وقد أثبتت الأيام بعد نظره ، فقد عمراً أكثر من أى وصى على الإمبراطورية وعمرت دولة البطالمة أكثر من أى دولة هيلينستينية أخرى . ومن أجل الفوز باستقلال مصر عقد بطلميوس العزم على مناهضة كل من يحاول توحيد الإمبراطورية المقدونية . وقد مر بنا أنه لعب الدور الأول في القضاء على برديكاس ، الذى كان أكبر نصير لوحدة الإمبراطورية . وقد كان جزءاً من برنامج بطلميوس للمحافظة على استقلال مصر ضم الملحقات الطبيعية إليها ، وهى برقة لحماية حدود مصر الغربية وجوف سوريا (أى جنوب سوريا وفينيقيا وفلسطين) وقبرص لحماية

(1) Jouguet, *Macedonian Imperialism*, pp. 130 — 3; Rostovtzeff, *Soc. and Econ. Hist. Hell World*, p. 6.

حدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والأخشاب التي يفتقر إليها وادي النيل . ولذلك فإنه ما كاد يصل إلى مصر حتى استولى على برقة ، وأخذ يعمل على عقد أواصر الصداقة مع الجزر الكبرى في البحر الأبيض المتوسط ولا سيما مع قبرص ، ثم انتهز فرصة ضعف السلطة المركزية بعد وفاة أنتيباروس واستولى عنوة في عام ٣١٩ — ٣١٨ من لاومدون (Laomedon) والى سوريا على جوف سوريا^(١) (Coele-Syria) .

ولم يلبث أنتيجونوس أن اعتلى خشبة المسرح السياسي ليمثل الدور الذي قام به رديكاس من قبل . ولما كان كل من بطلميوس وسليوكوس يريد الاستقلال بولايته فقد تلاقت أهدافهما السياسية في مكافحة أطماع أنتيجونوس . وحيث أن بطلميوس كان أقوى دعاة الانفصالية ، فإنه عندما استهدف سليوكوس للمخاطر من ناحية أنتيجونوس فر إلى مصر في صيف عام ٣١٦ ، فأحسن وفادته بطلميوس الذي دخل في مفاوضات مع كاسانديروس (Cassandros) — حاكم مقدونيا وبلاط الإغريق — وليسيماخوس (Lysimachos) — حاكم تراقيا — انتهت بعقد تحالف بينهم جميعاً في عام ٣١٥ للمحافظة على مركز كل منهم في ولايته ووضع حد لأطماع أنتيجونوس^(٢) ، ومن ثم لم يكن هناك مفر من اصطدام الفريقين . وعند ما أحرز بطلميوس نصراً ميئناً على ديمتريوس بن أنتيجونوس في موقعة غزة عام ٣١٢ استطاع سليوكوس أن يعود إلى ولايته ويستردّها بسهولة في أكتوبر من نفس ذلك العام ، وأن يبدأ العمل بجد في بناء دولة قوية له تضم كل الولايات الواقعة شرقي بابل . وهكذا أسدى بطلميوس لسليوكوس خدمتين جليلتين ، فقد آواه في محنته ثم مهد له سبيل استعادة ولايته بل تكوين إمبراطورية شرقية ضخمة ، لكنه كان في ضمير الدهر أن الصداقة لن تدوم طويلاً بين سليوكوس

(١) Bouché -- Leclercq, His. Lagides, I, pp. 16 — 17.

(٢) إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ص ٤٠ .

وبطلميوس . وبيان ذلك أنه في عام ٣٠٢ جدد الحلفاء محالفة عام ٣١٥ ، إلا أنها لم ترم هذه المرة إلى كبح جماح أطماع أنتيجونوس فحسب بل إلى القضاء عليه^(١) . ولم يلبث أن قضى على أنتيجونوس في العام التالي ، لكن لما كان بطلميوس لم يقم نحو حلفائه بخدمة يستحق عليها نصيباً من الأسلاب فقد تقرر ألا يمنح جوف سوريا الذي كان قد وعد به عند ما جددت المحالفة لكنه فقد في خلال الصراع مع العدو المشترك ، بينما اقتسم الأسلاب ليسياخوس وسليوكوس ، اللذان اضطلعوا بالمعب الأكبر في الحرب ، ففاز أولهما بكل آسيا الصغرى تقريباً ، وثانيهما بكل سوريا التي جعلها المركز الحقيقي للإمبراطورية ، فقد أسس فيها أنطاكية التي غدت عاصمة لهذه الإمبراطورية .

وإذا كان خلفاء بطلميوس قد أبوا عليه جوف سوريا ، فإنه كان قد انتهر فرصة اشتباك الحلفاء مع أنتيجونوس وأعاد احتلال ذلك الإقليم ورفض بعد ذلك النزول عنه . وكان هذا ينطوي على خطر الاشتباك مع سليوكوس الذي احتج فعلا على موقف بطلميوس لكنه لم يستطع أن ينسى صنيع بطلميوس ، ولذلك أكتفى عندئذ بالمطالبة بحقوقه وتأجيل الصراع مؤقتاً من أجل جنوب سوريا . وهكذا نشأت المشكلة السورية التي أفضت فيما بعد إلى تمكيد صفو تاريخ أسرتي بطلميوس وسليوكوس^(٢) .

وإذا كان الخلاف قد نشب على هذا النحو بين أسرتي بطلميوس وسليوكوس ، فقد كان مقدراً ألا تبدأ الحلقة الأولى من الصراع المسلح بينهما إلا في عهد خليفتهما بطلميوس الثاني وأنطيوخوس الأول . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أنه بموت سليوكوس ، آخراً أفراد الجيل الأول من خلفاء الإسكندر ، في عام ٢٨٠ وظهر الجيل الثاني من أولئك الحلفاء ، استقرت فكرة قيام دول

(١) إبراهيم نصحي ص ٤٧ .

(2) Bouché — Leclercq, I, pp. 83 — 6; Bevan, Hist. Eg. Under The Ptol. Dynasty, pp. 34 — 5; C. A. H. VII, pp. 76 — 7.

(م ٩ — البطالة)

هيلينستية مختلفة أعلى نقاض الإمبراطورية المقدونية ، ووجد نوع من توارن القوى في العالم الهيلينستى الذى أصبح يقتسم النفوذ فيه ثلاث ممالك عظيمة . وقد كانت مصر عندئذ أقوى هذه الدول ، وكانت تسيطر على برقة وجوف سوريا وعصبة جزر بحر إيجه ، وتملك أكبر قوة بحرية في العالم الهيلينستى . وكانت تليها دولة السلوقيين ، وكانت تشمل ولايات إمبراطورية الإسكندر في بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانباً كبيراً من آسيا الصغرى والشام فيما عدا إقليم جوف سوريا . أما الدولة الثالثة فكانت مقدونيا^(١) ، وكانت تسيطر على بلاد الإغريق .

وقد كانت لكل من هذه الدول حاجتها ومراميها وكذلك خطتها ووسائلها لتحقيق ذلك . وعلى الرغم من أن مصر خرجت من الصراع العنيف بين خلفاء الإسكندر أقوى وأغنى دولة هيلينستية ، فإن البطالة الأوائل (الأول والثاني والثالث) ، وكانوا أقوى أفراد الأسرة ، لم يفكروا في إعادة تكوين إمبراطورية الإسكندر ، إذ كان هدفهم الأسامى الدفاع عن استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول في حلبة السياسة وفي مضمار الاقتصاد في العالم الهيلينستى .

وقد كانت أفضل وسيلة لتحقيق ذلك إحراز السيطرة على بحر إيجه . وكانت السيطرة على عصبة جزر الكيكلاد (Cyclades) ، التى فاز بها أولا بطليموس الأول ثم وطد دعائمها بطليموس الثانى ، لا تكسب مصر إلا سيطرة جزئية سياسية واقتصادية على بحر إيجه . ولاستكمال هذه السيطرة حاول بطليموس الثانى الاستيلاء على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وبسط نفوذه على المراكز التجارية الهامة على ضفاف الدردنيل وبحر مرمرة وشاطئ البحر الأسود الجنوبى . ومن ناحية أخرى كانت سلامة هذه الإمبراطورية الإيجية تتطلب الاستيلاء على الموانئ الكبيرة على شواطئ فينيقيا وفلسطين . وهذا يفسر إلى حد

(1) Rostovtzeff, p. 27.

شدة عناية البطالة وخاصة الأوائل منهم بالاستيلاء على جوف سوريا . وقد حدثت الرغبة في السيطرة على بحر إيجه بالبطالة الأوائل إلى أن يحاولوا تقوية نفوذهم في أهم الموانئ الإغريقية ، لينعموا بحكام مقدونيا من أن يصبحوا أقوياء في البحر . ولم يمل هذه السياسة على البطالة اعتبارات اقتصادية فحسب إذ كانوا يمتدرون سيطرتهم على بحر إيجه أساس كياناتهم السياسية ومصدر قوتهم ، فإن عزلتهم في مصر كانت تضعفهم أمام دولة السليوكيين في سوريا ، وكانت في قبضتها المدن الأغريقية في الأناضول ، وأمام مقدونيا وكانت تسيطر على إغريق البلقان ، على حين كانت سيطرة البطالة على الطرق التجارية في بحر إيجه وفي سوريا توفر لهم موارد جمة في الرجال والأموال . ومن الجلي أن هذه السياسة كانت تضر بمصالح سوريا ومقدونيا ، ولذلك كان البطالة لا يستطيعون تحقيق أهداف سياستهم الخارجية دون القيام بمجهود حربي عنيف مستمر .

لقد كان إذن طبيعياً ألا يسلم السليوكيون باستيلاء البطالة على جوف سوريا ، لأن ذلك كان يحرمهم من إنشاء أسطول كبير والاحتفاظ به في موانئهم السورية ، بل قد يسد في وجوههم ، إذا شاء البطالة ، سبل الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط . وإذا كانت الظروف القاهرة قد أرغمت السليوكيين على النزول عن شمال آسيا الصغرى ، فإنهم كانوا لا يسلمون طواعية لمصر بالسيطرة على شواطئ آسيا الصغرى ، الجنوبية والغربية والطرق الحربية والتجارية ، التي كانت تؤدي من إمبراطوريتهم الآسيوية إلى ثغور آسيا الصغرى الغربية ، لأنه كان يترتب على ذلك أن تصبح دولتهم مملكة شرقية بحت منعزلة تماماً عن العالم الإغريقي^(١) . وإزاء كل ذلك لم يكن هناك مفر من أن يصطدم السليوكيون بالبطالة اصطداماً عنيفاً .

(1) Rostovtzeff, pp. 29 — 30.

وقد بدأ النضال العنيف بين أنطيوخوس الأول وبطليموس الثاني في عام ٢٨٠ عندما نشبت بينهما حرب غامضة (٢٨٠ — ٢٧٩) يسميها البعض « الحرب الكاريّة »^(١). وفي العامين التاليين شغل بطليموس بأخضاع قبائل أدوميا والبحر الميت وشرق الأردن^(٢). أما الحرب « السورية الأولى » التي تتضارب الآراء تضارباً شديداً حول تواريخ أحداثها فاننا نرجح أنها بدأت في ربيع عام ٢٧٥ حين جرد بطليموس الثاني حملة غزت سوريا السلوكية وأحرزت بعض النجاح إلى أن ردها أنطيوخوس على أعقابها . لكن بطليموس لم يلبث أن عاود الكرة وأحرز انتصارات باهرة في البر والبحر حتى أنه عندما عقد الصلح في عام ٢٧٢ كانت ممتلكات مصر قد اتسعت اتساعاً كبيراً على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وكذلك في جنوب سوريا الذي غدا بأكله مصرياً^(٣).

وفيما بين أكتوبر عام ٢٦٢ وأبريل عام ٢٦١ توفي أنطيوخوس الأول وخلفه ابنه الأصغر أنطيوخوس الثاني ، وكان أميراً نشيطاً وضع شئون دولته في نصابها ولم يلبث أن اشتعل بينه وبين بطليموس الثاني لهيب « الحرب السورية الثانية » التي نجعل الكثير عن أصلها وأحداثها ، إلا أننا نعرف أنها كانت سيئة الطالع على بطليموس الثاني الذي افزعت قوته رودس ومقدونيا فانضمنا إلى خصمه يشدان ازره . فلا عجب أن فقدت مصر من جراء هذه الحرب أغلب ممتلكاتها في آسيا الصغرى وكذلك كل فينيقيا شمالي صيدا^(٤). وحين باءت قوات فيلادلفوس بالفشل استخدم مهارته السياسية ليأمن شر أنطيوخوس ويربط السياسة السورية بمجلة السياسة المصرية . ويبيان ذلك أن أنطيوخوس كان متزوجاً من ابنة عمه لاوديكي

(1) Jougnet, Nat. Eg, p. 49.

(2) Tarn, J. E. A., 1929, pp. 9. ff.

(3) G. A. H. VII, pp. 703 — 4.

(4) G. A. H. VII, pp. 711 — 15.

(Laodice) التي أنجبت له ابنين وابنتين ، لكنها كانت قوية الشكيمة ، فتمكن بطلميوس من إقناعه بمقد معاهدة تقضى بأن يترك لاوديكي ويتزوج من ابنته برينيكى (Berenike) ، بشرط أن يكون عرش أنطيوخوس من بعده لأبناء زوجه الجديدة . وقد أقصيت لاوديكي وأبنائها إلى إفيسوس ، وفي إبريل عام ٢٥٢ وصلت برينيكى فى صحبة وزير مالية أبها .

'' وإذا كان فى وسع بطلميوس أن يرقب من وراء هذا الزواج على الأقل الفرصة ليتدخل فى الشئون السورية ويوجد لنفسه أولياء فى أمبراطورية جاره ، فماذا كان أنطيوخوس يستطيع أن يأمل من وراء هذه المعاهدة ؟ إن المؤرخين القدماء يدعون زوجه الجديدة « برينيكى فرنفوروس » (Phernephoros) أى صاحبة الصداق العظيم . وقد كان هذا المهر المائل دون شك تعويضاً مقنعاً عن الحرب ، ويظن البعض أن هذا الصداق كان مبلغاً كبيراً من المال إلى جانب دخل جوف سوريا ، بينما يرى البعض الآخر أن هذا الصداق كان عبارة عن ارجاع بطلميوس لانتيوخوس كيليكييا الغربية فضلاً عن إعطائه أيضاً پامفيليا ، وذلك لقاء تنازل السليوكيين عن المطالبة بجوف سوريا . ونحن نميل إلى رأى الأخير ، لأنه يتمشى مع الدوافع التى أوجت بمقد الزواج ، وهى تسوية الخلافات بين الأسرتين وتأمين الاحتفاظ بجوف سوريا ، وكان هذا الإقليم أفضل ممتلكات مصر ويعنيها أكثر من كيليكييا وپامفيليا .

وقد أدى زواج برينيكى من أنطيوخوس الثانى إلى قيام « الحرب السورية الثالثة » عندما توفى هذا الملك فى عام ٢٤٦ ، فإنه عقب ذلك مباشرة احتدم بين لاوديكي وبرينيكى نزاع عنيف من أجل العرش حداً ببطلميوس الثالث إلى التدخل بالقوة لدعم حقوق أخته وابنها . وعلى الرغم من أن بطلميوس الثالث قام بحملة موفقة فإن أخته وابنها قتلوا فى عام ٢٤٥ عندما وقعت فى إنطاكية

فتنة ذهباً ضحيتها^(١) ، وآل العرش إلى سليوكوس الثاني ابن لاوديكي الذي استطاع أن يسترد ولاياته الشرقية وجانباً من كيايكيا وكل سوريا السليوكية فيما عدا سليوكيا على نهر العاصي ، لكنه عندما حاول غزو جنوب سوريا في عام ٢٤٣ م في بهزيمة فادحة وارتد إلى إنطاكية . وفي عام ٢٤٢ حاصرت قوة مصرية دمشق ، إلا أنه استطاع أن ينجدها ويرفع الحصار عنها ، لكن بقي الشاطئ السوري حتى سليوكيا على نهر العاصي في قبضة بطليموس ، الذي انتهر فرصة انشغال غريمه باسترداد سوريا الشمالية ونشط في توسيع ممتلكاته على شواطئ آسيا الصغرى ، فبلغت إمبراطورية البطالمة إذ ذاك أوج اتساعها^(٢) .

ولم تلبث الخلافات أن قطعت أوصال أسرة السليوكيين ، إذ أن الظروف اضطرت سليوكوس الثاني إلى الاتفاق مع أخيه الصغير أنطيوخوس هيراكس Hierax ، على اقتسام الإمبراطورية السليوكية فيما بينهما ، لكن لما كان يصعب على الأخ الأكبر احترام هذا الاتفاق فإنه غزا في عام ٢٧٣ م ممتلكات أخيه في آسيا الصغرى ، مما أفضى إلى قيام حرب ضروس بينهما يطلق المؤرخون عليها « حرب الأخوين » . وقد كانت هذه الحرب نكبة على الأخوين ففي بدايتها انتصر هيراكس على سليوكوس الذي اضطر إلى عقد الصلح في عام ٢٣٦ والنزول نهائياً عن آسيا الصغرى ، لكن هيراكس كان اضعف من الاحتفاظ بسلطة السليوكيين هناك ، ولا سيما أنه اطلق العنان لحلفائه الغال فاوسموا البلاد سلباً ونهبها إلى أن أنزل بهم أتالوس ، حاكم برغامون ، في عام ٢٣٠ هزيمة ساحقة خلعت آسيا الصغرى من شرورهم . وازاء ذلك اتخذ لنفسه لقب ملك وقرر الاستيلاء على الممتلكات السليوكية في آسيا الصغرى . وقد افضت ثلاث معارك حربية بين أتالوس وهيراكس إلى طرد الأخير من آسيا الصغرى . ولاشك في أن السياسة والأموال المصرية كانت في البداية تؤيد هيراكس إلا أن الجيوش المصرية لم تتدخل في الصراع ، بل إنه عندما فر هيراكس إلى الإسكندرية

(١) ابراهيم نصحي ص ٦٥ — ٦٦ :

(٢) G. A. H. VII pp. 717 - 9.

سجنه بطلميوس الثالث ، لكنه لم يلبث أن فر من سجنه وذهب للقتال وملاقاة
حفيده عبثاً في تراقيا . وإذا صح ما يقال من أن بطلميوس الثالث كان يطمع في ضم
الولايات الشرقية في الإمبراطورية السلوكية ، فلماذا إذن لم ينتهز فرصة هذه الأحداث
التي زعزعت أركانها ويتدخل بجيوشه لتحقيق تلك الأطماع (١) .

وعندما ارتقى سايوكوس الثالث عرش سوريا في عام ٢٢٦ ، عهد إلى أخيه
الصغير أنطيوخوس بحكم بابل وإلى عمه أندروماخوس (Andronichos)
باسترداد آسيا الصغرى من أتالوس (Attalos) صاحب برغامون ، إلا أن
أتالوس هزم أندروماخوس . وعندما عبر سايوكوس نفسه الطورس وقتله أحد
ضباطه ، خشي أن يقع نضال على العرش بين أنطيوخوس وأخايوس (Achaeos) ،
ابن عمه أندروماخوس ، وكان قد عين حاكماً على ولايات آسيا الصغرى ،
لكن أخايوس نادى بأنطيوخوس ملصكاً وعاقب قتلة سايوكوس . وقد اتخذ
أنطيوخوس الثالث وزيراً له رجلاً سياسياً ماهراً يدعى هرمياس (Hermias) .
ولم يمض وقت طويل قبل أن ينافس هرمياس مصر العدا ، لكنه لم يكن عداء
خطيراً ، بسبب المخاطر التي استهدفت لها عندئذ دولة السلوكيين من جراء ثورة
والي بابل وفارس ، فلم يكن نصيب الجيش السلوكي الذي غزا جوف سوريا
في عام ٢٢١ إلا الهزيمة ، وعندئذ قرر أنطيوخوس أن يضع أمور إمبراطوريته
في نصابها قبل أن يصنف حساباته مع مصر (٢) .

وعندما عاد أنطيوخوس مظفراً من حملته الشرقية في أواخر عام ٢٢٠
وعلّم أنه قد ارتقى عرش مصر شاب ماجن هو بطلميوس الرابع فيلوپاتور اعتقد
أن الوقت قد حان لاسترداد جوف سوريا من مصر ، ولذلك سرعان ما استؤنفت
أو بدأت « الحرب السورية الرابعة » . وإزاء انصراف فيلوپاتور إلى عبثه

(١) إبراهيم نصحي ص ٦٨ .

(٢) G. A. H. VII. pp. 723 - - 6.

ومجونه وانهماك وزيره سوسيبوس في مؤامراته لدعم مركزه لا يأخذنا العجب من أن مصر لم تنتهز فرصة متاعب أنطيوخوس لتتأثر من اعتدائه على جوف سوريا في عام ٢٢١ ، بل إن مصر — وقد كانت تتوقع اعتداء أنطيوخوس على ممتلكاتها السورية بعد فراغه من مشاغله في الأمبراطورية — لم تستعد لدفع هذا الاعتداء في الحال .

وفي ربيع عام ٢١٩ بدأ أنطيوخوس حملة مظفرة إلى حد أنه لو زحف على يلازيون لوجد مصر عند موطئ قدميه ، لكنه خدع بدعاية سوسيبوس (Sosibios) التي روجت بين الناس أن الجيش المصري بكامل قوته كان متجمعاً عند يلازيون ، وكذلك بما ألقى في روعه من أنه يستطيع الحصول على جوف سوريا بمفاوضات سلمية لو أنه عقد هدنة لمدة أربعة أشهر . ولما كان الشتاء قد اقترب ، وكان يخشى التفتيت طويلاً عن دولته بسبب قلقه من نشاط اخايوس ، فانه قبل الهدنة وعاد إلى سايبوكيا في انتظار المفاوضات المزعومة لتسليم جوف سوريا .

وحقيقة الأمر أنه عندما بدأ أنطيوخوس حملته لم يكن في مصر جيش مستعد للقائه بل إن الإغريق الذين كانوا عماد الجيش البطلمي قد انقطع وفودهم على مصر ، ولذلك كان الموقف جد خطير . وإزاء هذه الأزمة لم يكتبف سوسيبوس بأن أحضر من بلاد الإغريق أفضل من تستطيع النمود ابتياع خدماتهم من الضباط والجنود المرتقة ، وبأن دعا للخدمة العسكرية الجنود الإغريق الذين استقروا في مصر نتيجة للاقطاعات التي كان البطالمة قد منحوهم إياها ، بل اتخذ خطوة كانت لها نتائج بعيدة المدى ، إذ أنه جند كذلك نحواً من ٢٠,٠٠٠ مصري وسلحهم ودرّبهم على نهج المقدونيين وكون منهمج المقدونيين وكون منهم قلب الجيش . ولأستكمال تدريب هذا الجيش لجأ سوسيبوس إلى حيلة المفاوضات التي أطلبت عمداً لتحقيق هذا الغرض . وعندما أدرك أنطيوخوس

أخيراً حيلة سوسيببوس قطع المفاوضات ، وفي ربيع عام ٢١٨ استدعى جيشه لاستئناف القتال . فأرسل سوسيببوس نجدات للقوات البطلمية في جوف سوريا أملاً في تأخير زحف أنطيوخوس قدر الطاقة ، لكنه تمكن من الاستيلاء في تلك الحملة على جانب كبير من جوف سوريا . وفي العام التالي زحف أنطيوخوس حتى رفح حيث التقى الجيشان في ٢٢ من يونية عام ٢١٧ ، وكانت الغلبة لبطلميوس الرابع الذي اكتفى باسترداد جوف سوريا وعاد مسرعاً إلى مصر ليستأنف حياة المجون والعبث ، على حين أخذ الملك المهزوم يعمل بجد ونشاط في إعادة بناء إمبراطوريته ليثأر لنفسه من مصر^(١)

ولم يكن انتصار رفح انتصاراً باهراً لبطلميوس الرابع وسوسيببوس فحسب ، بل كان أيضاً انتصاراً رائعاً للمصريين ، الذين يعزى إليهم أكبر الفضل في إخرازه ، والذين كان البطالمة يعاملونهم حتى ذلك الوقت معاملة المغلوبين على أمرهم . وكان المصريون ، وقد هد الاستعمار الأجنبي كيانهم وسلبهم ثقتهم بأنفسهم ، يلقون عنت طغاتهم في صبر عجيب ، لكن الدور الذي قاموا به في معركة رفح أعاد إليهم الثقة بأنفسهم فلم يعودوا رتيبيون الوقوف في وجه الحكومة ثأرين على ما كانوا يلقونه من صنوف الضغط والإرهاق . وقد تعددت هذه الثورات منذ عام ٢١٦ إلى حد أنها أضعفت قوة البطالمة وشلت حركتهم في الخارج ، فمجزوا عن الاحتفاظ بإمبراطوريتهم البحرية . وسنرى تواتراً أن العداء بين البطالمة والسليوقيين لم يتمخض عن هذه النتيجة الخطيرة فقط .

وعندما توفي بطلميوس الرابع وخلفه ابنه الطفل بطلميوس الخامس ، عقد أنطيوخوس الثالث ، غريم مصر ، وفيليب الخامس ، حليفها ، محالفة سرية لاقتسام ممتلكات مصر الخارجية^(٢) ، منهزين فرصة ضعف السلطة

(1) C. A. H. VII, pp. 728 -- 31.

(2) Polyb. XV, 20.

المركزية في مصر من جراء الثورات القومية والتنافس على الوصاية على الملك الطفل . وإزاء هذه المخاطر استنجدت مصر بروما ، لكن لما كانت روما مشغولة بمحاربة فيليب الخامس ، وكان أنطيوخوس قد استولى على جوف سوريا وكل ممتلكات مصر في آسيا الصغرى ، وكانت مصر قد أنهكتها الثورات القومية والاضطرابات الداخلية ، فقد رأى أريستومنس (Aristomenes) ، وزير بطليموس الخامس ، أنه لم يعد هناك أمل لإنقاذ مصر نفسها إلا بحسن التفاهم مع انطيوخوس ، فأخذ يسمى منذ عام ١٩٨ إلى عقد الصلح بين مصر وسوريا على أساس زواج بطليموس الخامس من كليوبترة ابنة أنطيوخوس وتنازل مصر لانطيوخوس عن ممتلكاتها في سوريا وآسيا الصغرى وتراقيا . ولما كان هذا العرض ينطوي على تأمين مصر دون مقابل فإن انطيوخوس لم يبادر إلى قبوله . لكن انطيوخوس لم يلبث أن قبل واحتفل في شتاء ١٩٤/١٩٣ بزواج بطليموس من كليوبترة . عندما فطن إلى أن دور نضاله مع روما آت لاريب فيه ، إذ أنها كانت لا تستطيع السماح له بالتوسع في الشرق كيف يشاء فيصبح خطراً يهدد نفوذها هناك . ومن ثم أخذ يعمل على كسب ود جيرانه ليقفوا إلى جانبه في الكفاح المقبل بينهما . ولعل الدوافع إلى هذه المصاهرة الجديدة بين أسرتي البطالمة والسليوكيين لم تحل في نظر كل من بطليموس الخامس وأنطيوخوس الثالث مما هو أبعد من ذلك . فأغلب الظن أن بطليموس الخامس كان يمالئ النفس بأن يستعيد على هذا النحو جوف سوريا الذي كان يعتبر على الدوام ضرورياً لحماية حدود مصر الشرقية . وأغلب الظن أيضاً أن أنطيوخوس كان يمني نفسه بأن يفضي هذا الزواج إلى بسط سيطرته على مصر . ومعنى ذلك أنه بعد أن كانت كل آمال السليوكيين في الماضي استرداد جوف سوريا أصبحوا يطمحون إلى الاستيلاء على مصر نفسها ^(١) .

وإذ تقرر أن تكون جزية جوف سوريا دوطاة كليوبترة الأولى ، اعتقد

(١) لإبراهيم نصحي س ٩١ — ٩٢ .

الجانب المصرى أو أدخل في روعه أن ملكية هذا الإقليم قد عادت إليه بموجب هذا الزواج ، استناداً إلى أن التنازل عن جزيرة هذا الإقليم ينطوى أيضاً على التنازل عن ملكيته . ولعل الجانب المصرى في ضعفه وتلهفه على الاتفاق مع إغراقه في التفاؤل ورغبته في ألا تبدو آماله سافرة بحيث تنفر الجانب الآخر لم يعصر على تحديد ملكية جوف سوريا في شروط المعاهدة عسى أن تساعد الظروف في المستقبل على تحقيق آماله دون عناء . ولا جدال في أن الجانب السليوكى كان يعتمز الاحتفاظ بملكية جوف سوريا دون أن يخيب عندئذ آمال الجانب المصرى التى لم تكن خافية عليه فجعل دوة كليوبترة جزيرة جوف سوريا موهما الجانب المصرى بأن التنازل عن الجزيرة ينطوى أيضاً على التنازل عن ملكية الإقليم دون حاجة إلى النص على ذلك في شروط المعاهدة ، وهو ما كان الجانب السليوكى يحرص على تفاديه . ولا شك في أن حرص السليوكيين على عدم تحديد ملكية جوف سوريا في شروط المعاهدة يفضح نواياهم ، فقد كانوا يؤملون أنه عندما يثار هذا الموضوع في المستقبل تكون الحاجة إلى استرضاء مصر قد انقضت ويكون في وسعهم ، باعتبارهم الطرف الأقوى ، أن يفسروا شروط المعاهدة وفقاً لوجهة نظرهم ، على نحو ما يحدث منذ أقدم العصور حتى اليوم في تفسير الاتفاقات السياسية التى تعقد بين طرفين غير متكافئين . وقد كان في وسع السليوكيين القول عندئذ بأن التنازل عن جزيرة جوف سوريا لا تستتبع حتماً التنازل عن ملكية هذا الإقليم ، بل القول أيضاً أن هذه المنحة شخصية وتعود إلى مانحها عقب وفاة كليوبترة ^(١) .

وإزاء ذلك لم يكن هناك مفر من تجدد النزاع في المستقبل القريب بين السليوكيين والبطالمة . وعقب وفاة بطليموس الخامس تولت كليوبترة الوصاية على ابنها إلى أن توفيت في عام ١٧٦ ق. م. فكان ذلك إيذاناً بتجدد المشكلة السورية .

(1) Cf. Josephos, Antiq. XII. 4, 154; C. A. H. VIII, pp. 187, 199; Guq, in Syria vol. VIII, 1927, pp. 143, 144

ولما كان كل من الجانبين قد تمسك بوجهة نظره فإنه لم يكن هناك بد من الاحتكام إلى السيف لفض هذا النزاع . وما كادت تتم إستعدادات الفريقين للحرب حتى نشبت « الحرب السورية السادسة » التي تمخضت عن نتائج خطيرة ، فإن أنطيوخوس الرابع هزم الجيش البطلمي وتقدم إلى منف ، حيث أرغم ابن أخته بطلميوس السادس على قبول حمايته له ، مما دفع الإسكندر إلى المناذاة بأخيه الصغير ملكاً^(١) . فزحف أنطيوخوس على الإسكندرية بحجة الدفاع عن حقوق الملك الشرعى ، لكنه إزاء صعوبات الحصار وبسبب قلق أنطيوخوس من جراء اضطرابات وقعت في فلسطين قفل راجعاً إلى مملكته تاركاً حامية في يافا وبيروت وبطلميوس الصغير ملكاً في الإسكندرية وبطلميوس السادس ملكاً في منف ، معتمداً على أن منافسة الأخوين ستمهد له السبيل لغزو مصر ثانية^(٢) .

وما كاد أنطيوخوس ينسحب من مصر حتى اتفق فيلوميتور وأخته كليوبترا وبطلميوس الصغير على أن يحكموا سوريا ، وانتقل فيلوميتور من منف إلى الإسكندرية^(٣) . ونعرف الآن من وثيقة ديموتيقية ترجع إلى ١٨ سبتمبر عام ١٧٠^(٤) أنه في ذلك التاريخ كان الأخوة الثلاثة يحكمون مصر سوريا . وتحديثاً بردية إغريقية مؤرخة في ١٢ نوفمبر عام ١٧٠^(٥) بأن ذلك العام كان الأولى من حكم أولئك الملوك الثلاثة . ومعنى ذلك أنه قبل ١٨ سبتمبر عام ١٧٠ كان أنطيوخوس قد غزا مصر وانسحب منها ، وكان الأخوة الثلاثة قد اتفقوا على أن يحكموا مصر سوريا .

ولما كانت الأسباب التي أرغمت أنطيوخوس على الانسحاب من مصر قد

(1) Otto, zur Gesch Zeit des 6. Pto. pp 47 — 57.

(2) C. A. H. VIII, p, 506. Bouché—Leclercq II, pp. 18 — 21.

(3) Polyb. XXIX, 23, 4; Liv., XLV, 11.

(4) Thompson, A Family Archive from Siut, no. 22, pp. 49 — 51.

(5) Turner, A Ptol. Vineyard Lease, Bull. John Rylands Library, 31, no. 1, 1948, pp, 1 — 16; Gr. and Latin Pap. in John Rylands Library, 1V, 1952, no, 593 pp, 38 -- 45

زالت ، وكانت الآمال التي عقدها على المنافسة بين فيلومتور وبطلميوس الصغير قد خابت ، فإنه في ربيع عام ١٦٨ زحف على مصر وأرسل أسطولا للاستيلاء على قبرص ، مما دفع مصر إلى الاستنجاد بروما .

وللمرة الثانية تقدم أنطيوخوس بجيشه حتى أسوار الإسكندرية ، وهناك تمت المقابلة المشهورة بين أنطيوخوس وجايوس وبوبيليوس لابيناس (C. Popilius Laenas) السفير الروماني . ولما كانت روما قد خرجت منذ برهة وجيزة منتصرة من « الحرب المقدونية الثالثة » فقد أصبح في وسعها أن تتفرغ لأنطيوخوس وتملى عليه إرادتها . وعندما ذهب السفير الروماني لمقابلة أنطيوخوس مدّ الملك يده لمصافحته ، لكن السفير بدلا من أن يصافح الملك وضع في يده رسالة تحوى قرار السناتو وطلب إليه أن يقرأها قبل كل شيء ، فأطلع الملك عليها وأخبره أنه سيتدبر الأمر مع رفاقه . فلم يكن من السفير إلا أن خط بالعصى التي يمسكها دائرة حول الملك وطلب إليه أن يفصح كتابة عن رأيه قبل أن يخطو خارج هذه الدائرة . فأخذ الملك بهذا المسلك الغريب الجريء وتردد لحظة ثم أعلن أنه سيستجيب إلى المطالب الرومانية . وعندئذ هز بوبيليوس يد الملك وحياء تحية ودية . وقد كانت رسالة السناتو تنطوى على أمر أنطيوخوس بالانسحاب من مصر وقبرص ، لا حياء في الحرية ولا انتصارا للاستقلال ، وإنما خوفاً على مركز روما في شرق البحر الأبيض المتوسط من اتساع امبراطورية السليوكيين^(١) . فاقرب الشبه بين أساليب السياسة قديماً وحديثاً ! وقد أذعن أنطيوخوس لإهانة روما لأنه كان من الحق أن يشتبك معها بعد انتصارها في مقدونيا وقبل نجاحه في ضم مصر إليه^(٢) .

إن الحرب السورية السادسة لم يستفد منها إلا روما التي وضعت مصر

(1) Polyb. XXIX, 27; Diod. XXXI, 2; Livius, XLV, 2; Bouché — Lecl. II, pp. 25 — 7; C. A. H. VIII, pp. 501 — 7.

(2) Rostovtzeff, p. 67.

على هذا النحو تحت حمايتها . وقد ساعد النضال الدموي العنيف الذى سرعان ما نشب بين الأخوين الملكيين على توطيد نفوذ روما فى مصر ، فلم يعد لها إلا ظل من الاستقلال . وإذا كانت روما قد أفلحت فى إخراج أنطيوخوس من مصر ذليلاً مهاناً ، فإن العداء ظل كامناً فى نفوس السليوقيين الذين أخذوا يتطلمون دون جدوى إلى فرصة ينقبضون فيها على مصر . ومن ناحية أخرى لم ينس البطالمة ما ألحقه بهم أنطيوخوس الثالث والرابع من الذل والإهانة ، ومن ثم كانوا يضمرون للسليوقيين حقداً دفيناً ويعملون على الانتقام منهم وعلى محاولة استرداد جوف سوريا .

وعندما انفرد بطلميوس السادس بعرش مصر لم يلبث مجرى الحوادث فى سوريا أن أعطاه الفرصة للانتقام من السليوقيين ، فإن شخصاً يدعى إسكندر بالاس (Balas) قام يطالب بعرش سوريا ، الذى كان يتربع عليه عندئذ ديمتريوس الأول ، وبادر بطلميوس السادس إلى التحالف مع هذا المناوىء لديمتريوس . وفى صيف عام ١٥٠ ق . م . ساهم جيش بطلمي فى انتصار بالاس على ديمتريوس ، ومن ثم أصبح بالاس ملكاً على سوريا وبابل . وفى هكا تزوج بالاس من كليوباترة ثيا (Thea) ابنة بطلميوس السادس^(١) . لكن سرعان ما أثبت بالاس أنه غير جدير بالعرش الذى وقع فى قبضته ، فقد كان رجلاً تافهاً انصرف إلى العبث^(٢) وترك تصريف شئون الدولة فى قبضة وزيره أمونيوس (Ammonios) . وفى ربيع عام ١٤٧ بدأ ديمتريوس بن ديمتريوس الأول يعمل على استرداد عرش أبيه . وجاء بطلميوس السادس على رأس جيش وأسطول واستقبلته مدن فلسطين وفينيقيا استقبالا رائعاً أزعج أنطاكية . وتختلف

(1) Justin., XXXV, 1 -- 2; 1 Macc. 10, 49 -- 66; Joseph., A. Jud., XLII, 2, 4; C. A. H. VIII, p. 507 -- 24; Pouché - Lecl. II, 46 -- 97.

(2) Athen., V. 211.

المراجع القديمة حول نوايا فيلومتور وغرضه من هذه الحملة ، فيذكر ديودورس^(١) أن نيته كانت في الأصل مساعدة بالاس زوج ابنته ضد ديمتريوس الثاني . ويروى الكتاب الأول من تاريخ السكابين^(٢) أن فيلومتور جاء بحجة مساعدة بالاس لكنه خانته وانضم إلى ديمتريوس . أما المؤرخ يوسف^(٣) فيحدثنا بأن فيلومتور كان صادق الرغبة في مساعدة بالاس لكن أغضبه عدم معاقبة أمونيوس على تدبير محاولة لاغتياله ، ولذلك انحاز فيلومتور إلى جانب ديمتريوس . وإزاء ما نعرفه عن خلق فيلومتور يصعب علينا اتهامه بالخداع واختلاق المزاعم ونميل إلى قبول رواية يوسف . وحين انضم فيلومتور إلى ديمتريوس الثاني وعده بعرش سوريا وبابل ويد ابنته كليوبترة ثيا ، زوجة بالاس ، لقاء النزول لمصر عن جوف سوريا . وهكذا أصبحت لمصر اليد العليا ثانية في الشؤون السورية حتى أن أهل أنطاكية عرضوا العرش على ملك مصر الذي كان صاحب هذا العرش قد أسره وكاد يستولى على كل مملكته منذ قليل ، وسبحان مغير الأحوال ! لكن بطلميوس السادس رفض أن يضم الدولة السلوكية إلى مصر ، لازهداً منه ولا قناعة وإنما خشية الاشتباك مع روما بسبب ذلك ، ومن ثم أقنع الأهالي بقبول ديمتريوس الثاني ملكاً عليهم . وفي صيف عام ١٤٥ التقى بطلميوس السادس مع بالاس في معركة حامية انتصر فيها بطلميوس لكنه أصيب بجرح سميت في ميدان القتال . وقبل أن يلفظ النفس الأخير أتاه نبأ مصرع بالاس على يدي أحد شيوخ الأعراب^(٤) .

وقد كانت النتيجة المباشرة لوفاة بطلميوس السادس أن ديمتريوس اعتبر نزوله لمصر عن جوف سوريا كأن لم يكن ، وأنه لم تعد تحت إمرة مصر عندئذ

(1) Diod., XXXII, 9C.

(2) I Macc., II, 1--18.

(3) Joseph., A. Jud. XIII, 4.

(4) C. A. H. VIII, pp. 524 — 5; Bouché — Lecl. II, pp. 49 — 53; Skout, pp. 34 — 5.

قوات كافية ، إذ كان بطلميوس قد أخذ معه إلى سوريا الجانب الأكبر من القوات البطلمية ، وانتهز ديمتريوس الثاني فرصة مقتله وأرغم هذه القوات على الانضمام إلى جيشه أو الانسحاب إلى مصر كيفما اتفق^(١) .

وفي عهد بطلميوس الثامن انوارجتييس الثاني أتاح الأحداث السورية لمصر فرصة جديدة للتدخل في شئون الدولة السلوكية ، إذ أن ديمتريوس الثاني أصبح بغيضاً هناك إلى حد أن الأهالي طلبوا إلى بطلميوس الثامن أن يختار لهم ملكاً بدلاً من ديمتريوس ، فاختار لهم شاباً كان ابن تاجر مصرى يدعى پروتارخوس (Protarchos) ، لكنه ادعى أنه ابن أسكندر بالاس واتخذ فعلاً اسم الإسكندر ، غير أن أهل أنطاكية أطلقوا عليه لقب زايناس (Zabinas) ومعناه العبد المشتري ، ومع ذلك فإنهم كانوا يفضونه على ديمتريوس . وبالرغم من تأييد مصر لزايناس ، فإنه استغرق ثلاثة أعوام ليقتضى على ديمتريوس ويفوز بالعرش بسبب نشاط ديمتريوس الخارق للعادة^(٢) . وإذا كان قد قضى على ديمتريوس فإن زوجه كليوبترة ثيا استمرت تناضل زايناس للاحتفاظ بحقوق أسرة السلوكيين أصحاب العرش الحقيقيين . وعندما تعاضلت كليوبترة الثانية ، أم كليوبترة ثيا ، في عام ١٢٤ مع أخيها وزوجها الثاني بطلميوس الثامن ، أخذ ملك مصر يؤيد ابنة أخيه وأخته ضد زايناس الذى قضى عليه في العام التالى . وبعد أن دبرت كليوبترة ثيا مقتل ابنها سليوكوس الخامس ، لأنه اتخذ لقب ملك دون استئذنها ، أشركت معها في الملك ابنها الآخر أنطيوخوس الثامن ، الذى وعد بأن يسلس لها القياد وتزوج كليوبترة تريفاينا (Tryphaena) ابنة بطلميوس الثامن^(٣) . وفي عام ١٢١ لقت كليوبترة ثيا حتفها ، إذا أنها كانت تريد أن تحكم تحت ستار اسم

(1) Cf. Josephus, A. Jud., XI 4, 9; Bouché — Lecl. II, p. 56; Bevan, p. 306.

(2) App., Syr. 68; Bouché — Leclercq, II. pp. 77 — 9; Bevan pp. 313 — 4.

(3) App., Syr. 69.

ابنها ، لكنه لم يسلس لها القياد كما وعد ، فصصمت على أن تدس له السم ، إلا أنه كشف عن المكيدة في الوقت المناسب وأرغمها على تجرع السم الذي أعدته له . ويبدو أن بطلميوس الثامن اكتفى بتنصيب ابنته ملكة على سوريا نتيجة لزوجها من أنطيوخوس الثامن فلم يسكن له أى نشاط هناك عقب ذلك ^(١) .

وقد أفضى النزاع بين أنطيوخوس الثامن وأخيه الصغير أنطيوخوس التاسع إلى تدهور الدولة السليوكية وكذلك إلى تدخل مصر من جديد في الشؤون السورية ، مما تخض عن انفجار الصراع الكامن في أسرة البطالمة بين بطلميوس التاسع سوتر الثاني من ناحية وأخيه بطلميوس العاشر إسكندر الأول وأمه كليوبترة الثالثة من ناحية أخرى ، إذ كان بطلميوس التاسع يؤيد أنطيوخوس التاسع ضد أنطيوخوس الثامن ومناصريه اليهود على حين كانت كليوبترة الثالثة وبطلميوس العاشر يميلان إلى تأييد أنطيوخوس الثامن واليهود ^(٢) . ويظهر أن كليوبترة الثالثة كانت تتطلع إلى الاستعانة بيهود الإسكندرية لتأييدها في الصراع الداخلي ، وبيهود بيت المقدس للتدخل في سوريا تدخلا مثمراً . وعلى كل حال لم تفد مصر شيئاً على الإطلاق من تدخل الفريقين المتخاصمين في شؤون سوريا . وقد أفضت الانقسامات الأسرية العنيفة بين السليوكيين إلى نقص مواردهم المالية وضعف قوتهم الحربية ، ومن ثم عجزوا عن صد الاعتداءات الخارجية وعن وقف تيار الانحلال الداخلي . فقد استولت پارثيا على الولايات الشرقية وبابل وبلاد ما بين النهرين ^(٣) ، وضمت روما كيليكيا ^(٤) ، وأخذت أرمينيا

(1) App., Syr., 69; Justin., XXXIX, 2, 7 — 8; Bouché—Leclercq, pp. 79—80; Bevan, p. 314; Jouguet, Nat. Eg. p. 159; Otto M. Bengston, Z. gesch. Nied. Ptol., pp. 113 — 4.

(2) Bevan, p. 328; Jouguet, Nat. Eg. p. 161; C. A. H. VIII, p. 531; IX, pp. 386 — 7.

(3) Rostovtzeff, p. 841.

(4) Jouguet, Nat. Eg., p. 164.

(م . ١٠ — البطالمة)

تلتهم جزءاً بعد آخر من أملاك السليوكيين فلم يأت عام ٨٣ حتى كانت أرمينيا قد بسطت حدودها حتى جبل لبنان وطردت السليوكيين من سوريا^(١). وانتهزت هذه الفرصة كوماجين (Commagene) في الشمال وجودايا في الجنوب فاستقلتا عن السليوكيين^(٢). ولم يفت النبط أن يفيدوا من هذه الظروف فأخذوا يبسطون رقعة دولتهم جنوباً وشرقاً وشمالاً حتى أنهم استولوا على دمشق^(٣). ولم تلبث البقية الباقية من دولة السليوكيين أن تقسمت إلى ولايات صغيرة^(٤). وبعد فتوحات پومبي في الشرق دخلت سوريا في حظيرة الأمبراطورية الرومانية في عام ٦٤ ق. م. ^(٥).

وعندما تزعم مركز بطلميوس الثاني عشر (الزمار) في مصر وفر منها إلى روما لم يفلح في استعادة عرشه في عام ٥٥ ق. م. إلا بمساعدة جابينيوس الحاكم الروماني لولاية سوريا^(٦). وعندما خلفت كايوبتره السابعة، وهي أشهر من حملن هذا الاسم، عندما خلفت أباهما على عرش مصر، لم ترن ببصرها إلى ضم جوف سوريا فحسب، بل ولا سوريا كلها فحسب، بل حاولت وكادت أن تنجح مرتين، بفضل أسلحتها الذرية وعن طريق قيصر أولاً وأنطونيوس ثانياً، في التربع على عرش الإمبراطورية الرومانية بأجمعها. وإذا كان قتلة قيصر قد قضوا لحظة على هذه الآمال الواسعة، فإن عبقرية أغسطس قضت عليها إلى الأبد كما قضت على دولة البطالمة نفسها، فأصبحت مصر ولاية رومانية في عام ٣٠ ق. م.

وإذا كانت العلاقات بين البطالمة والسليوكيين وليدة عوامل سياسية

(1) Cary, pp. 352 — 3.

(2) Rostovtzeff, pp. 841 — 2.

(3) Rostovtzeff, p. 841; Cary p. 356.

(4) Rostovtzeff, pp. 842 — 4; Tarn p. 42.

(5) Bevan, p. 351; Cary, p. 356.

(6) Bouché-Leclercq II, pp. 162 — 3; Bevan, p. 356; C. A. H. IX, p. 604.

واقتصادية ، فإن العلاقات بين مصر والجزيرة العربية كانت وليدة علاقات اقتصادية فقط مبميتها شدة اهتمام البطالمة بالتجارة الشرقية ، ذلك الاهتمام الذى كان أيضاً أحد أسباب حرصهم على الاحتفاظ بملكية جوف سوريا ، بل أحد العوامل الرئيسية التى أملت سياستهم الخارجية فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وبيان ذلك أن تجارة الشرق الأقصى كانت تسلك ثلاث طرق رئيسية فى سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط ، وهى طرق الشمال وطريق الوسط وطريق الجنوب . وكانت طريق الشمال تتجه من أواسط آسيا صوب بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل^(١) . أما طريق الوسط ، وكانت أهم هذه الطرق فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، فكانت من الهند إلى سايوكيا على الدجلة إما ببحر أو برآ . وكانت التجارة المتجمعة فى سايوكيا تشق سبيلها نحو الغرب ، إما إلى دمشق وصور ، أو إلى أنطاكية ، التى كانت تخرج منها طريق رئيسية إلى إفيسوس . ولم تفقد طريق الوسط أهميتها إلا عندما استولت پارثيا على بابل ، ومن ثم أخذت تزداد أهمية طريق الجنوب ، وكانت طريقاً بحرية من الهند إلى الموانئ الواقعة فى جنوب بلاد العرب أو جنوبها الغربى^(٢) وكانت أهمها فى عهد البطالمة أدانا (Adana) وجزيرة سقطرى^(٣) . وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها لدى الأعراب ، فقد كانوا يحرسون أشد الحرص على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول بوغاز باب المندب . وكانت هذه التجارة تسلك إلى الشمال طريقين ، لم تكن إحداهما مستعملة بكثرة قبل عهد البطالمة ، وهى الطريق البحرية فى مجازاة الشاطئ الأفريقى أو شاطئ بلاد العرب . أما الطريق الأخرى وكانت أكثر

(1) Strabo, II, 71; 73; XI, 498; 509; Plin. VI, 52.

(2) Tarn, pp. 211 — 12.

(3) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 170.

أهمية من الأولى فهي الطريق البرية القديمة ^(١) ، وكان النبط يسيطرون عليها منذ عهد الفرس . وعندما كان البطالمة الأوائل لا يمتلكون فاسطين وفينيقيا ، كانوا يعتمدون على النبط في الحصول على حاجتهم من التجارة الشرقية ، وذلك لأن هذه الطريق البرية ، وتعرف باسم « طريق البخور » كانت تمر بسبأ ومعين وددان (Dedan — الملا) وأيلة (العقبة) إلى البتراء ، التي كانت تأتي إليها طريق أخرى من جرا (Gerrah) على الساحل الغربي للخليج الفارسي . فكان النبط يستطيعون توجيه التجارة حيثما تولى عليهم رغبتهم وأرباحهم ، إما إلى مصر أو إلى أى مكان آخر بعيد عن قبضة البطالمة . إلا أنه في العادة كان جانب من التجارة الشرقية الآتية إلى البتراء يذهب إلى مصر ، وجانب آخر إلى غزة ، وجانب ثالث فيما يظن إلى ساليوكيا على الدجلة ، والباقي إلى الشمال نحو أنطاكية . وكانت الطريق الطبيعية شمالاً تمر بدمشق ، كما كانت الحال بعد عام ٢٠٠ ق . م . عندما أصبح جوف سوريا في قبضة السليوقيين ، وظهرت قيمة ذلك فيما عرضه أنطيوخوس الرابع إيفانيس من الذهب والعاج والتوابل الهندية في الحفل الذي أقامه . أما عندما كان البطالمة يمتلكون جوف سوريا ، فإن التجارة المتجهة شمالاً كانت تتبع أيضاً طريقاً أخرى تمر بفيلاذيفيا (عمان) وجراس (Gerasa) إلى بطوليميس (عكا) ومنها إلى فينيقيا ^(٢) .

ولم يكن في وسع البطالمة وضع التجارة الشرقية في قبضتهم ، إلا إذا تحكموا في منافذ الطرق التجارية في آسيا الصغرى وسوريا وعلى شواطئ البحر الأحمر . ويمكن تقسيم اهتمام البطالمة بالتجارة الشرقية إلى فترتين : وإحداهما في القرن الثالث ، عندما وجهوا جل عنايتهم إلى الاستيلاء على سوريا وشواطئ آسيا الصغرى . ولذلك فإن بعض أسباب نضال البطالمة مع السليوقيين من حوالى

(1) Rostovtzeff, p. 387.

(2) Tarn, pp. 213 — 4.

٢٨٠ إلى ١٩٨ ق . م . تمزى إلى التنافس على الاستيلاء على منافذ الطرق التجارية في آسيا الصغرى وسوريا . وقد انتهى هذا النضال بطرد مصر من آسيا الصغرى وسوريا في عام ١٩٨ — ١٩٧ ق . م . والأخرى ، منذ عهد بطلميوس إيوارجتس الثانى فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، عندما اتجه اهتمامهم كلية إلى طريق الجنوب ، نتيجة لطردهم من آسيا الصغرى وسوريا وتلاشى سلطانهم من بحر إيجه^(١) . ومع ذلك يجب ملاحظة أن استيلاء البطالة على سوريا وبعض أجزاء آسيا الصغرى فى القرن الثالث لم يصرفهم عن الاهتمام بطريق الجنوب التى كانت تجذبهم إليها عدة دوافع .

ويتمثل اهتمام البطالة بطريق الجنوب فى : أولاً ، سلسلة البحوث الكشفية التى قاموا بها منذ عهد بطلميوس الأول لمعرفة شواطئ هذا البحر وشعوبه وموارد الثروة هناك ، وإنشاء علاقات مع تلك الشعوب . وثانياً ، تأسيس المدن والمستودعات على الشاطئ الإفريقى للبحر الأحمر ابتداء من قبة خليج السويس حتى بوزاز باب المنسب . وثالثاً ، العناية بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر .

وقد ترتب على كل ذلك تنشيط العلاقات التجارية بين مصر والبلاد العربية ، فنشط أيضاً قراصنة النبط فى السطو على السفن مما حدا ببطلميوس الثانى إلى إرسال حملة لتأديب النبط . لكن يجب أن يلاحظ أن الطريق البحرية كانت لا تستهوى كثيراً تجار الإغريق والعرب فى بداية عهد البطالة بسبب خطورة الملاحة فى البحر الأحمر . وإذا كان من المؤكد أن هذه الطريق كانت تستخدم عندئذ فإنه من المؤكد أيضاً أن التجار كانوا يفضلون طريق البر رغم تكاليفها الفادحة . فلا عجب إذن أن بطلميوس الثانى قد استبدل سياسته الأولى المعادية للنبط بسياسة

(1) Tarn, p. 212.

سلمية ، واتفق مع المدن الفينيقية على نظام مرض فيما يتعلق بالتجارة الشرقية . ولذلك فإن الوثائق البردية (وثائق زينون) تشير بكثرة إلى شراء سلع من القوافل في فلسطين ، كما أنها تشير أحياناً إلى عقد صفقات من النبط . ويتفق معاصرو بطلميوس الثاني على أن مصر كانت تجنى أرباحاً وفيرة من تجارة القوافل العربية بمساعدة المدن الفينيقية . وإذا كانت التجارة الشرقية قد عادت سيرتها الأولى عن طريقها القديمة ، فإن بطلميوس الثاني قد أفلح في تحويل جانب منها إلى مصر بفضل علاقاته مع المعينيين^(١) .

وقد كان طبيعياً أن تضمحل تجارة مصر الشرقية منذ عهد بطلميوس الخامس ، عندما طرد السليوكيون مصر من آسيا الصغرى وسوريا ، وتحكموا في طرق القوافل القادمة من شواطئ بلاد العرب إلى سوريا بطريق البتراء ، لكن هذا الاضمحلال كان مؤقتاً ، لأن الجهود التي كان البطالة يوجهونها فيما مضى إلى آسيا الصغرى وسوريا تحولت منذ عهد بطلميوس الثامن إيوارجتييس الثاني إلى طريق الجنوب . فأخذت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد أن كانت لا تتخطى بوغاز باب المندب اجتأت إذ ذاك على اجتياز هذا البوغاز ، ووصلت إلى الإقليمين اللذين كانا ينتجان العطور وهما : حضرموت في جنوب بلاد العرب ، وبلاد بنت على شاطئ الصومال ، إذ أن المستكشفين أخذوا يوجهون نشاطهم نحو الجهات التي يريد التجار زيارتها^(٢) . وقد ترتب على ما أولاه بطلميوس الثامن من العناية لتنظيم وتأمين طريق الجنوب أن ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التي كانت تمر بمصر ، حتى أنها فاقت كثيراً تلك المقادير التي كان البطالة الأوائل يحكمون فيها^(٣) . وكان طبيعياً أن يصاحب نشاط مصر التجاري في البحر

(1) Cf. Rostovtzeff pp. 388 — 9.

(2) Préaux, L'économie royale des Lagides. 1939, pp. 358 ... 9.

(3) Rostovtzeff, p. 924.

الأحمر تقوية الروابط بينها وبين بلاد العرب . ويحدثنا بوسايدونيوس (Poseidonios) بأنه في عهد بطلميوس الثامن أبجر أيودوكسوس (Eudoxos) في رفقة بحار هندي إلى الهند^(١) ، وبذلك كان أول إغريقي وصل إلى الهند دون الاستمانة بالطرق البرية . وعندما أصبح في الإمكان الاتصال بالهند مباشرة ، كان لابد من أن يضمحل الدور الذي كان العرب يلعبونه بمثابة وسطاء ، وأن تفترب تبعاً لذلك العلاقات بين مصر والعرب . ومما ساعد على ازدهار تجارة مصر الشرقية انهيار ملكة سبأ في عام ١١٥ ق. م. ^(٢) ، وضعف مملكة السلوقيين في عهد انطيوخوس الرابع وخلفائه ، واستكشاف هيبالوس (Hippalos) طرق الاستفادة من الرياح الموسمية حوالي عام ١٠٠ ق. م. ^(٣) . مما يسر اجتياز باب المندب ، بل الإبحار إلى الهند مباشرة ، وإن كان يبين أن هذا الاستكشاف لم يستغل استغلالاً تاماً إلا في العهد الروماني . ومع ذلك فقد استفاد منه البطالمة الأواخر ، لأن مراكزهم كانت تزور الموانئ في جنوب بلاد العرب ، وكشفت جزيرة سقطرى ، وأبحرت أحياناً إلى الهند^(٤) . وفي الواقع أنه إزاء نقص موارد مصر وازدياد مطالب إيطاليا من منتجات بلاد العرب والهند في أواخر القرن الثاني ، اكتسبت التجارة الشرقية في نظر البطالمة أهمية لم تكن لها من قبل^(٥) . ولا أدل على ذلك من أنهم أنشأوا منصباً جديداً في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل الميلاد ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والبحر الهندي » ، الذي يرجح أنه في بداية الأمر كان يتولاه قائد مديرية قفط ، أما منذ عام ٧٨ ق. م. فإن قائد منطقة طيبة هو الذي كان يشغل هذا المنصب الجديد^(٦) .

ولا سبيل إلى الشك في أن التجارة الشرقية والاستكشافات تقدمت باطراد في عهد البطالمة ، فأصبح لمصر نفوذ كبير في بلاد العرب والهند حتى أن

(1) Strabo, II, 98 — 102.

(2) Tarn, Hell. Civ. p. 214.

(3) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 171.

(4) Tarn, p. 216.

(5) Tarn, p. 215.

(6) Rostovtzeff, p. 928; O. G. I. S., 186, 190.

كليوبترة السابعة اقترحت على أنطونيوس بعد هزيمتها في موقعة أكتيوم أن يهجرا البحر الأبيض المتوسط وبقيتا لهما ملكا على شواطئ البحار الهندية . ولاريب في أنها كانت جادة في اقتراحها ^(١) ، وقلم جيداً بتلك الأصقاع الشرقية التي درسها المستكشفون ونشروا أخبارها . فقد كانت تدفعهم إلى كشوفهم حب المعرفة ، والحاجة إلى وصف الأقاليم المأهولة بالسكان ، والميل الفلسفي إلى دراسة حياة الشعوب المتبربرة التي كانت أكثر بداءة وكذلك أكثر سعادة من غيرها ، والرغبة في فتح طرق جديدة نحو الشرق تقضى على احتكار الأعراب ، والشغف بإحياء التقاليد القديمة التي وضعها حثشبسوت والإسكندر ودفع إليها حب المنفعة . فكل هذا قد حدا بأولئك الرجال إلى كشف سبل طريق الجنوب . وتتجاوب أصداء هذه الدوافع في مذكراتهم أو تقاريرهم التي رفعوها إلى البطالمة ، واستخدمها المؤرخ أجاثارخيدس (Agatharchides) والجغرافي أرتيميدوروس فيما كتباه في القرن الثاني قبل الميلاد . وكذلك اعتمد ديودوروس واسترابون على هذين السكتابين فيما ألفاه بعد ذلك بحوالى قرن ^(٢) .

وقد أسلفنا أن بطلميوس الأول استولى على برقة (Cyrenaica) بمجرد وصوله إلى مصر ، وبقي علينا أن نتتبع في ايجاز العلاقات بين مصر وبرقة طوال العصر الهيلينستي . ولما كان بطلميوس يدرك أهمية برقة للدفاع عن حدود مصر الغربية ، وكانت قد وافته في عام ٣٢٣ فرصة فريدة لضمها عندما اندلع هيب الثورة في المدينة الإغريقية المشهورة برقة (Cyrene) ولجأ فريق من الثوار يستنجدون به ، فإنه لم يدع الفرصة تفلت من يده بل بادر بارسال رفيقه أوفلاس (Ophellas) الأولينثي على رأس قوة برية وبحرية ، وفي أواخر عام ٣٢٢ ذهب بنفسه إلى برقة وأقام أوفلاس حاكماً عليها ^(٣) .

(1) Tarn, p. 216.

(2) Tarn, J. E. A. XV, 1929, p. 14.

(3) Diod. XVIII, 19 -- 21; Bouché -- Leclercq, I, pp. 16 — 7.

ومع أن برقة أنجبت لمصر البطلمية بعض مشاهير الرجال ، مثل الشاعر كاليماخوس (Calimachus) والجغرافي أراتوسفينيس (Eratosthenes) وامتدتها بمدد غير قليل من الجنود ، فإن الظروف قد أثبتت أن ضم برقة لم يزد من قوة مصر بل أصبح بمثابة شوكة في جانب البطالمة ، وذلك من ناحية لأن أهل برقة ، وقد اعتادوا على الحرية والاستقلال ، لم يمثلوا للخضوع لسلطة أجنبية ، ومن ناحية أخرى لأن أطماع حكام هذه الدولة جعلتهم خطراً يهدد كيان مصر وحكامها .

وبيان ذلك أنه في أثناء الصراع بين أنتيجونوس وباقي الولاة لجأ أنتيجونوس إلى أساليب سياسية بارعة كان في مقدمتها ذلك التصريح الخطير الذي نادى بأن المدن الإغريقية يجب أن تكون حرة مستقلة غير خاضعة لأي حامية أجنبية^(١) . وقد حاول بطلميوس أن يظهر للعالم الإغريق أنه لا يقل انتصاراً للحرية الإغريقية عن أنتيجونوس فاصدر بدوره تصريحاً مماثلاً ينادى فيه بأن الإغريق يجب أن يكونوا أحراراً^(٢) ، لكن عندما صدقت برقة هذا التصريح واثارت على حاكمها البطلمي أوفلاس بادر بطلميوس إلى إخماد هذه الثورة (عام ٣١٣) (٣) .

وبعد ذلك راودت أوفلاس أحلام واسعة في إقامة مجد شامخ لنفسه فشق عصا الطاعة على بطلميوس ، إذ أن أجاثوكلس السيراكوزي كان مشتبكاً في حرب مع القرطاجنيين وتحالف معه أوفلاس للقضاء على قرطاجنه لقاء الحصول على الفتوحات التي يحوزانها سوياً في أفريقيا ، غير أن أجاثوكلس اختلف مع أوفلاس وقضى عليه^(٤) في عام ٣٠٨ ، فعهد بطلميوس إلى مانجاس (Magas)

(1) Diod. XIX, 61, 1 -- 3.

(2) Diod. XIX, 62, 1.

(3) Diod. XIX, 62, 3 -- 6.

(4) Diod. XX, 41 -- 42.

ابن زوجة برنيكي في إعادة بسط سيطرته على برقة . ولم يلق ماجاس عناء في ذلك وأصبح نائب الملك هناك ^(١) .

وحين بدأ النضال العنيف بين أنطيوخوس الأول وبطليموس الثاني دخل أنطيوخوس مع ماجاس في مفاوضات تمخضت عن تحالفهما وزواج ماجاس من إپاما (Apama) ابنة أنطيوخوس ^(٢) . وعلى أثر ذلك أعلن ماجاس استقلاله عن مصر وزحف عليها في عام ٢٧٤ وكاد يصل إلى الإسكندرية بسبب ثورة الغال في جيش بطليموس ، لكن دسائس ارسينوى أثارت قبائل المارماريد في مؤخرته فاضطر إلى التقهقر سريعا ^(٣) ، ولم يلبث أن دان لأخيه ملك مصر بالطاعة .

وحوالى عام ٢٥٨ ^(٤) توفى ماجاس عن ابنة في الرابعة عشر من عمرها ، تدعى برنيكي ، كان أبوها قد خطبها لولى عهد مصر ^(٥) الذى أصبح فيما بعد بطليموس الثالث . وامل مرد ذلك إلى أن ماجاس ، وقد أدرك استحالة امكان وقوف برقة في وجه مصر بعد وفاته ، رحب بمساعى مصر الدبلوماسية لمقد هذه الخطوبة حتى ينهى الخصومة التى دامت بينه وبين أخيه نحو من خمسة عشر عاما ويضمن لابنته لاعرش برقة فحسب بل عرش مصر أيضاً . ولما كان هذا الزواج يستتبع ادماج برقة في مصر بعد وفاة بطليموس الثانى ، فقد كان يمارضه في برقة حزب كبير يرئس إلى الاستقلال وتزعمه إپاما أرملة ماجاس وشقيقة أنطيوخوس الثانى . فقد رأت إپاما أنها إذا حالت دون اتمام هذا الزواج وزوجت ابنتها من أمير آخر أمكنها الاحتفاظ باستقلال برقة الذاتى

(1) Paus. I, 6, 8; Bouché - Leclercq, l pp. 66 - - 7; C. A. H. VI, p. 495.

(2) Paus. I, 7, 3.

(3) Paus. I, 7, 2.

(٤) يختلف المؤرخون حول تاريخ وفاة ماجاس لكن لا كان ماجاس قد استرد برقة في عام ٣٠٨ وحكمها لمدة خمسین عاما (Agatharchides ap. Athen., XII, 550, b.) فاننا نرجح أنه توفى حوالى عام ٢٥٨ ق. م.

(5) Justin. XXVI, 3, 2.

والإبقاء على أسرتهما الحاكمة وضمنت لنفسها تبعا لذلك السيطرة الفعلية في برقة .
ووقع اختيار اياما على ديمتريوس « الجليل » (وكان أخا غير شقيق لجوناتاس
ملك مقدونيا) ، لكن ديمتريوس نفسه كان السبب في فشل هذا المشروع
نتيجة لصفاته وغروره ووقوعه في غرام اياما ، فأوعزت برينيكي بقتله في فراش
أمها^(١) ، وقبضت على زمام السلطة (حوالى عام ٢٥٥) .

ويعين أنه قد تبع ذلك وقوع اضطرابات عنيفة في برقة وضع حداً لها
التشريعات التي اقترحها الفيلسوفان اكديموس (Ecdemos) وديموفانس
(Demophanes)^(٢) . ويرى البعض^(٣) أن هذه التشريعات هي الدستور
الذي حفظه لنا نقش^(٤) عثر عليه منذ عهد غير بعيد ، لكن البعض الآخر^(٥)
يرى أن هذا النقص يرجع إلى عهد بطلميوس الأول . ويقول كاتولوس^(٦)
(Catullus) ، نقلا عن كاليماخوس ، إن قتل ديمتريوس كان جريمة حسنة مهدت
السبيل إلى ادماج برقة في دولة البطالمة ، وذلك نتيجة لزواج برينيكي وريثة برقة
من خطيبها الأول ، ولى عهد مصر . ويحوم الشك حول تاريخ هذه الحوادث ،
لكن يبدو أن زواج برينيكي لم يسبق كثيرا ارتقاء زوجها عرش مصر^(٧)
(يناير عام ٢٤٦) .

وقد بقيت برقة جزءا من المملكة المصرية إلى وقوع النزاع الأسرى بين
بطلميوس السادس وأخيه بطلميوس الصغير وتدخل روما في هذا النزاع الذي
وجدت فيه فرصة مواتية لتنفيذ سياستها الأنانية ، سياسة فرق تسد . فإنه

(1) Justin, XXVI, 3.

(2) Polyb. X, 23, 8; Plut. Philop. 1.

(3) Jouguet, Mac. Imp., p. 345, fn. 1.

(4) Ferri, in Abb. d. Wiss. Z. Berlin, 1926, p. 5. Inscript. no. 1.

(5) Cary, J. H. S., 1928, pp. 222. ff.

(6) Cat. LXXI, 25 ff.

(7) C. A. H. VII, pp. 712 — 3; Jouguet, Nat. Eg., p. 54; Cf. Cary, The Greek world, p. 138.

بتأثير البعثة الرومانية^(١)، التي قدمت الاسكندرية للتوفيق بين الأخوين، عقدا اتفاق في عام ١٦٣ تقرر بمقتضاه تقسيم المملكة بينهما بحيث تكون قبرص ومصر نصيب بطلميوس السادس وبرقة نصيب بطلميوس الصغير^(٢). وهكذا تمت ستار التوفيق بين الأخوين، أفضت سياسة روما إلى تفكيك عرى دولة البطالمة ونسخ نتائج أعمال البطالمة الأوائل.

وقد استمر الوضع على هذا النحو حتى توفي بطلميوس السادس في عام ١٤٥. وبفضل « مساعي روما الحميدة » تم التوفيق بين بطلميوس الصغير ملك برقة وكليوبترة الثانية أرملة أخيه، على أساس أن يتزوجا وبحكما سويا بالإشتراك مع طفلها من بطلميوس السادس. وقد كان في صالح روما، من حيث المبدأ، استمرار فصل برقة عن مصر، لكن عدة اعتبارات رجحت كفة الوحدة ولم نجعل في قيامها خطراً، إذ أن ارتقاء طفل بطلميوس السادس عرش مصر كان أمراً طبيعياً لا يترتب عليه شعوره بأى دين أو فضل لروما عليه، هذا إلى أنه قد ثبت أنه يشابه أباه الذي تحدى روما واجتراً على عدم الاذعان لمشيئتها. على حين أن حصول « ملك برقة » على عرش مصر الذي لم يكن له حق فيه سيجعله مديناً لروما مابقى متربماً عليه. وقد أثبت فعلاً أنه أداة طيعة ذلول، فضلاً عن أنه ملك متمسك شديد البطش سبق أن أثار تصرفاته نقمة رعاياه عليه ولا بد من أنها ستفضي إلى ذلك من جديد، ومن ثم فإنه لن يستطيع الاحتفاظ بعرش مصر دون تأييد روما، ولن يكون في وسعه يوماً أن يرفض لها طلباً، وإزاء كل ذلك لم يكن هناك أى خطر من إعادة توحيد دولة البطالمة تحت حكم بطلميوس ملك برقة، ولا سيما أن اتفاقاً مثل ذلك كان يحمل في طياته بذور الخلاف، إذ أنه لم يكن هناك مفر من وقوع نضال عنيف عندما يكبر الطفل ويدرك ما حدث من الافتئات على حقوقه، أما إذا بادر « ملك برقة » إلى التخلص منه قبل ذلك فإنه

(1) Polyb., XXXI, 10, 4 -- 5.

(2) Wilcken, U. P. Z. I. p. 180.

لن ينجو من نقمة أم القتيل ، وهكذا لن تنعم الدولة الموحدة بالاستقرار الذى يهيء لها ظروف النهوض والمنعة والقوة .

وعلى كل حال لم تلبث مصر طويلا حتى فقدت برقة إلى غير رجعة ، إذ أن بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى أورثها لإبنه غير الشرعى بطلميوس ابيون ، وهذا أورثها بدوره لروما^(١) عند وفاته فى عام ٩٦ ق.م. ، وبذلك كانت برقة أول جزء من إرث البطالمة يقع فى قبضة روما ، التى لم تباشر فى الحال حكم هذا الإقليم . فقد اكتفت روما بالاستيلاء على املاك التاج هناك ، وبفرض ضريبة على النبات الطبي سيلفيون (Silphion) ، الذى كان محصول برقة الرئيسى ، وسمحت لمدنها الخمس بأن تتولى إدارة شئونها . ولم تصبح برقة ولاية رومانية إلا فى عام ٧٤ ق.م. (٢) .

(1) Liv., Epit., LXX.

(2) Bouché — Leclercq, II, pp. 108 -- 9; Bevan, p. 332.

نقود البطالمة

لقد كان من بين النتائج التي تمخضت عنها فتوحات الإسكندر في الشرق نقل كميات هائلة من المعادن الثمينة إلى بلاد الإغريق ، وفتح أفق واسعة أمام التجارة الإغريقية في بلاد كثيرة كان يسود فيها إلى ذلك الوقت نظام الإقتصاد الطبيعي أو بعبارة أخرى نظام التبادل . وإزاء رواج التجارة ووفرة المعادن الثمينة كان طبيعيا أن ينشط استخدام النقود نشاطا لم يعرف قبلا ، وأن يؤثر ذلك في النظام الإقتصادي السائد في البلاد التي لم تشعر حتى ذلك الوقت بالحاجة إلى النقود .

وإذا كان الجانب الأكبر من الكنوز التي استولى عليها الإسكندر من الإمبراطورية الفارسية قد انتقل إلى أوروبا ، فإن البلاد الغنية بحاصلاتها فازت سريعا بحظها من تلك الكنوز ، لأن بلاد الإغريق كانت مضطرة إلى تموين نفسها بالحاصلات الزراعية والمواد الأولية من الخارج . ولذلك لم يكن ميسورا أن تستمر بلاد الإغريق دوما في الحصول على كل الكنوز المتداولة ولا في الاحتفاظ بكل الثروة التي اجتذبتها بفضل ظروف استثنائية . وليس أدل على ذلك مما حدث عندما احتكر كليومينيس بيع الحبوب المصرية ، فإنه تمكن بذلك من أن يتحكم في السوق وأن يحول إلى مصر جانبا مما امتصته بلاد الإغريق من ذهب الفرس وفضتهم .

لقد اختلط الإغريق في العصر الهيلينستي بمدة شعوب كانت تختلف عنهم في حياتها المادية . وإذا كان بعض هذه الشعوب بقي وفيا لتقاليدهم القديمة ، التي تستند إلى نظام الإقتصاد الطبيعي ، فإن البعض الآخر كان ينتج محاصيل وفيرة ويرحب بتوزيع الفائض منها عن حاجته لقاء ثمنها النقدي ، ولذلك أخذت هذه الشعوب تتحول بإطراد نحو نظام النقد . ويبدو أن أغلب ولايات السلوقيين

تنشئ إلى النوع الأول ، وأن مصر تنتمى إلى النوع الثانى ^(١) ، وإن كان من الخطأ القول بأن بطلميوس الأول هو الذى أدخل إستعمال النقود فى مصر ^(٢) .

حقا حين كانت المدن الإغريقية وبلاد الفرس تستخدم النقود منذ عدة قرون ، مقتفية فى ذلك أثر ليديا التى يعزى إليها فضل هذا الإختراع ، لم تكف مصر عن تنظيم معاملاتها على أساس التبادل ، إلا أن هذا لا يعنى أنها كانت تجهل تماما إستخدام النقود ^(٣) . فى عهد الفرس كانت تدفع لهم جزية نوعية من الحبوب وجزية نقدية قدرها ٧٠٠ تالنت ^(٤) (١٥٤٠٠٠ جنيه تقريبا) ، وقبل ذلك فى العهد الصاوى كان ماوك مصر يستخدمون جنودا مرتزقة من الإغريق يأخذون أجرهم نقدا ^(٥) . وقد كشفت الحفريات فى نقراطيس وسمنود وبني حسن فى طبقة من الأرض سابقة على العهد المقدونى عن نقود إغريقية وفارسية ^(٦) بعضها أصيلة وبعضها تقليدات محلية ^(٧) ، مما يدل على أن هاتين العمليتين كانتا متداولتين فى مصر وتساكن فيها قبل الفتح المقدونى ، وإن كان تداولهما محدودا . وقد كشف كذلك عن عملة مصرية تحمل صورة من الأساطير المصرية ، سكها فراعنة الأسر الوطنية

(1) Glotz, op. cit., pp. 389 — 392.

(2) Jouguet, Mac. Imp. p. 277, fn 2.

(3) Jouguet, Nat. Eg., III, p. 69.

(4) Glotz, op. cit. p. 392.

(5) Jouguet, Nat. Eg., III, p. 69.

(6) Milne, Rev. Arch., 1905, p. 257; J. E. A., 1933, p. 119; S. P. Nor. A Bibliography of Gr. Coin Hoards, Numismatic Notes and Monographs (2nd ed. New York, 1937), nos. 362, 365, 143, 144, 299, 322, 323, 411, 420, 673, 722, 729, 730, 888, 957, 1178; E. T. Newell, Numismatic Notes and Monographs. LXXXII, 1938, pp. 59 ff.; Robinson, A Find of Archaic Gr. Coins from the Delta, Numismatic Chronicle, 1930, p. 934; 1937, pp. 197 ff.

نوعن نقود الوالى الفارسى أريانديس راجع :

Svoronos, Ta nomismata Tou Kratous ton Ptolemaion, IV, Coll. 1 — 2; Herod. IV, 166 .

(7) Rostovtzeff, Soc. and Econ , p. 89.

الأخيرة على نمط العملة الإغريقية^(١). وإلى جانب ذلك كانت توجد قبل الفتح المقدوني بعدة قرون ، بل يحتمل منذ عهد الدولة القديمة ، قطع معدنية بعضها من الذهب وبعضها من الفضة والبعض الآخر من البرونز كانت المعابد تصدرها وتضع عليها طابع الآلهة ضماناً لقيمتها^(٢). ولا يرى بعض العلماء أى فارق بين هذه العملة المصرية وبين النقود بمعناها الدقيق ، بينما يرى البعض الآخر أن الفارق بين الإثنين دقيق جداً^(٣).

وجدير بالملاحظة أنه في عصر الفراعنة كانت الفضة نادرة وتتكلف نفقات باهظة في إحضارها إلى مصر ، ولذلك كانت قيمتها مرتفعة وكانت نسبة الذهب إلى الفضة في مصر على الأقل حتى عهد الرعامسة مختلفة عنها في عالم البحر الأبيض ، ففي عهد الأسرة العشرين كانت هذه النسبة في مصر تعادل ٢ : ١^(٤) ، لكننا لا نعرف عن يقين تلك النسبة عند الفتح المقدوني ، وإن كان البعض يرى أنها

(1) Cf. Chassinat, Une monnaie d'or à legendes hiéroglyphiques trouvée en Eg., B. I. F. A. O., I, 1901, pp. 78 — 86; Une nouvelle monnaie à légende hiéroglyphique, ibid. 1907, pp. 165 — 167; Les trouvailles de monnaies ég. à legendes hiéroglyphiques, Rec. des Travaux relatifs à la philologie et à l'archéologie égypt. et assyr., 40, 1923, pp. 131 — 157; Milne, J. E. A., 24, 1938, p. 201.

وقد أخطأ سفورونوس (4 — 3) في اعتبار هذه النقود من عهد سوتر عندما كان لا يزال والياً. وتوجد في المتحف البريطاني قطعة ذهبية على نمط العملة الأثينية وترن أربع دراخات وتحمل صور طائر ونبات البردى والحروف ت ا و. راجع :

G. F. Hill, Tachos, King of Eg., Brit. Mus. Quart. I, 1927, p. 24.

(2) Preaux, p. 267; Cf. Dykmans G., Hist. écon. et Soc. de l'anc. Eg. II pp. 253—262; J. Pirenne—B. Van de Walle, Documents juridiques égs., Rev. Hist. Or. I, 1937, pp. 73 — 79;

وتتحدث وثيقة من عام ٨٤٧ ف. م. عن « نقود خزانة الإله Harsaphès » راجع :

G. Möller, Ein ägyptischer Schuldschein der zweiundzwanzigsten Dynastie, Sitz. Preuss. Akad. Wiss., Ph. Hist. Kl. 1921, pp. 298 — 304.

وتتحدث وثائق ديموتيقية كثيرة سابقة على عهد البطالمة عن نقود خزانة الإله فتاح راجع :

Chassinat, Les trouvailles de monn. ég., Recueil. op. cit., pp. 146—150.

(3) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 70.

(4) Milne, J. E. A. XV, 1929, pp. 150—153.

لم تتغير عما كانت عليه من قبل ^(١) ، بينما يرى البعض الآخر أنه إذا كانت الفضة نادرة في عهد الرعامسة ، فإن فتح أبواب مصر للتجارة الإغريقية سهل مجيء الفضة إلى وادي النيل ، حيث كانت المعابد الكبرى تخرج قطعاً من الفضة يتداولها الناس ^(٢) . وترينا إحدى وثائق زينون البردية ^(٣) أن نسبة الذهب إلى الفضة حوالي عام ٢٥٨ — ٢٥٧ كانت ١ : ١٣ أي مثل ما كانت عليه تقريباً في العالم الإغريقي في القرن الخامس ، فقد كانت تباع عندئذ ١ : ١٣ ثم هبطت تدريجياً بعد فتوحات الإسكندر التي أدت إلى تدفق كنوز الإمبراطورية الفارسية على العالم الإغريقي ، فأصبحت النسبة بين الذهب والفضة ١ : ٨ ، لكن في أواخر النصف الأول من القرن الثالث ازدادت قيمة الذهب رويداً ^(٤) . ويفسر البعض هذه الظاهرة بسببين : أحدهما انقطاع ورود ذهب البنجاب عندما زالت السيادة المقدونية عن هذا الاقليم ، والآخر هبوط سعر الفضة بالنسبة للذهب نتيجة لاستغلال مناجم الفضة في أسبانيا ^(٥) .

وتماز نقود البطالمة عن النقود التي سكها سائر خلفاء الإسكندر تقريباً بصعوبة ترتيبها ، لأن نقود البطالمة تتألف من نقود فضية ونقود ذهبية ونقود برونزية ، وكثيراً ما تحمل العملة الفضية العادية صورة بطلميوس الأول واسم بطلميوس الذي حمل كل ملوك هذه الأسرة . أما النقود الذهبية والنقود الفضية

(١) يرى Milne في مقاله سابق الذكر من ١٥٠ — ١٥١ أن النسبة لم تتغير ، بينما يرى البعض الآخر أن النسبة كانت تتراوح لذلك بين ١٥ : ١ ، ١٠ : ١ ، راجع :

A. Segré *Metrologi e circolazione monetaria degli Antichi* (Bologne, 1928) 2^a partie, pp. 257 — 258.

(2) Préaux, pp. 270 — 271.

(3) P. Cairo Zen. 59022.

(4) Préaux, pp. 268 — 70.

(5) Th. Reinach, *Du Rapport de Valeur des métaux monétaires dans l' Eg. au temps des Ptol.*, Rev. Et. Gr., 41, 1928, pp. 121 ff.

(م ١١ — البطالمة)

غير العادية ، فإنها تحمل صور بطليموس الأول وغيره من الملوك والملكات وأحياناً ألقابهم الخاصة وأسماء الملكات . ولم تسك النقود الذهبية عادة في حياة الملوك الذين تحمل النقود صورهم . أما النقود البرونزية فإنها تحمل في حالات كثيرة صوراً مأخوذة من الأساطير الدينية . وجدير بالملاحظة أن أغلب النقود الفضية التي سكها البطالمة الأواخر مؤرخة بسنى حكم الملوك الذين سكت في عهدهم ، ولذلك كانت لهذه النقود أهمية خاصة في تأريخ كافة نقود كل البطالمة ^(١) وسنكتفي هنا بدراسة موجزة للنقود التي سكها البطالمة لمصر دون سواها من امبراطوريتهم ، بسبب صعوبة ترتيب نقودهم وتشعب موضوعها وتعقده مما يجعل تتبع ذلك أمراً عسيراً على غير الأخصائيين ، ولا سيما أن المجال لايسمح هنا للإفاضة في هذا البحث .

ولقد انتشرت في مصر منذ قدوم الإسكندر إليها نقود هذا الملك ^(٢) . ووجدت هنا أيضاً نقود تضاهاى نقود الإسكندر في طابعها ، لكنها تحمل اسم فيليب أرهيداوس ، فهل سك بطليموس هذه النقود عندما كان يحكم مصر باعتباره والياً من قبل فيليب ؟ إن من العسير الجزم برأى في هذا الموضوع على ضوء المعلومات القليلة التي لدينا ، وإن كان ذلك يبدو محتملاً ولا سيما أن بطليموس سك نقوداً باسم الإسكندر الرابع منذ وفاة فيليب حتى اتخذ هو نفسه لقب ملك ^(٣) . وإذا كانت هذه النقود الأخيرة تشبه نقود الإسكندر الأكبر وفيليب من حيث ظهور صورة الإله زيوس على الظهر ورأس الإسكندر الأكبر على الوجه ، فإنها بالرغم من ذلك تختلف عن سابقتها لأن رأس الإسكندر الأكبر هنا محلاة بقرنى آمون ومنطقة بجلد الفيل بدلا من جلد الأسد الذي كان يمتاز به الطابع القديم . وأهم من كل ذلك تصوير ساعة على الظهر ،

(1) Poole, Cat. of Gr. Coins in the B. M., Coins of the Ptolemies, Introd. p. XIII.

(2) Præaux, p. 268.

(3) Poole, op. cit. p. XVI.

فقد كان ذلك نواة الطابع الذى تمتاز به نقود البطالمة باعتبارهم ملوك مصر ، لأنه لكل نقود هؤلاء الملوك ، فيما عدا فئة محدودة منها أغلبها تذكارى ، طابع خاص يُصور على ظهرها ويتألف من الصاعقة والنسر ^(١) . وتمتاز فئة أخرى من نقود الإسكندر الرابع ببقاء طابع الوجه كما هو واختفاء الإله زيوس من الظهر وتصوير الآلهة المقدونية أثينا الكيس (Athena Alkis) وأمامها نسر واقف على صاعقة ^(٢) .

ولاشك فى أن بطلميوس الأول سك نقوداً باسمه عندما اتخذ لقب ملك ، لكن ماهى النقود التى يمكن أن نعزوها إلى هذا الملك من بين كميات النقود الفضية التى سكت طوال عهد البطالمة وكثيراً ما تحمل صورته ، وفى أغلب الحالات لقب ملك وفى حالات قليلة لقب سوتر ؟ يوجد لدينا أساسان لتحديد ذلك ، وهما طراز الصور وحروف صانعى النقود التى تظهر على نقود الإسكندر الرابع وكذلك على النقود التى تحمل صورة بطلميوس الأول على الوجه والنسر والصاعقة وعبارة « الملك بطلميوس » أو عبارة « بطلميوس سوتر » على الظهر . وبما أن بطلميوس الأول لم يحمل لقب سوتر رسمياً فى حياته ، فيجب إذن استبعاد النقود التى تحمل هذا اللقب . ويبدو أنه فى الإمكان أن نعزو إلى بطلميوس الأول من تلك النقود التى يدل طرازها على أنها أقدم من غيرها جانباً من تلك الفئة من النقود الذهبية التى تحمل وراء الأذن حرف «د» الذى ظهر كذلك على نقود الإسكندر الرابع ، وجانباً من النقود البرونزية التى تحمل أيضاً هذا الحرف وقد صور على وجه القطع الكبيرة منها رأس زيوس آمون ، أما على وجه القطع الصغيرة رأس الإسكندر وقد غطى بجلد الفيل ^(٣) . وتمزى أيضاً إلى بطلميوس الأول فئة محدودة من النقود الذهبية والفضية

(1) Poole, op. cit., p. XVII, Pl. I, 1.

(2) Poole, pp. XVII — XIX, Pl. I, 2, 3, 5, 6, 8; Svoronos, II, pp. 7 ff.

(3) Poole, op. cit., pp. XXIV — XXVII, Pl. III.

والبرونزية التي لا تحمل حرف « د » . وتمتاز النقود البرونزية في هذه الفئة بصورة رأس الإسكندر وقد حليت بقرنى آمون وشعر طويل بدلا من الشعر القصير الذى يظهر كثيرا في الفئات الأخرى من النقود^(١)

أما الجانب الأكبر من النقود الذهبية والفضية التي تحمل حرف « د » ، فإنه يعزى إلى بطلميوس الثانى^(٢) الذى يمتاز عصره بسك قطع ثقيلة من النقود الذهبية والفضية والبرونزية ، مثل القطع ذات الثمانى دراخمت التي تحمل صورة أرسينوى الثانية أو تحمل صورة بطلميوس الأول ومعه برينيكي الأولى وصورة بطلميوس الثانى ومعه أرسينوى الثانية ، وكذلك القطع الفضية ذات العشر دراخمت وعليها صورة أرسينوى الثانية ، والقطع الفضية النادرة ذات الثمانى دراخمت من الفئة التي تحمل حرف « د » ، وكذلك أيضاً كل القطع البرونزية الثقيلة^(٣) . وتحمل هذه القطع البرونزية على الوجه صورة زيوس آمون وعلى الظهر نسراً واقفاً على الساعة وجناحه مفتوحان وينظر إلى الخلف^(٤) . وتمتاز بعض العملة التي سكّت في عهد فيلادلفوس بظهور درع صغير على الظهر إلى جانب النسرة الواقف على الساعة ، لكن هذه الظاهرة لم تبرز عادة فيما بعد إلا في سلسلة النقود التي تحمل أربع صور وخاصة تلك التي تحمل صورتى فيلادلفوس وأرسينوى الثانية^(٥) .

ويجب أن نعزو إلى فيلادلفوس أنه سك لأول مرة فئتين من النقود التذكارية . وقد كانت غالبية الفئة الأولى من الذهب وتتألف من قطع ذات ثمانى دراخمت وتحمل على الوجه صورتى بطلميوس الثانى وأرسينوى الثانية ، وعلى الظهر صورتى بطلميوس الأول وبرينيكي الأولى . وتمتاز أقدمها فى الطراز بظهور درع صغير على الوجه ، ويرجح أن أغلب النقود التي على هذا النمط يرجع إلى عصر بطلميوس

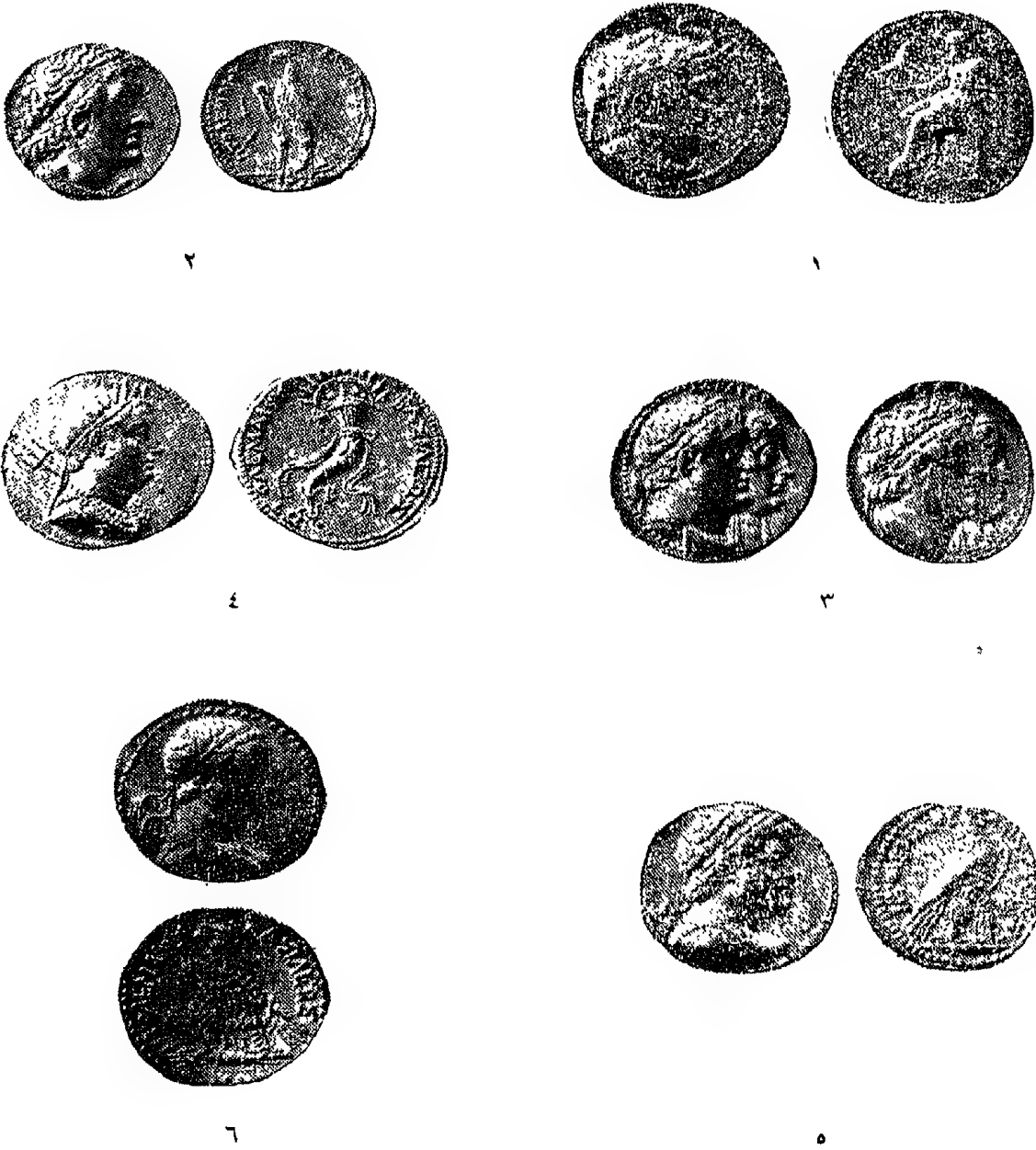
(1) Poole, op. cit., p. XXVII, Pl. II, 1 — 8.

(2) Poole, op. cit., p. XXXII.

(3) Poole, op. cit., p. XXXIII.

(4) Poole, op. cit., p. XXXVII, Pl. VI, 4.

(5) Poole, op. cit., p. XXXIV.



٢ — مثل لنقود بطلميوس الأول
 ٤ — » » » الثالث
 ٦ — » » » الخامس

١ — مثل لنقود الإسكندر الرابع من عهد بطلميوس الأول
 ٣ — » » تذكارية من عهد بطلميوس الثاني أو الثالث
 ٥ — » » فيلوباتور

الثاني أو الثالث أو إلى عصر هذين الملكين ^(١) . لكن نلاحظ أن جانباً آخر من النقود المماثلة يشبه نقود بطلميوس الخامس من حيث الطراز وظهور رأس حربة على الظهر ، ولذلك نعزو سك هذا الجانب إلى عهد بطلميوس الخامس ^(٢) . ويوجد أيضاً جانب ثالث من هذه الفئة ، وهو يمتاز بظهور الدرع ويشبه من حيث الطراز نقود بطلميوس السادس أو الثامن ، ولذلك لا بد من أنه سك في هذا العصر المتأخر ^(٣) . وتحمل جميع نقود هذه الفئة على الوجه كلمة الأخوين وعلى الظهر كلمة الإلهين .

أما الفئة الثانية فكان أغلبها قطعاً ذهبية ذات ثمانى دراخمت وقطعاً فضية ذات عشر دراخمت ، تحمل كلها على الوجه صورة أرسينوى الثانية ويحمل أغلبها على الظهر قرنى الرخاء ، لكن بعضها يحمل بدلاً من ذلك نسرأ يقف على صاعقة . وقد نقش على ظهر جميع هذه النقود اسم ارسينوى فيلادلفوس . وإذا كان من المحتمل أن النقود الذهبية قد سكّت في خلال فترة تمتد نحواً من قرن ونصف قرن ، فإن النقود الفضية قد سكّت جميعاً في وقت واحد . وأقدم نقود هذه الفئة هي النقود الذهبية وترجع إلى أواخر عهد فيلادلفوس وبداية عهد ايوارجيتيس ^(٤) . وقد سكّت هذه النقود ثانية بعد السكة الأولى ، كما حدث في حالة النقود ذات الصور الأربع . ويبدو أن السكة الثانية كانت ، مثل السكة الثانية من نقود الفئة الأولى ، ترجع إلى عهد بطلميوس الخامس ، الذي لا توجد للملكة قطع ذهبية ذات ثمانى دراخمت ، كما وجدت لمن سبقها من الملكات أرسينوى الثانية وبرينيكى الثانية وأرسينوى الثالثة ^(٥) . ويحتمل أن السكة الثالثة ترجع إلى عهد يمتد من بطلميوس السادس إلى بطلميوس العاشر ^(٦) . أما نقود أرسينوى الفضية

(1) Poole, pp. XXXVIII — XXXIX, Pl. VII, 1 — 4.

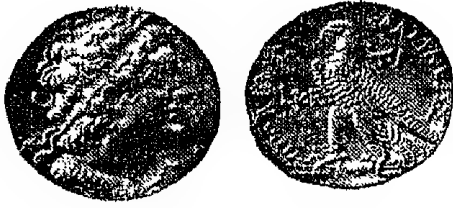
(2) Poole, p. XXXIX, Pl. VII, 5, 6.

(3) Poole, p. XXXIX, Pl. VII, 7.

(4) Poole, pp. XII — XL, Pl. VIII, 1 — 5.

(5) Poole, p. XL, Pl. VIII, 6.

(6) Poole, p. XI, Pl. VIII, 7 — 10.



٢



١



٤



٣



٦



٥

- ١ — مثل لنقود بطلميوس السادس البرونزية في أثناء وصاية ايولايوس ولنايوس .
 ٢ — مثل لنقود بطلميوس الثامن ايوارجيتيس الثاني .
 ٣ — » » » التاسع سوتر الثاني عندما حكم بمفرده .
 ٤ — » » » العاشر اسكندر الأول عندما حكم بمفرده .
 ٥ — » » » الثاني عشر الزمار .
 ٦ — » » » كليوباترة السابعة .

التي تتألف من قطع ذات عشر دراهمات ، فإنها ترجع جميعاً إلى وقت السكة الأولى لنقودها الذهبية ، أى إلى عهد بطلميوس الثانى والثالث . ويبدو مما مر بنا أن بطلميوس الخامس أعاد استخدام نقود فيلادلفوس الذهبية ، التي أهمل إستخدامها فى خلال عهد ايوارجيتيس أو بعده ، وأن خلفاء بطلميوس الخامس لم يسكوا نقوداً ذهبية سوى هذه النقود (١) .

ويعتاز عهد ايوارجيتيس بسكتين أولاهما من برونز يمتاز بصفائه . وقد صور على وجه بعض هذه العملة رأس زيوس آمون وعلى وجه بعضها الآخر صورة نصفية لبطلميوس الثالث ، لكنها جميعاً تحمل على الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وقرن الرخاء وعبارة « الملك بطلميوس » (٢) . أما السكة الثانية فإن بعضها من الذهب ، وقد صور على الوجه تمثال نصفى لهذا الملك يحمل على رأسه تاجاً فى شكل أشعة الشمس وعلى كتفه صولجاناً له رأس ذات ثلاث شعب . أما على الظهر فقد صور قرن الرخاء وفوقه هالة الشمس وعبارة « الملك بطلميوس » (٣) . وقد كان البعض الآخر من هذه السكة من البرونز ، ونقود هذه السكة أقل نوعاً من نقود السكة الأولى ، وقد صور دائماً على وجه فئاتها الصغيرة رأس الإسكندر منمنمة بجلد الفيل وعلى الظهر نسب يقف على الصاعقة (٤) . أما الفئات الكبيرة فإنها تحمل على الوجه رأس زيوس آمون وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وأمامه قرن الرخاء ، وكلها تحمل على الظهر عبارة « الملك بطلميوس » (٥) .

وجدير بالملاحظة أن برنيكى الثانية كانت أول ملكة بطلمية حملت لقب ملكة على نقودها ، فإن أرسينوى الثانية أعطيت لقب « فيلادلفوس » وأرسينوى الثالثة لقب زوجها « فياوباتور » ، أما كليوباترة الأولى فإنها أعطيت لقب « ملكة » على

(1) Poole, pp. XLI — XLII.

(2) Poole, p. XLIV, Pl. XII, 1, 2.

(3) Poole, p. XLIV, Pl. XII, 3 — 5.

(4) Poole, p. XLIV, Pl. XII, 7.

(5) Poole, Pl. XII, 6.

النقود التي سكّتها باعتبارها وصية على ابنها بطلميوس السادس عقب وفاة زوجها بطلميوس الخامس . وقد كان ذلك أيضاً حال كليوبترة الثانية أو الثالثة باعتبارها زوجة بطلميوس الثامن ، وكليوبترة الثالثة باعتبارها أرملة ، وكليوبترة السابعة عندما حكمت بمفردها وكذلك عندما أشركت معها ابنها بطلميوس قيصر . ويدل كل ذلك على أنه يجب ألا نقصر نقود برينيكي الثانية باعتبارها ملكة على مدة حكمها في برقة منذ وفاة أبيها ماجاس في عام ٢٥٨ حتى ارتقاء بطلميوس الثالث العرش في ٢٤٧ ، عندما ضم حوالى هذا الوقت تاج برقة إلى تاج مصر نتيجة لزواج بطلميوس وبرينيكي^(١) . ويضاف إلى ذلك أن النقود الذهبية ذات الثماني دراخمت التي سكّت في إفيسوس ، والنقود الفضية ذات العشر دراخمت التي سكّت في مصر ، نهض دليلاً آخر على سكّ نقود تحمل صورة برينيكي واسمها لافي برقة فقط بل في مصر نفسها وفي ممتلكاتها . ولعل ذلك كان على نمط النقود الذهبية والفضية التي سكّت باسم أرسينوى الثانية^(٢) . وفي نقود برينيكي الفضية التي سكّت لمصر نرى على الوجه صورة نصفية لبرينيكي وعلى الظهر قرن الرخاء وعبارة « الملكة برينيكي »^(٣) .

وقد سكّت في عهد فيلوطاتور نقود ذهبية ونقود برونزية . أما النقود الذهبية فتتألف من قطع ذات ثماني دراخمت ، وهي فئتان نرى في إحداها على الوجه صورة تمثال نصفي لهذا الملك وعلى الظهر صورة نسر واقف على الصاعقة وإلى جانبه اسم هذا الملك ولقبه : بطلميوس فيلوطاتور^(٤) . أما في الفئة الأخرى فنرى على الوجه صورة نصفية لزوج هذا الملك ، وعلى الظهر قرن الرخاء يعاونه نجم ومن حوله اسم هذه الملكة ولقبها : أرسينوى فيلوطاتور^(٥) . وتتألف النقود البرونزية

(1) Poole, pp. XLV — XLVI

(2) Poole, p. XLVII, Pl. XIII, 2, 3, 9, 10.

(3) Poole, p. 59, Pl. XIII, 3

(4) Poole, p. LII, Pl. XV, 1, 2.

(5) Poole, p. LIII, Pl. XV, 6.

من سكتين إحداهما أقدم وأدق صنما من الأخرى ، وتحمل بعض نقود السكتين على الوجه صورة الإله زيوس آمون ، وبعضها صورة الإسكندر ، لكن كلها ترينا على الظهر صورة نسر يقف على الصاعقة ويحمل قرن الرخاء على جناحه الأيسر ^(١) .

وقد سكت في عهد إبيفانس نقود ذهبية ونقود فضية ونقود برونزية . والقطع الذهبية ذات الثماني دراخمت ترينا على الوجه صورة نصفية لهذا الملك وقد وضع على رأسه رباط الملك الذي زين بسنبلة القمح ، أما على الظهر فيوجد نسر واقف على الصاعقة وعبارة « الملك بطلميوس » ^(٢) . وأهم فارق بين طابع القطع الفضية ذات الأربع دراخمت وطابع القطع الذهبية التي مر بنا ذكرها هو أن رباط الملك غير مزدان بشيء في القطع الفضية ^(٣) . ويبدو أن نقود إبيفانس البرونزية فئتان ترى في إحداهما تكراراً رديئاً لبعض نقود فيلادلفوس ، وفي الأخرى صورة ممسوخة لبعض نقود ايوارجيتيس ، لكن إذا كان أغلب هذه العملة البرونزية يتفق في شكل طابع الوجه من حيث تصوير رأس زيوس آمون فإن طابع الظهر يميزها عن بعض . ويمكننا أن نميز في نقود هذا العهد ثلاثة طوابع ، يصور أحدها نسرهما واقفاً على الصاعقة وأمامه قرن الرخاء ، أما الثاني فيرينا كذلك نسرأ واقفاً على الصاعقة لكنه ينظر إلى الخلف وجناحاه مفتوحان . وجدير بالملاحظة أن عملة صغيرة من البرونز تحمل نفس هذا الطابع على الظهر ، لكنها تحمل على الوجه رأس الإله نيلوس ^(٤) . أما الثالث ففيه أيضاً نسر واقف على الصاعقة وينظر إلى الأمام ، إلا أنه يحمل قرني رخاء على جناحه الأيسر . وتحمل كل هذه النقود على الظهر عبارة « الملك بطلميوس » ^(٥) .

(1) Poole, p. LIII, Pl. XV, 3 — 5.

(2) Poole, pp. LVI, LVIII, 74, Pl. XVII, 5.

(3) Poole. p. LVIII, p. 74.

(4) Poole p. LVII, p. 75, Pl. XVIII, 3.

(5) Poole, p. LVII, Pl. XVII, 6; Pl. XVIII, 1, 2.

وتمتاز القطع الفضية ذات الأربع دراخمت ، التي يظهر أنها سكّت لمصر في عهد إوصاية كليوبترة الأولى على ابنها بطلميوس السادس ، بتصوير كليوبترة على الوجه في شكل إيزيس وإلى جانبها سيرابيس . ويتألف طابع الظهر من نسر واقف على الصاعقة ينظر إلى الخلف ويحمل قرني الرخاء على جناحه الأيمن ، وفوق ذلك عبارة « الملك بطلميوس »^(١) . أما في القطع البرونزية فنرى على الوجه كليوبترة في شكل إيزيس وعلى الظهر طابعاً مماثلاً لطابع القطع الفضية فيما عدا أن قرن الرخاء هنا واحد فقط^(٢) .

وعندما آلت وصاية الملك إلى إيولايوس ولنايوس ، سكّت نقود برونزية جديدة تحمل على الوجه صورة زيوس آمون وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة . ويلاحظ أنه في القطع الكبيرة فقط قد صور النسور وتحت جناحه الأيسر صولجان ، وأمامه زهرة اللوتس التي تعتبر أهم طابع لنقود بطلميوس السادس البرونزية ، ونقشت بين قدمي النسور الحروف الثلاثة الأولى من اسم إيولايوس^(٣) .

وعندما غزا أنطيوخوس الرابع مصر ، وضع على هذه العملة الطلب السليوكي ، كما أنه سك عملة برونزية جديدة تمتاز بأنها تحمل على الوجه إما صورة سيرابيس أو صورة إيزيس أو صورة هذا الملك ، وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وعبارة « الملك أنطيوخوس الإله إيفانيس »^(٤) .

ويبدو أنه عندما اشترك في حكم مصر فيلومتور وأخوه الصغير ، سكّت نقود برونزية لتخليد ذكرى ذلك الحادث . وكانت تلك النقود فئتين ، إحداها تكرار لنقود إيولايوس فيما عدا تصوير زهرة اللوتس ، والأخرى متأخرة عن الأولى وأسوأ منها ، وكلها تحمل عبارة « الملك بطلميوس »^(٥) .

(1) Poole, p. LX, Pl. XVIII, 8,

(2) Poole, p. LX, Pl. XVIII, 9.

(3) Poole, p. LXIII, Pl. XIX, 2.

(4) Poole, pp. LXIII, LXIV, p. 81; Cat. of Sel. Kings of Syria, Pl. XII, 11, 12, 13.

(5) Poole, p. LXIV, Pl. XIX, 3.

ويحتمل أنه عندما أصبح فيلومتور ثمانية ملك مصر وحده أعاد سك نقود أرسينوى الثانية الذهبية ، وأصدر عملة برونزية تحمل على الوجه صورة زيوس آمون وعلى الظهر النسر الواقف على الصاعقة وأمامه زهرة اللوتس التي تميز نقود فيلومتور^(١) . وجدير بالملاحظة هنا قطعة نقود فضية يرجح أنها ترجع إلى العهد الذي أشرك فيه فيلومتور ابنه إيوباتور معه في الملك . وتحمل هذه القطعة على الوجه صورة بطلميوس الأول ، وعلى الظهر نسرأ واقفاً على الصاعقة وإلى جانبه حروف يرجح أنها تشير إلى سنى حكم فيلومتور وابنه إيوباتور^(٢) . ويمكن تقسيم حكم ايوارجتيس الثاني في مصر ، عقب وفاة أخيه فيلومتور ، فترتين : الأولى منذ تولى الحكم حتى فراره إلى قبرص ، والثانية منذ عودته من قبرص حتى وفاته . وتنتمي إلى الفترتين نقود فضية تتفق في طابعها وإن اختلفت فيما تحمله من رموز تشير إلى سنى الحكم ، لكن من العسير أن نجزم إطلاقاً هل كل هذه النقود أو بعضها ترجع إلى عهد بطلميوس فيلومتور أو بطلميوس ايوارجتيس الثاني . أما طابعها فهو على الوجه رأس بطلميوس الأول ، وعلى الظهر نسر واقف على الصاعقة وعبارة « الملك بطلميوس »^(٣) . أما النقود البرونزية التي سكّت في الفترة الأولى فإنها تحمل على الوجه رأس كليوبتره الأولى في شكل إيزيس وقد تدلت من رأسها خصل شعر طويلة وعصبت بسنابل القمح ، وتحمل على الظهر نسرأ واقفاً على الصاعقة وقد فتح جناحيه وعبارة « الملك بطلميوس »^(٤) . أما النقود البرونزية التي من الفترة الثانية فترينا على الوجه رأس كليوبتره الثانية أو الثالثة وقد غطيت بجلد الفيل ، وعلى الظهر نسرأ واقفاً على الصاعقة وقد فتح جناحيه وعبارة « الملك بطلميوس »^(٥) .

(1) Poole, p. LXVI, Pl. XX, 8.

(2) Poole, pp. LXVI — LXVIII, Pl. XXXII, 9.

(٣) نقود القسم الأول (Poole, p. 93, Pl. XXII, 1 — 4) ونقود القسم الثاني

(Poole, p. 98, Pl. XXIII, 9.)

(4) Poole, pp. 93 — 94, Pl. XXII, 5, 6.

(5) Poole, p. 98, Pl. XXIII, 10.

ويحسن أن نمالج سوياً نقود عهدى الأخوين بطلميوس التاسع سوتر الثانى و بطلميوس العاشر الإسكندر الأول ، لأن هذين العهدين متداخلان فى بعضهما بعضاً ، وفضلاً عن ذلك فإن النقود الفضية التى سكّت فى عهد هذين الملكين تحمل جميعاً على الظهر نسرأ واقفاً على الصاعقة وعبارة « الملك بطلميوس » ، وعلى الوجه رأس بطلميوس الأول ، لكن لهذه الرأس طابعين مختلفين اختلافاً غير جوهري . فعندما حكم بطلميوس التاسع مع أمه كليوبترة الثالثة ، كان شكل الرأس يشبه الشكل الذى صور على نقود بطلميوس الثامن^(١) . وعندما حكم بطلميوس التاسع بمفرده من ١١١ إلى ١٠٧/١٠٦ ، وجد هذا الشكل أيضاً^(٢) ، كما وجد كذلك شكل آخر صورت فيه معالم الوجه على نحو أدق^(٣) . وعندما حكم بطلميوس العاشر مع أمه وجد هذان الشكلان^(٤) كذلك ، لكن عندما حكم بطلميوس العاشر بمفرده لم يوجد سوى الشكل الأول القديم^(٥) . وليست نقود بطلميوس التاسع عندما استرد ملكه فى عام ٩٩ سوى تكرار للنقود الأخيرة التى سكها أخوه بطلميوس العاشر^(٦) . أما النقود البرونزية التى سكّت طوال عهدى بطلميوس التاسع والعاشر فهى فئة واحدة من حيث الطابع ، إذ نرى على الوجه رأس زيوس آمون ، وعلى الظهر نسرين واقفين على الصاعقة وأمامهما قرنى الرخاء ، لكن هذه النقود فئتان من حيث أنه نقش على الوجه فى الفئة الأولى عبارة « فى عهد الملكة كليوبترة » واختفاء هذه العبارة فى الفئة الثانية ، لكن نقش على الظهر فى الفئتين عبارة الملك بطلميوس^(٧) .

(1) Poole, p. LXXIX, Pl. XXVI, 4, 5, 6.

(2) Poole, loc. cit., Pl. XXVII, 1.

(3) Poole, loc. cit., Pl. XXVII, 2.

(4) Poole, loc. cit., XXVIII, 1, 2.

(5) Poole, loc. cit., Pl. XXVIII, 3, 4, 5.

(6) Poole, loc. cit., Pl. XXVIII, 8.

(7) Poole, loc. cit., Pl. XXVI, 7, 8.

وليس غريباً أنه لم تحصل إلينا نقود من عهد بطلميوس الحادى عشر الإسكندر الثانى ، فإنه لم يحكم سوى بضعة أسابيع . أما بطلميوس الثانى عشر الزمار ، فإن نقوده تمتاز بتصوير رأس بطلميوس الأول على الوجه ، ونسر واقف على الصاعقة وتحت جناحه الأيسر فرع نخلة وأمامه تاج إيزيس وعبارة « الملك بطلميوس » على الظهر . وقد صنعت هذه النقود الفضية من مزيج ردىء جداً ، لكن مما يجدر بالملاحظة أن النقود التى سكها بعد ما استرد عرشه فى عام ٥٥ بمساعدة جاينىوس^(١) كانت أحسن نوعاً من النقود التى سكها قبل هروبه إلى روما فى عام ٥٨^(٢) .

وقد سكت فى عهد كليوبترة السابعة نقود فضية وأخرى يرونية ، ويبدو أن الأولى سكت حوالى عام ٤٧ قبل إشراك أخيها بطلميوس الرابع عشر معها ، وأن الثانية سكت بعد إشراك ابنها بطلميوس قيصر معها ، كما يستدل من تصوير قرنى الرخاء على الظهر . لكن مما يجدر بالملاحظة أنه لم يرد ذكر لآى بطلميوس على النقود جميعاً ، فإن النقود الفضية تحمل على الوجه رأس هذه الملكة وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وتحت جناحه الأيمن فرع شجرة النخيل وأمامه تاج إيزيس وعبارة « الملكة كليوبترة »^(٣) . أما فى النقود البرونزية فنرى على الوجه صورة نصفية لسكليوبترة السابعة ، وعلى الظهر نسراً واقفاً على الصاعقة وأمامه قرنى الرخاء وعبارة « الملكة كليوبترة »^(٤) .

ومنذ الفتح المقدونى كانت العملة تسك فى مصر على قاعدة النظام الأتيكى ، لكن بعد أن اتخذ بطلميوس الأول لقب ملك بسنين قليلة أصدر عملتين فضية وذهبية أقل وزناً من العملة القديمة^(٥) . ولم تتفق العملة الجديدة اتفاقاً تاماً مع قاعدة

(1) Poole, pp. LXXX — LXXXI, Pl. XXIX, 3.

(2) Poole, Pl. XXIX, 1, 2.

(3) Poole, pp. LXXXIV, 122, Pl. XXX, 5.

(4) Poole, pp. LXXXIV, 123, Pl. XXX, 7, 8.

(٥) يعتقد البعض أن ذلك حدث قبل وفاة الاسكندر الرابع راجع

Milne, J. E. A., XXIV, 1938, pp. 201 -- 2.

أى عملة معروفة عندئذ ، لكنها كانت تقرب جدا من قاعدة النقد الرودى فى أواخر القرن الرابع . وبعد ذلك اتخذ بطليموس الأول خطوة أخرى عزلت النقد المصرى تقريبا عن العالم الهيلينسى لأنه أنقص وزن العملاتين الفضية والذهبية ثانية باتخاذ قاعدة شديدة الشبه بقاعدة العملة الفينيقية ^(١) . وقد احتفظ البطالمة حتى نهاية أسرهم بهذه القاعدة التى اتبعوها أيضا امبراطوريتهم البحرية ، وكذلك كل البلاد التى خضعت لنفوذهم . ويفسر ما أقدم عليه بطليموس الأول ، واحتفظ به خلفاؤه ، بماملين واحدهما الرغبة فى الموازنة بين قيمة العملة وأسعار المعادن النفيسة ، فقد كانت هذه الأسعار تزداد باطراد فى حالة الفضة وتتناقص فى حالة الذهب . والمامل الآخر هو الاعتبارات التجارية ، فقد كان البطالمة فى حاجة إلى مقادير وفيرة من العملة من أجل تجارتهم الشرقية ، وكانت هذه التجارة إلى حد كبير ، على الأقل فى بداية عهدهم ، فى قبضة المدن الفينيقية التى أصبحت خاضعة لهم . فضلا على ذلك فإنه كان للتجارة الشرقية ومنتجات مصر سوق رائجة فى الغرب ، حيث كان أكبر عميل لهم قرطاجنة ، تلك المدينة الفينيقية التجارية العظيمة ^(٢) . ومما يسترمى النظر أنه طالما بقيت فينيقيا فى قبضة البطالمة كانت أهم دور سك العملة عندهم فى المراكز الفينيقية الخاضعة لهم ، وهى صور وصيدا وبتوليميس (عكا) ويافا وغزة . ويبدو أنه عند ما خرجت فينيقيا من سيطرة البطالمة فى القرن الثانى قبل الميلاد لجأ البطالمة إلى دور السكة فى قبرص لسك عملتهم الفضية ، إذ أن كل العملة الفضية التى أصدرها البطالمة المتأخرون تحمل العلامات المميزة لدور السكة فى قبرص ^(٣) . وحتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد ، كانت الفضة هى القاعدة الأساسية

(1) Svoronos, pp. 18. ff., group. 1, Series 1; Rostovtzeff, p. 1636.

(2) Rostovtzeff, p. 399.

(3) Milne, J. E. A., XV, 1929, pp. 152 — 3; J. E. A., XXIV, 1938, p. 205.

للمعملة البطلمية^(١) . وقد أسلفنا أن هذه العملة كانت ثلاثة أنواع : أحدها من الذهب وثانيها من الفضة وثالثها من البرونز ، لكن يجب أن يلاحظ أن العملة الفضية كانت أكثرها شيوعا في عهد البطلمة الثلاثة الأوائل ، وأن القطعة الرئيسية في العملة الفضية كانت ذات أربع دراخمت وتدعى ستاتر (Stater) أو ترا دراخم (tetradrachm)^(٢) ، وأن العملة الذهبية كانت قليلة الاستعمال في الأسواق الداخلية ولا سيما أجل أنواعها ، وكانت قطعة ذات خمس دراخمت أصدرها بطلميوس الأول وتعرف باسم تريخروسون (trichryson) ، وكذلك قطعة ذات ثمانى دراخمت (octodrachm أو mnacion) ، وقطعة ذات أربع دراخمت (tetradrachm) من عهد بطلميوس الثانى ؛ وأنه على عهد بطلميوس الأول والنصف الأول من عهد بطلميوس الثانى لم تكن العملة البرونزية سوى عملة رمزية بمعنى أنها كانت لا تستخدم إلا باعتبارها أجزاء من الدراخمة الفضية ، لكنها فى النصف الثانى من عهد بطلميوس الثانى سكّت كميات كبيرة من العملة البرونزية الثقيلة الوزن^(٣) ليستخدمها الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن . وقد كانت الوحدة الرئيسية فى هذه العملة البرونزية هى الأوبول^(٤) وكان ينقسم إلى ثمانية أقسام تدعى خالكي (chalki) . ولعل بطلميوس الثانى قد أقدم على هذه الخطوة حين لاحظ ضعف السوق المحلية بالنسبة إلى السوق الخارجية وعدم اقبال المصريين على استخدام العملة الفضية ، وعلم أن المصريين كانوا أكثر ألفة بالبرونز فى معاملاتهم^(٥) . فقرر أن يصدر عملة تصادف هوى لدى المصريين ، ليقبلوا على استعمالها ويترتب على ذلك أن تطرد من التداول المحلى العملة الفضية والذهبية ، فتتكس هذه العملة فى الخزنة الملكية لاستخدامها

(1) Præaux, pp. 268 — 70.

(2) Grenfell, Silver and Copper Coinage of Ptoles., in Rev. Laws, p. 195.

(3) Svoronos, pp. 64. ff., group 3.

(4) Grenfell, p. 195.

(5) Præaux, p. 276.

في الأسكندرية والتجارة الخارجية وفي تقديم الاعانات السياسية^(١). وتشير الأدلة الأثرية والبردية التي من منتصف القرن الثالث إلى إقبال المصريين على العملة البرونزية الجديدة، إذ أن أكديس النقود التي عثر عليها في مصر وترجع إلى ذلك التاريخ لم تعد تتألف من العملات الفضية مثل أكديس أوائل هذا القرن وإنما من العملات البرونزية^(٢). وترينا « وثيقة الدخل » أنه في العام الرابع والعشرين من حكم بطلميوس الثاني كان كل دخل احتكار الزيت يحتسب بالعملة البرونزية. ونجد في مجموعة يترى البردية أن مبالغ كثيرة كانت تدفع بالعملة البرونزية في العام الحادي والثلاثين من حكم هذا الملك. ويشير كل ذلك إلى أن العملة البرونزية أصبحت تستعمل كثيرا في الأعمال الرسمية وغير الرسمية^(٣). وإذا كانت « وثيقة الدخل » ترينا أنه في حالة احتكار الزيت كان جباة الضرائب يقبلون العملة البرونزية بكامل قيمتها، فإنه حتى في عهد فيلادلفوس كان يحتم دفع ضرائب معينة بالفضة، وإذا لم يتيسر ذلك كانت تقبل العملة البرونزية مع خصم ١٠٪ عادة من قيمتها^(٤). وقد كانت نسبة قيمة الفضة إلى قيمة البرونز في عهد فيلادلفوس ١ : ٦٠^(٥).

وقد عني بطلميوس الثاني بالألا تستعمل في الأسواق المصرية سوى العملة البطلمية، ويتضح لنا ذلك بجلاء من خطاب أرسله ديمتريوس، رئيس دار

(1) Rostovtzeff, p.p. 400 — 1.

(2) Milne, J. E. A., 24, 1938, p. 204.

(3) Grenfell, p. 195.

(4) Grenfell, pp. 199 — 200.

(5) Cf. Préaux, p. 277; Reekmans, Econ. and Social Repercussions of the Ptol. Copper Inflation, Chrouique, 48, 1949. p. 324.

وقد كان تقدير النسبة بين قيمة الفضة وقيمة البرونز موضع جدل شديد بين العلماء. ونجد خلاصة الآراء المختلفة في هذا الموضوع في مؤلف Th. Reinach سالف الذكر ص ١٤٠ — ١٤٦. ويعزى فضل نقد الرأي السائد قبلا وهو القائل بأن هذه النسبة كانت ١ : ١٢٠ إلى جرافل وهنت وسمايلي في مجلد 580—603 P. Tebt. I, App. II. وقد كان لترون (Letronne) هو الذي وصل صدقة إلى نسبة ١ : ٦٠ ولم يلبث هايشنهايم أن أثبت صحة هذا الرأي (B. G. U. VII, pp. 274—5; Wirtsch. Schw. p. 13).

(م ١٢ — البطالة)

السكة في الإسكندرية ، إلى أبولونيوس وزير المالية^(١) . فقد ورد في هذا الخطاب بعد الديباجة ما يأتي : « ... تسلمت ... ٥٧ دراخمة (؟) من الذهب رددتها ثانية بعد إعادة سكها . ولقد كان في الإمكان أن يزيد ما تسلمناه على ذلك مرات عديدة لو أنه ، كما كتبت لك من قبل — عندما ينزل هنا الأجانب وبوجه خاص كبار التجار ورجال الأعمال ، وقد أحضروا معهم من بلادهم نقودهم الجيدة ونقودنا القديمة (trichrysa)^(٢) ليستبدلوا بها نقوداً جديدة وفقاً للأمر الملكي الذي يقضى بأن نأخذها ونعيد سكها — لم يمنعني فيلاريس (Philaretes) من قبول تلك النقود ، متذرعاً بحجة أننا لا نعرف من الذي نستطيع الاتصال به في هذا الشأن ، وأننا مرغمون على ألا نقبل كل هذا القدر . وفي الواقع إن هؤلاء الأشخاص ناقون ، لأننا لا نقبل ذهبهم لا في البنوك ولا في ... فلا يستطيعون إرسال عملائهم في البلاد لشراء البضائع منها . ويقولون إن ذهبهم يبقى معطلا وأنه تلحق بهم أضرار فادحة ، لأنهم أحضروه من الخارج ولا يستطيعون التصرف فيه حتى مع خسارة شيء في استبداله .

« ويرى أهل المدينة غضاضة في استعمال القطع الذهبية البالية ، لأنهم لا يعرفون أين يقيمون الدليل على قيمتها ويحصلون على قطع ذهبية أو فضية جميلة وجديدة بدلا من هذه القطع القديمة بعد النزول عن جانب من قيمتها . وإنى لأرى أنه تحقيق بدخل الملك خسائر فادحة بسبب ما يحدث في هذا الصدد ، ولذلك أكتب إليك لتكون على علم بمجريات الحوادث ، ولتكتب للملك في هذا الموضوع إذا تراءى لك ذلك ، ولتخبرني بمن نستطيع الإتصال فيما يتعلق بهذه المسائل . وإنى لأرى من الخير أن يأتي من الخارج أكبر قدر

(1) P. Cairo — Zenon, 59021.

(٢) لقد مر بنا أن trichryson عملة ذهبية ذات خمس دراخات سكها بطليموس الأول على قاعدة العملة الفينيقية . وكانت هذه القطعة تساوي ٦٠ دراخمة من الفضة راجع : (A. Segré, Metrologia, p. 261.) .

يمكن من الذهب ، وأن تكون نقود الملك دائماً جميلة وجديدة دون أن يتحمل نفقات نتيجة لذلك .

« وليس من الخير أن أروى لك كيف يعاملوننى فى بعض النواحي ، لكنك ستعرف كل شيء بمجرد وصولك . . . أكتب لى عن هذا الموضوع لأستشير برأيك فى تصرفاتى . وإنى لأرجو لك العافية . العام الثامن والعشرون ، ١٥ من شهر جوربيايوس (Gorpaios) » .

وبين أن بطلميوس الثانى أصدر بين العام العشرين والعام الثلاثين من حكمه سلسلة من الأوامر تحوى تشريعاتاً مالياً كاملاً كان تنظيم النقد جزءاً منه ، فإن أمراً ملكياً (prostagma) قضى بأن تؤخذ القطع الأجنبية ويعاد سكها هى وقطع النقد البطلمية القديمة . وقد أصدر وزير المالية مذكرة تفسيرية لهذا الأمر الملكى ، كما جرت به العادة ، ومع ذلك لم توضح بعض التفاصيل المتعلقة بتقدير القطع التى يعاد سكها . ولذلك تعذر تنفيذ الأمر الملكى كما يتضح من الخطاب الآنف الذكر ، الذى يرينا كيف أنه فى الإدارة البطلمية كان قصر نظر الرؤساء المنوط بهم عمل واحد ، والعداء الشخصى بينهم بعطالان مفعول أكثر القوانين إتزاناً .

ويعتبر هذا الأمر الملكى نقطة هامة فى تاريخ النقود المصرية ، فإن البطالمة كانوا يسكون النقود منذ خمسين عاماً قبل ذلك ، لكن يبدو أنهم لم يفرضوا قبل صدور هذا الأمر الملكى ألا تستخدم فى صفقات البيع والشراء سوى العملة البطلمية التى أعطاها بطلميوس الثانى آخر صفة كانت تنقصها لتصبح عملة حقيقة ، ألا وهى إستعمالها دون سواها فى البلاد . ولعل فيلادلفوس قد اقتفى فى ذلك أثر العادة المألوفة منذ عهد طويل فى الدول الإغريقية^(١) ويشبه هذا الأمر الملكى قرار أولبيا (Olbia) الذى قضى بأن « كل عملية بيع أو شراء يجب أن تتم بعملة المدينة »^(٢) .

(1) Préaux, pp. 272 — 273.

(2) Dittenberger, Syllogae, I. 3rd. ed., 218.

ولما كان جانب من النقود التي تحول على هذا النحو إلى نقود بطلمية لا يصرف في مصر ، فإن هذا الإجراء كان يساعد على تنفيذ سياسة البطالة التي ترمي إلى نشر النقود البطلمية في الإمبراطورية . ويلاحظ أن الأمر الملكي الخاص بإعادة سك النقود الأجنبية والنقود البطلمية القديمة قد صدر عقب ارتفاع قيمة الذهب^(١) ، فكانت إعادة سك القطع القديمة تسمح بتعديل قيمتها الاسمية وتمكن الملك من الحصول على أعلى قيمة ممكنة لنقوده الذهبية . وكان التجار كذلك يجدون هذا التعديل في مصالحهم ، ولهذا السبب كانوا حريصين أشد الحرص على تطبيق الأمر الملكي ، فلا عجب إنه لم يثر في مصر على نقود أجنبية بعد عصر فيلادلفوس^(٢) . ويتبين من عبارة ديمتريوس التي تقول : « وإنى لأرى من الخير أن يأتي من الخارج أكبر قدر ممكن من الذهب ... » أن الإدارة الملكية كانت ترى في شراء الأجانب المنتجات المصرية إحدى وسائل تدفق الذهب على البلاد ، ولذلك لم تأل جهداً في العمل على النهوض بالمنتجات المصرية التي يشتريها الأجانب .

وإلى جانب ذلك يرينا ديمتريوس كيف كانت تتلاقى مصالح الملك والتجار الأجانب ، فقد كان هؤلاء يتدمرون من بقاء ذهبهم معطلا ، لأنهم كانوا يقدرون الأرباح التي يستفيدونها من وراء بيع المنتجات المصرية . ويرينا ذلك أنه على الرغم من الضرائب التي كان الملك يفرضها ، فإن أسعار المنتجات كانت تبقى بعد ذلك أقل من أسعارها في عالم البحر الأبيض . ومن أجل الاحتفاظ بهذه الحالة التي تجتذب الذهب الأجنبي ، كان يتحتم على الملك أن يتخذ كافة الوسائل السياسية والاقتصادية لجعل تكاليف الإنتاج أقل ما يمكن مع الحصول في نفس الوقت على أكبر قدر ممكن من الضرائب على المنتجات المصرية . ولذلك كان يتمين عدم رفع أجور المنتجين في داخل البلاد ، وتبعاً لذلك عدم

(1) Cf. Heichelhaim, Wirtschaftliche Schwankungen, p. 12.

(2) Préaux, p. 274; Noe, A. Bibliography of Greek Coin Hoards, indices.

رفع مستوى معيشتهم . وبما أن حاجات الفلاح المصرى والصانع المصرى قليلة ، فإن ذلك كان يسهل تحقيق هذه المرامى . وهكذا نجد أن مصالح فيلادلفوس والتجار الأجانب كانت تتطلب بقاء الحالة الاجتماعية للمنتج المصرى وضيعة ، غير أن انحطاط مستوى الحياة بين السواد الأعظم من سكان مصر كان سلاحاً ذا حدين لأن ذلك الانحطاط جعل قوة الشراء فى الأسواق الداخلية قليلة ، فإذا أدت الظروف إلى اختفاء المعيل الأجنبى ، فإن الأسواق الداخلية كانت تعجز عن إمداد الخزانة الملكية بالمال اللازم . ويرينا إذن خطاب ديمتريوس حجب الزاوية فى البناء الاقتصادى الذى شيده البطالة الأوائى ، كما يرينا كذلك موضع الضعف فى هذا البناء .

وعندما أخذت حالة مصر الاقتصادية تسوء منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث وترتب على ذلك نقص مقادير الفضة التى كانت مصر تحصل عليها من الخارج ، كان طبيعياً أن يفضى كل ذلك فى أواخر القرن الثالث إلى تضاعف قيمة العملة الفضية^(١) . ويستوقف النظر أمران : وأحدهما أن سعر أردب

(١) يعتقد هـايشلهام (Heichelheim, Wirtsch. Schwaukungen, pp, 24- 5) أن مصر أصدرت فى عامى ٢٢٥ و ٢٢١ عملة فضية غير نقية . ويفسر ما جاء فى إحدى وثائق بطلميوس الرابع (U. P. Z., 149, I. 32) بأن الناس كانوا يدفعون عندئذ ١٧ دراخمة من الفضة الرديئة لقاء أربع درامات من الفضة الجيدة ، ومعنى ذلك أن العملة الفضية الجديدة كانت تحتوى ربع ما فى العملة القديمة من الفضة أما سجرىه (A. J. Segré, Ptol. Copper Inflation, in A. J. Milne, The Currency of Egypt under Ptoles., J. Philolog, 63, 1942, p. 178. J. E. A., 24, 1938, p. 204) فيعتقدان أن مبلغ الست عشرة دراخمة الذى ورد ذكره فى الوثيقة المشار إليها عبارة عن درامات بروترية وليست درامات فضية . ويرى ميلان أن هذه الوثيقة تدل على أنه فى أواخر القرن الثالث ازدادت قيمة العملة الفضية إلى حد أن أربع درامات فضية أصبحت تساوى ١٦ دراخمة بروترية ، بينما يرى سجرىه أن هذه الوثيقة كتبت بعد رفع القيمة الاسمية للعملة البروتريية إلى أربعة أمثالها .

وإذا كان البعض يأخذ برأى هـايشلهام القائل بإصدار عملة فضية رديئة فى عهد بطلميوس الرابع (Préaux. p 277) فإن أكثر الباحثين لا يرون له مبرراً لأنه يستند إلى النتائج التى استخلصها صاحبه من الوثائق البردية وهذه النتائج غير مقنعة ، كما يستند إلى أدلة التوميات مع أنه لم يعثر بينها على أمثلة من ذلك الوقت تحتوى على ذلك القندر الضئيل من الفضة Rostovtzeff, S. E. Ch. V, note 131; Reekmans, The Ptolem. Copper Inflation, in Studia Hellenistica, 7, 1951, p. 65.

القمح بلغ ٧ ¼ دراخمة برونزية في النصف الأول من عهد بطلميوس الرابع^(١) ، بعد أن كان متوسط سعر إردب القمح في الماضي دراخمة ونصف دراخمة^(٢) . والأمر الآخر أن عقود إيجار الأراضي التي كانت تزرع حبوباً في ذلك العهد تفرض دفع ١٠ دراهمات عن كل إردب من القمح يعجز المستأجر عن أدائه حتى الموعد المضروب لسداد الإيجار^(٣) ، على حين أن هذه الغرامة في الماضي كانت لا تتجاوز ٤ دراهمات^(٤) ، علماً بأن القاعدة العامة التي تنظم سداد الديون كانت تقضى بأن المدين الذي يعجز عن الوفاء بدينه يُطالب بدفع الدين الأصلي مضافاً إليه ٥٠ ٪ منه^(٥) .

ولا ريب في أن عهد بطلميوس الرابع قد شهد تدهوراً في الزراعة لم ترمصر له مثيلاً من قبل ، نتيجة لنقص اليد العاملة بسبب الحرب السورية الرابعة وما أعقبها من ثورات قومية ، وكذلك نتيجة لسوء الإدارة الداخلية^(٦) . ولا ريب أيضاً في أنه كان طبيعياً أن يؤدي ذلك التدهور إلى ارتفاع أسعار الحبوب الغذائية عما كانت عليه من قبل ، وإلى استمرار هذا الغلاء عدة سنين . ومع ذلك فإنه يصعب أن نعزو إلى سوء الحالة الاقتصادية وحده ارتفاع السعر إلى خمسة أمثال ما كان عليه في المهود السابقة ، ولا سيما أنه مهما بلغت الحالة الاقتصادية من السوء في عصر بطلميوس الرابع فإنها لم تكن أسوأ مما كانت عليه في بداية القرن الأول قبل الميلاد في أعقاب فترة طويلة من الفوضى والاضطرابات الداخلية ،

(1) U. P. Z. 149, l. 24.

(2) P. C. Z. 59499, l. 5; 59698, l. 5; P. Petrie III, 47 (a) l. 3 (١ ¼ دراخمة) ; P. C. Z. 59499, l. 7; P. Col. Z. 54, l. 16 (١ ¾ دراخمة) .

(3) B. G. U. 1262 (216/5 B. C.) l. 13; 1264 (215/4 B. C.) ll. 22/3; 1265 (214/3 B. C.) l. 20; P. Frakf. 1 (214/3) l. 23.

(4) P. Loeb. 3, l. 18 (306/5 B. C.); P. Hib. 84 a ll. 8/9 (301/0 B. C.); P. Hib. 65, l. 24. (265 B. C.); B. G. U. 1226, l. 18 (260/59 B. C.); P. Hib. 90, l. 15 (221 B. C.),

(5) Cf. P. Grenf. I, 20; II, 18 (127 B. C.).

(6) Polyb. V, 34, 3 — 4.

فقد بلغ سعر القمح عندئذ أقصى ارتفاعه وكان يباع بما يقابل أربع دراخمت (١) . فلابد إذن من تفسير ما حدث بعاملين : أحدهما سوء الحالة الاقتصادية ، والآخر رفع القيمة الإسمية للعملة البروزية إلى الضعف ، أى أن السعر الحقيقي للأردب كان ٣٣ دراخمة أى مرتين ونصف مرة ما كان عليه السعر قبل عام ٢٢١ ، لكن مضاعفة القيمة الإسمية للعملة البروزية قفز به إلى ٧٣ دراخمة . ولذلك يبين أنه بين عامي ٢٢١ و ٢١٦ ق . م . أى حين كانت مصر تبذل أقصى جهدها في الاستعداد للحرب السورية الرابعة ، رفع بطلميوس الرابع القيمة الإسمية للعملة البروزية إلى الضعف لينقص تكاليفه الفعلية فيما كان قد تعاقد عليه بالعملة البروزية قبل إجراء هذا التغيير النقدي ، مثل أجرة فئات مختلفة من المشتغلين في خدمة الإدارة والجيش والمصانع الحكومية . ولم يتأثر بهذا الإجراء المالى إلا الطبقات الدنيا من مستخدمي الحكومة ، لأن هذا الإجراء لم يعس إلا العملة البروزية التي كانت تصرف لهم مرتباتهم وأجورهم بمقتضاها ، على حين أن كبار الموظفين كانوا يأخذون مرتباتهم بالعملة الفضية (٢) .

ولم تسكن هذه أول مرة يلجأ فيها حاكم إحدى الدول إلى رفع القيمة الإسمية للعملة للوفاء بالتزاماته ، فقد جاء في كتاب « علم الاقتصاد » الذي يعزى إلى أرسطو أن ديونيسيوس طاغية سيراكوز « اقترض من الشعب أموالا وعده بردها إليهم ، وعندما طالبوه بالوفاء بوعده أمرهم بإحضار كل ماله من فضة وإلا فجزاؤهم الموت . وعندما أحضروا له الفضة سك منها دراخمت وجعل القيمة الإسمية لكل دراخمة دراختين وبهذه الدراخمت سددينه السابق (٣) » . ومعنى هذا أن ديونيسيوس استولى على الفضة ثم أعاد إصدارها بقيمة جديدة درت عليه ربحاً ١٠٠ ٪ ، لكنه لا يوجد دليل على أنه قد سحب زفع قيمة العملة البروزية

(1) Cf. P. Tebt. 120 l. 44.

(2) Reekmans, pp. 61 — 69

(3) Pseud — Arist , Oecon II, 2, 20.

في مصر سحب العملة القديمة وإعادة إصدارها بحد وضع علامة عليها تبين قيمتها
الإنشائية الجديدة .

ورينا الوثائق البردية التي ترجع إلى النصف الثاني من عهد بطلميوس الرابع
والجانب الأكبر من عهد بطلميوس الخامس (٢١١ — ١٨٧ ق . م .)
وهي فترة يمكن وصفها بفترة الانتقال من القرن الثالث إلى القرن الثاني ، ترينا
أن الأجور اليومية — التي كان أرباب الأعمال يدفعونها لمن في خدمتهم —
كانت تدفع بالعملة البرونزية وتتراوح بين ٥ دراخات و ٢٠ دراخمة^(١) . وحيث
أن الأجور عند منتصف القرن الثالث كانت تتراوح بين ٢ أو ٣ أو ٤ أو ٥
دراخمة و ١٠ دراخمة ، فإن معنى ذلك أنها بلغت في فترة الانتقال ستين ضعفاً
للأجور المماثلة في عهد بطلميوس الثاني و بطلميوس الثالث^(٢) . وترينا برديتان من أواخر
القرن الثالث أو أوائل القرن الثاني^(٣) أنه كان يتم دفع ٣٠٠ دراخمة لجامعي
ضريبة الأيومورا عن كل مترتس من النبيد لايسلم نوعاً . وهذا التقدير أيضاً

(١) خمس دراخات (P. Tebt. 884 (211 B. C) l. 61)

P. Tebt. 885 (200 B. C.) l. 29; B. G. U. 1512 (210 — 5 or 193 — 187 B. C.) l. 11; .

BG U. 1518 (210 — 5 or 193 — 187 B. C.) l. 15 (عشر دراخات)

B G U. 1507 (206/5 or 189/8 B. C.) l. 13; B G U 1538 (210/5 or 193 — 187 B. C.) l. 4; B G U 1541 (210/5 or 193/187 B. C.) l. 2 (خمس عشرة دراخمة)

O. Mich. I (209/8 B. C.) l. 7; P. Tebt. 1080 (Late 3rd Cent. B. C.); B G U. II, 2, 8, 10, 19 (2nd Cent.) (عشرون دراخمة)

(٢) راجع : PSI, 332, l. 24; P—C—Zen. 59176, l. 119; (نصف أويل) ،
P. C — Zen. (أويل واحد) . P. S. I 332, l. 10; P. C — Zen. 59176, II, 220, 314;
P. C — Zen. 59788, II, 2, 26 (أويلان) ؛ 59701, l. 2; P. S. I. 332, l. 20)
(أويل ونصف أويل) II. 4, 7, P. S. I, 672

أما الأجور في النصف الأول من عهد بطلميوس الرابع أي بين عام ٢٢١ و ٢١١ فليست
لدينا معلومات عنها

(3) P. Tebt. 1062, l. 2; B G U. 1562, l. 2.

يمادل ٦٠ مرة التقدير الذى نصت عليه وثيقة الدخل فى عهد بطلميوس الثانى (١). أما سمر أردب القمح فإنه كان يتراوح بين ١٢٠ و ١٨٠ دراخمة (٢)، أى أنه كان يتراوح بين ٨٠ و ١٢٠ ضعفاً لما كان عليه قبل عصر بطلميوس الرابع. ومعنى ذلك أن الأجور وأن ارتفعت بنفس المعدل الذى ارتفعت به الأموال الأميرية فإن ارتفاع الأجور لم يتناسب إطلاقاً مع ارتفاع أسعار الحاجيات.

ولا يمكن أن يكون مرد الفارق الشاسع بين الأجور والأسعار فى هذه الفترة وفى الفترة التى سبقتها إلى أثر العوامل الاقتصادية، ولا يمكن أن نتصور أن تكون القيمة الاسمية للعملة البرونزية قد رفعت حتى أصبحت على الأقل ٦٠ مرة مثل ما كانت عليها قبل عام ٢٢١ ق. م. لابد إذن من أن يكون السبب هو أن مصر اتخذت منذ عام ٢١١ ق. م. البرونز قاعدة أساسية للنقد. ويمكن استخلاص وزن الدراخمة البرونزية بعد استحداث هذا التغيير من أنها كانت تساوى $\frac{1}{3}$ من الداخمة البرونزية حين كانت الفضة هى قاعدة النقد وقبل رفع قيمتها الاسمية (أى أنها كانت تساوى $\frac{1}{3}$ من تلك الدراخمة بعد هذا الرفع)، ومن أنه فى عهد بطلميوس الثانى كانت العملة التى تمثل دراخمة برونزية تعادل نظرياً وزن ٣٠ دراخمة فينيقية (= ١١٠ جرام تقريباً) (٣)، ومن ثم فلا بد من أنه فى الفترة الممتدة من عام ٢١١ حتى عام ١٨٧ ق. م. كان وزن الدراخمة البرونزية (٤).

(١) نصت وثيقة الدخل (P. Rev. Laws, Col. 30, l. 20. -- Col. 31, l. 6) على تحويل ضريبة الايومورا إلى ضريبة نقدية بمعدل ٦ دراخمت برونزية عن المترتس الواحد فيما عدا منطقة طيبة حيث يكون المعدل خمس دراخمت.

(2) P. Petrie II, 32, و (١٢٠ دراخمة) (P. Tebt. 916, l. 5 (184? B. C.)) و (١٥٠ دراخمة) (B. C. U. 1523 l. 13 (210/5 or 197 B. C.)) و (١٨٠ دراخمة) (208/7 or 190/189 B. G.) و (1505, l. 3 (193/187 B. C.)).

(3) Milne, p. 34.

(٤) يعتقد ميلن (in Liverpool Annals I, 1908, pp. 34 -- 5) أن بطلميوس الثالث عدل عن النسبة بين الفضة والبرونز التى كان معمولاً بها فى نقود فيلادلفوس وأصدر عمله =

البطلمية مثل نصف وزن الدراخمة الفينيقية^(١) (أى $\frac{1}{6}$ جراماً تقريباً) . ويجب أن يلاحظ أنه إذا كان اتخاذ البرونز قاعدة أساسية للنقد البطلمى قد أدى إلى ازدياد تداول العملة البرونزية مع ما يقابل ذلك من نقص تداول العملة الفضية ، فإنه لم يؤد إلى القضاء كلية على قاعدة الفضة^(٢) .

ويعزى اتخاذ البرونز قاعدة أساسية للنقد البطلمى إلى أن الحرب السورية الرابعة استنفدت احتياطي مصر من الفضة في وقت تعذر عليها فيه تكوين احتياطي جديد بل سد حاجتها من هذا المعدن . فقد كانت تجارة مصر الخارجية المصدر الرئيسى لما تحصل عليه من الفضة ، وفي الشطر الثانى من عهد بطلميوس الرابع تأثرت هذه التجارة إلى حد كبير بماملين : وأحداها اندلاع لهيب الثورات القومية في مصر ، والعامل الآخر دخول الحرب البونية الثانية في دورها الخامس . وعندما فقدت مصر أغلب ممتلكاتها الخارجية في عهد بطلميوس الخامس وحرمت تبعاً لذلك الفضة التي كانت تلك الممتلكات تدرها عليها من الضرائب واستغلال المناجم فيها والتجارة معها ، ازداد نقص ما كانت مصر تحصل عليه من الفضة ، فتأثرت نتيجة لذلك عملة البطالمة الفضية ، حتى أنه منذ بداية القرن الثانى قبل الميلاد غدا من المتمذر الاحتفاظ بنقائها بوجه عام . ويمكن أن نميز الفئات التالية بين العملة الفضية المتداولة في بداية القرن الثانى :

أولاً : فئة صغيرة من القطع ذات الأربع دراخمت التي صنعت في عهد سابقة من فضة نقية .

= برونزية أقل وزناً مما كانت عليه في الماضى ، وأن خلفاءه استمروا قى انقاس وزن العملة البرونزية إلى أن أعادت كليوبتره السابعة النسبة التي كانت متبعة في عهد فيلادلفوس . لكن مقارنة أوزان عملة أمثلة من العملة البرونزية التي سكها خلفاء فيلادلفوس تنقص هذا الرأى وتدل على أن نسبة فيلادلفوس بقي محتفظاً بها حتى عهد بطلميوس ايوارجيس الثانى (Reekmans, p. 72 fn. 4, p. 105 fn. 2.

(1) Reekmans, pp. 69 -- 73.

(2) Grefnoll, p. 215.

ثانياً : فئة القطع المعاصرة الشائعة وفضتها أقل نقاء من فضة العملة التي كانت تسك في الماضي .

ثالثاً : فئة صغيرة من القطع المعاصرة تمتاز بأن فضتها أكثر نقاء من فضة الفئة السابقة .

رابعاً : فئة صغيرة من القطع سكّت بعد عام ٢٠٠ ق . م . ونسبة ما فيها من فضة منخفضة انخفاضاً شديداً .

وبطبيعة الحال كانت أسعار قطع الفئات المختلفة تتوقف على زيادة أو نقص ما فيها من فضة بالقياس إلى قطع الفئة الثانية التي وصفناها بالقطع المعاصرة الشائعة (١) .

ولما كانت حال البلاد الاقتصادية قد أخذت تسير من سوء إلى أسوأ ونقصت تبعاً لذلك موارد البطالة بينما لم تنقص التزاماتهم ، فانهم لتخفيف هذه الالتزامات على حساب سكان البلاد لجئوا من جديد إلى زيادة القيمة الاسمية للعملة البرونزية . وقد فعلوا ذلك ثلاث مرات منذ حوالي عام ١٨٢ ق . م . حتى آخر عهدهم بحكم مصر . وبيان ذلك أن عدداً من الوثائق من آخر حكم بطلميوس الخامس ، وعلى وجه التحديد من عامي ١٨٢ و ١٨١ ق . م . ، يرينا أن الأجور التي دفعها أرباب الأعمال كانت تتراوح بين ١٠ دراخات و ٣٠ دراخمة (٢) ، أي أنها كانت ضعف الأجور المائلة في فترة الانتقال ، ومعنى ذلك أنها كانت ١٢٠ مرة كالأجور المائلة في عهد بطلميوس الثاني والثالث . وتحدث وثيقة من عام ١٧٣ ق . م . (٣) عن ضرورة دفع ٥٠٠ دراخمة

(1) Reekmans, pp. 75 — 70.

(2) P. Mich. 200 (181 B. C.) verso III, l. 10 (١٠ دراخات) ; verso II, l. 1 (٢٠ دراخمة) ; verso 1, ll. 2 — 6 (٢٥ دراخمة) ; verso 1, ll. 9 — 12 (٣٠ دراخمة) ; P. Tebt. 886 (C. 182 B. C.) l. 140 (١٥ دراخمة) ; ll. 40, 62, 90 (٢٠ دراخمة) ; l. 24 (٣٠ دراخمة) .

(3) P. Amherst II, 43, l. 12.

برونزية في مقابل كل أردب من القمح لا يسدد في الموعد المضروب . وهذا السعر يكاد أن يكون ضعف مبلغ ٢٤٠ دراخمة الذي كان في فترة الانتقال . يعتبر معادلا لمبلغ الأربع دراخمت الذي كان مقدار هذه الغرامة في الأصل . أى أن الغرامة أصبحت ١٢٠ مرة مثل ما كانت عليه حتى أواخر القرن الثالث . لكن لسوء الحظ ليست لدينا معلومات عن مستوى أسعار الحبوب في هذه الفترة^(١) .

ولا بد من أن ارتفاع الأجور إلى هذا الحد كان تتيحة للضائقة الاقتصادية التي استحكمت حلقاتها بعد أن فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية وتأجج إوار الثورة في البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، فتمطلت مرافقها الاقتصادية مما اضطر الحكومة مرة أخرى إلى رفع القيمة الاسمية للدراخمة ، فأصبح وزنها ربع وزن الدراخمة الفينيقية . بعد أن كان قد هبط إلى النصف في الفترة السابقة^(٢) .

وتشير الوثائق التي من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إلى أن الأجور قد أصبحت تتراوح بين ٢٠ و ٨٠ دراخمة^(٣) ، أى أنها بلغت ضعف ما كانت عليه في الفترة السابقة أو أربعة أمثال ما كانت عليه في فترة الانتقال أو ٢٤٠ مرة ما كانت عليه في عهد بطلميوس الثاني والثالث . وتحدثنا وثيقة بردية من عام ١٣٦ ق . م .^(٤) بأنه كان يتمين دفع ١٥٠٠ دراخمة برونزية لجامعى ضريبة

(١) ويرى ريكمانس (ص ٨٢ — ٨٣) أنه حوالى عام ١٨٠ ق . م . كانت القطعة الفضية الشائعة ذات الأربع دراخمت (ستاتر) تساوى ٤٨٠ دراخمة برونزية ، أما الستاتير المصنوع من الفضة النقية فكان يساوى حوالى ضعف ذلك أى حوالى ٩٦٠ دراخمة . لكن روستوفتوف (ص ٧١٩) يستخلص من بردية (P. Mich. 182, 1, 49) ترجع إلى عام ١٨٢ أن الستاتير المصنوع من الفضة النقية كان يساوى ١٧٢٨ دراخمة برونزية ، بينما يمكن تفسير وثيقة بردية أخرى (P. Land. 146, IX, 1, 15) من حوالى هذا الوقت على أن السعر كان ١٥٤٠ دراخمة برونزية .

(2) Reekmans, pp. 81 — 5.

(3) BCU. 1.1258, 6 (153 or 143 B. C.) (٢٠ دراخمة) ; UPZ. 99 (158 B. C.) 1.5 (٢٠ دراخمة) ; P. Tebt. 893, 1-6 (٨٠ دراخمة) ; (٥٥ دراخمة) .

(4) P. Tebt. 766.

الايومويرا لقاء كل مترتس لايسلم نوعا . وهذا المبلغ يعادل تقريبا الست دراخات التي كانت وثيقة الدخل تفرضها في عهد بطلميوس الثاني والثالث في كل أنحاء مصر فيما عدا منطقة طيبة حيث كان المعدل خمس دراخات فقط . وفضلا عن ذلك فقد جاء في وثيقة من عهد بطلميوس السادس^(١) أن سعر مترتس الزيت كان ٨٦٤٠ دراخمة وهو سعر يعادل تماماً أربعة أمثال السمر (٢١٦٠) الذي ورد في وثيقة من بداية القرن الثاني^(٢) . ويتبين من وثائق مختلفة أن سعر أردب القمح في هذه الفترة كان يتراوح بين ٥٠٠ دراخمة و ٩٠٠ دراخمة^(٣) أى أنه كان يتراوح بين ٣٧٥ و ٦٠٠ ضمناً لما كان عليه قبل عصر بطلميوس الرابع .

ويعزى هذا الارتفاع في الأحور والأسعار إلى التبعاء الحكومة من جديد إلى رفع القيمة الإسمية للدراخة البرونزية حوالى عام ١٧٠ ق . م . فاصبح وزنها $\frac{1}{2}$ وزن الدراخة الفينيقية^(٤) بعد أن كان قد هبط في الفترة السابقة إلى النصف . ومرد هذا التعديل الجديد إلى الآثار السيئة المترتبة على الحرب السورية السادسة ، ولاسيما على ما أنزله جنود أنطيوخوس الرابع من الدمار بمرافق البلاد ، وكذلك على الآثار الناجمة عن النزاع الأسرى الذى احتدم طويلا بين بطلميوس السادس وأخيه الصغير ، وضاعف من نتائج السيئة الثورة التى قام بها ديونيسيوس يتوسيرايس ورجعت البلاد أضدادها ، مما اضطر بطلميوس السادس إلى زفع القيمة الإسمية للعملة البرونزية تخفيفا لالتزاماته . ولم تقنع الحكومة بهذه المغنم فقد كانت تمضى في جشعها إلى حد أنها كانت تستبدل جانبا من مرتب الجنود من القمح وتدفع لهم بدلا من ذلك نقوداً على أساس سعر يقل كثيراً عن سعر السوق ، إذ تحدثنا

(1) P. Tebt. 891, l. 15.

(2) P. Tebt. 997, l. 8.

(3) P. Tebt. 910 (162 B. C.) l. 3 (٥٠٠ دراخمة)

U P Z. 91, l. 7 = 92 III, l. 8 (٦٢٥ دراخمة)

U P Z. 91, l. 9, 92 = III, l. 10 (٨٠٠ دراخمة)

(٩٠٠ دراخمة) (159 B. C.) U P Z. 69, l. 8 ; U P Z. 91, l. 10 (٨٠٠ دراخمة)

(4) Reekmans, pp. 85 — 94.

وثيقة عام من ١٥٧ ق. م. بأن شخصاً يدعى ابولونيوس التتحق بالجيش بمرتب شهري قدره ١٥٠ دراخمة من البرونز وثلاثة أراذب من القمح، لكن أعطى قيمة أردبين منها نقداً بمعدل ١٠٠ دراخمة للأردب^(١)، حين كان سعر السوق يتراوح بين ٥٠٠ و ٩٠٠ دراخمة على نحو ما رأينا .

وتشير القرائن إلى أنه في خلال القرن الأخير من حكم البطالمة تضاعفت من جديد الأسعار والأجور عما كانت عليه في منتصف القرن الثاني، أي أنها غدت ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث . فقد نص في كثير من عقود^(٢) هذه الفترة على ضرورة دفع ٣٠٠٠ دراخمة برونزية عن كل أردب من القمح لا يرد أو يسلم في الموعد الموعود . وجلى أن هذا المبلغ أربعة أمثال مبلغ ٥٠٠ دراخمة الذي أشرنا إلى أنه كان يتعين دفعه في عام ١٧٣ وثمانية أمثال تقريباً لمبلغ ٢٤٠ دراخمة في فترة الانتقال وخمسة مرة لمبلغ الأربع دراخات الذي كان يدفع في مثل هذه الحالة في عهد بطليموس الثاني والثالث .

ويبين من الوثائق أن سعر أردب القمح في السوق كان يتراوح بين ٨٠٠ و ٢٠٠٠ دراخمة برونزية^(٣) وهو تقريباً ضعف السعر في الفترة السابقة . وقد ورد في ثلاث وثائق^(٤) أن سعر مترتس الزيت ١٧٢٨٠ دراخمة وهو يماثل تماماً ضعف ما كان عليه في الفترة السابقة وكان ٨٦٤٠ دراخمة^(٥) . وتدل الوثائق على

(1) U. P. Z. 14.

(2) P. Loeb 55 (123 — 7 B. G.) l. 13; P. Tebt. 11 (119 B. C.) l. 7; P. Louvre 2436 b (106 B. C.).

(3) P. S. I. 968, l. 3 (80 or 58 B. C.) (٨٠٠ دراخمة) ; P. Tebt. 208 (94 or 61 B. C.) (٨٤٠ دراخمة) ; P. Tebt. 116, l. 2 (١٠٠٠ دراخمة) ; l. 32 (١١٠٠ دراخمة) ; P. Grenf. I. 22 (118 B. C.) l. 11; P. Tebt. 112, l. 113; B. C. U. 995 IV, l. 5 (١٢٠٠ دراخمة) ; P. Tebt. 112, l. 57; 117, ll. 10 — 11; 189 (94 or 61 B. C.) (١٥٠٠ دراخمة) ; P. Tebt. 120 (97 or 64 B. C.) l. 72 (٢٠٠٠ دراخمة) ; P. Tebt. 109 (93 B. C.) l. 15 (١٨٠٠ دراخمة) .

(4) P. Tebt. 212 (114 B. C.) ; P. Tebt. 121 (94 or 61 B. C.) ; P. Tebt. 189

(القرن الأول ق. م.) .

(5) P. Tebt. 891, l. 15 (عصر بطليموس السادس) ; P. Tebt. 887, ll. 4, 6, 17, 35, 100, 104, 106.

أن الأجرور كذلك باءت ضعف ما كانت عليه في الفترة السابقة ، فقد أصبحت تتراوح بين ٥٠ و ١٢٠ دراخمة برونزية ^(١) .

ومرد هذا الإرتفاع في الأسعار والأجرور إلى التجاء الحكومة مرة رابعة إلى رفع القيمة الإسمية للدراخمة البرونزية فأصبح وزنها $\frac{1}{4}$ من وزن الدراخمة الفينيقية بعد أن كان $\frac{1}{2}$ وزنها في الفترة السابقة . وليس من العسير تفسير هذا التغير الجديد الذي يبدو أن بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثاني هو الذي استحدثه لمواجهة التزاماته التي ازدادت بينما تناقصت موارده من جراء الاضطرابات العنيفة التي وقعت في عهده والمنح المتعددة التي حاول جاهدا استخدامها في تهدئة الحالة .

ولما كانت الوثائق تدل على أنه في عام ١٣٠ ق. م. كان سعر أردب القمح يقدر بدراخمتين من البرونز وزنها $\frac{1}{2}$ وزن الدراخمة الفينيقية ^(٢) ، على حين أنه في عام ١٢٨/١٢٧ كان السعر يقدر بدراخمتين وزنها $\frac{1}{4}$ من وزن الدراخمة الفينيقية ^(٣) ، فلا بد من أن يكون ايوارجتيس الثاني قد استحدث التعميل الجديد في أعقاب نجاحه في استرداد عرشه في عام ١٢٩ ق. م. ^(٤)

وقبل أن نختتم موضوع النقد يجب أن نجيب عن سؤال هام ، وهو إلى أي حد أمكن البطالمة أن يستبدلوا نظام النقد بنظام التبادل . إن كل مظاهر الحياة العامة والخاصة تشير إلى إنتشار تداول النقود باطراد في مصر ، لكن ليس معنى هذا أن مصر استطاعت في خلال القرون الثلاثة التي قامت فيها دولة البطالمة أن تبرز كل التقدم الذي أحرزته عليها بلاد الإغريق في هذه الناحية . فقد كان لنظام التبادل أهمية خاصة في مصر على الدوام بسبب التقاليد القديمة التي سادت في البلاد

(1) P. Tebt. 121 (64 or 61 B. C.) (٥٠ دراخمة) ; P. Tebt. 108 (93 or 60 B. C.) (٨٠ دراخمة) ; P. Tebt. 145 (113 — 111 B. C.) (٦٠ دراخمة) ; O. Tait II 13, l. 1, (٩٠ دراخمة) , l. 4, (١١٠ دراخمة) ; O. Wilcken 1207, l. 2 (١٢٠ دراخمة) ; P. Tebt. 252 (95/4 B. C.) (١٠٠ دراخمة) .

(2) Actenstücke 6, l. 9.

(3) P. Loeb 55, l. 15.

(4) Cf. Reekmans, p. 104.

أمداً طويلاً ، ولذلك نجد في كل قرية تقريباً جنباً إلى جنب : المصرف العام حيث تندفق النقود ، وكذلك المخزن العام حيث تتجمع المحصولات . وكانت تتم نفس العمليات في المصرف وفي المخزن ، فالأول يتسلم الضرائب النقدية والودائع ويقدم النقود للموظفين والتجار ، بينما كان الثاني يأخذ الضرائب النوعية ويقدم للمزارعين ما يحتاجونه من البذور ، وللموظفين والعمال نصيبهم من الحبوب . ولاشك في أن تطور مصر الإقتصادي يظهر في نقص مهام المخزن العام وإزدياد أعمال المصرف العام . ويرجع إنشاء المخزن العام إلى أن الدولة لم تشأ أن تترك المزارع تحت رحمة التاجر أو المرابي من أجل الحصول على النقود ، ولذلك كانت تقبل منه دفع الضريبة العقارية نوعاً في حالة المحصولات التي يسهل حفظها أو التي تحتاج الدولة إليها مثل الحبوب الغذائية والحبوب الزيتية ، لأنها كانت تعطى الجنود والموظفين جانباً من مرتباتهم قحجاً وشعيراً ثم تباع ما يفيض على الحاجة . وكانت النباتات الزيتية تستخدم في المصانع الملكية لاستخراج الزيت . أما سائر الضرائب الأخرى مثل ضرائب الكروم والتخيل والزيتون ، فإنها كانت تدفع نقداً . وقد كانت توجد نسب معينة بين المحصولات المختلفة ، مثل ما كانت توجد نسب معينة بين النقود التي من معادن مختلفة . وإذا كنا نعرف أن القمح كان معادلاً للعسل ، فإن النسبة بين القمح والشعير كانت ٥ : ٣ ، وبين القمح والذرة ٥ : ٢ .

ولقد عملت الدولة على نشر تداول النقود بنقص مصروفاتها النوعية ، فإن مرتبات الموظفين والجنود كانت أحياناً نوعية وأحياناً نوعية ونقدية ، ولذلك زادت مقدار ما كانت تدفعه نقداً ومن ثم نقص بطبيعة الحال ما كانت تدفعه عيناً . وخير مثل لهذا التطور في الحياة الإقتصادية ما طرأ من التطور على مرتبات الجنود ، ففي القرن الثالث كان أجر الجندي ١٥٠ دراهمة من البروز وثلاثة أرباب (١١٨ لثراً) من القمح . أما في القرن الثاني فإن الجندي كان لا يعطى نوعاً سوى أرباب واحد ويعطى ثمن الأرباب الآخرين . وقد مر بنا كيف أن هذا الثمن كان بخساً ويقل كثيراً عن سعر السوق ، فكانت نكبة الجنود نسكبتين تقمثل إحداها في هذا الجور

السافر، والأخرى في بقاء أجورهم حيث كانت منذ قرن برغم ارتفاع أسعار تكاليف الحياة ارتفاعاً خيالياً . وفضلاً عن ذلك فإن الجندي الذي يحق له الحصول على قدر من النبيذ كان يعطى تعويضاً مالياً عنه ، وكذلك الفارس الذي له الحق في عقيق الحصانه .

وقد نقص باطراد القدر النوعي في أجور العمال كما نقص في مرتبات الجنود ، إذ نجد مثلاً فريقاً من الحمالين يأخذون أجراً لهم غذاءهم اليومي من الخبز وبعض النبيذ والزيت ، وقليلاً من لحم الخنزير أيام الأعياد ، وذلك إلى جانب غذاء دوابهم . لكننا نجد بعد ذلك فريقاً آخر من الحمالين يتقاضون أردباً من القمح وقدرًا صغيراً من الزيت و ١٢ دراهمة من الفضة ، فكانت نسبة النقود في أجرهم توازي ٨٣٪ من مجموع ما يستحقونه . ولم يلبث الكهنة أن اتبعوا الطريقة الحديثة إذ ذاك في دفع الأجور للعمال الذين يشتغلون في مصانع المعابد لنسج الكتان الدقيق ، بدل تلك الطريقة التي ألفوها منذ القدم والتي كان قوامها أن يترك للعمال جانب مما ينتجون . وجملة القول أن المنصر النوعي من أجور العمال أخذ يختفي حتى أصبح الكل في حاجة إلى استخدام النقود ، لكننا لانستبعد أن يكون نظام الاقتصاد الطبيعي قد بقي إلى حد كبير بين القرويين ولاسيما في حياتهم الخاصة . فإن الوثائق تحدثنا على الدوام عن قروض من الحبوب أو النبيذ ، غير أنه إذا عجز المدين عن الوفاء بدينه فإن الدين النوعي كان يصبح ديناً نقدياً بحسب سعر تلك السلعة المقترضة في السوق .

وقد كان هذا الشرط الجزئي في صالح الدائن أول الأمر لكن سرعان ما أصبح في صالح المدين أيضاً ، إذ تقرر أن الفوائد المركبة على الديون المسالية يجب ألا تزيد على ضعف رأس المال^(١) . ولعل ذلك كان حافزاً على استخدام النقود في التعامل بدلاً من نظام التبادل .

(١) Glotz, op. cit., pp. 393 — 395.

(م ١٣ — البطالة)

مظاهر التقاء الحضارتين المصرية والإغريقية

في عهد البطلمة

يرجع أول عهد مصر باستقرار الإغريق فيها إلى ما قبل الفتح المقدوني بحوالى أربعة قرون ، أو بعبارة أخرى إلى أواخر القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد ، عندما أخذ الكثير من تجارهم يستقرون في شمال مصر ^(١) . وإذا كانت مصر قد أفادت عندئذ من نشاط الإغريق التجارى وقوة سواعدهم في جمع ثروة كبيرة وبناء جيش قوى ، مما حدا بفراعنة العصر الصاوى إلى الترحيب بهم ومولاة النعم عليهم ^(٢) ، فإن الإغريق قد جنوا عندئذ من مصر خير الثمرات ، إذ أنهم لم يجمعوا ثروات طائلة فحسب ، بل أفادوا كثيراً من الحضارة المصرية ^(٣) .

حقا كان العصر الذهبى للحضارة الفراعنة قد ولى وانقضى ، لسكن العصر الصاوى كان عصر نهضة رائعة تهدف إلى إحياء تقاليد الماضى المجيد . وفى أثناء تلك النهضة المصرية الزاهرة كانت بلاد الإغريق لاتزال فى مهد الحضارة ، فلا عجب إذن أنه كان للحضارة المصرية أثر مشهود فى صناعات الإغريق وعلومهم وفنونهم ، وآية ذلك أنهم كانوا يحجون إلى مصر لتلقى العلم فيها .

وبين أواخر القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل مولد السيد المسيح كان الفلك قد دار دورة من دوراته العجيبة ، إذ حين عجزت مصر ، وقد هدم المشيب قواها ، عن صد عدوان الفرس عليها ، تمكنت بلاد الإغريق فى فتوتها وشبابها من الصمود أمام الفرس . ولذلك فإنه بينما دخلت مصر فى حظيرة الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ نجم الحضارة المصرية فى الأفول ، احتفظ الإغريق باستقلالهم ،

(١) راجع موسوعة كيردج فى التاريخ القديم ، المجلد الثالث ، ص ٢٩١ .

(٢) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر فى عصر البطلمة ، ص ٢ — ٣ .

(٣) أنظر Diod. I, 96-8.

وكان لنجاحهم في صد عدوان الفرس رد فعل عجيب في نفوسهم قفز بحضارتهم إلى ذروة المجد في أفصر فترة عرفها التاريخ .

ويوم قُسمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر بين قواده عام ٣٢٣ ق. م ، وآت مصر إلى أحد هؤلاء القواد ، وأعنى بطليموس بن لاجوس ، الذى أقام على منفاف النيل صرح مملكة حمل سلالته من بعده صولجانها قرابة ثلاثة قرون ، كان لواء الزعامة في عالم البحر الأبيض المتوسط . — معمود دون منازعة للحضارة الإغريقية ، فإنه منذ قرنين على الأقل كان العالم المتحضر يدين للمدن الإغريقية بالغالبية المغمى من كل المبتكرات الخصيصة في حابة الأفكار والفنون والصناعات^(١) .



مثل لطراز الفن الأسكندري في بدايته

ويجب في هذا المقام ألا يغرب عن البال بعض الخصائص المصرية ليسهل فهم أحداث عصر البطالمة فهما صحيحا . ويأتى في مقدمة هذه الحقائق قوة الحيوية السكامنة في الأمة المصرية التى أكتسبت الحضارة المصرية ما اتسمت به من صفة الاستمرار بشكل ليس له مثيل . حقا لقد تخلل تاريخ مصر عدد من عصور الظلام أو الانحلال ، ومع ذلك فإنه إذا أضيفت هذه العصور بعضها إلى بعض فهى لا يمكن

(1) Jouguet , Hist. Nat. Eg., III, pp. 15 -- 16. .

أن تتعدى جزءاً يسيراً من ذلك التاريخ الطويل الذى أشرقت فيه الحضارة المصرية . وقد أثبت المصريون فى عهد الدولة الوسطى والدولة الحديثة والمصر الصاوى كفايتهم على النهوض من كبواتهم لبناء حضارة جديدة زاهرة تتصل اتصالاً وثيقاً بحضارتهم الغابرة .

ولم تفلح القوة إطلاقاً فى القضاء على الروح القومى ، فقد حبت الطبيعة المصريين بقدره عجيبه على الصبر على المكاره ثم انتفاضهم دفعة واحدة ضد غاصبيهم حتى ليزلزلوا الأرض تحت أقدامهم . وقد أثبت المصريون مراراً وتكراراً شدة اعتزازهم بكرامتهم واستمسكهم بتقاليدهم ، وبدلاً من أن يفزعهم البطش ويردهم عن معتقداتهم كان يدفعهم إلى التعصب لهذه المعتقدات والاستماتة فى الذود عنها ، ومثل ذلك ثباتهم على معتقداتهم الدينية برغم كل جهود اخناتون ، وعدم الارتداد عن المسيحية مع كل ما أنزله بهم الرومان من صنوف العذاب والإرهاب .

ومما يستوقف النظر أنه قد وفد على مصر قبل المقدونيين غزاة كثيرون ، لكن لم تفلح أى أمة من هذه الأمم فى فرض طابعها الحضارى على المصريين . ومع ذلك أظهر المصريون استمداًهم لتقبل الأفكار الأجنبية حين لم يكن هناك ضغط أو نفوذ أجنبى ، مثل ما حدث مع الحضارة البابلية عندما كانت الدولة الحديثة فى أوج عظمتها .

وكيف يمكن تفسير هذا الروح المحافظ وهذا البغض للتأثيرات الأجنبية ولا سيما فى أثناء الحكم الأجنبى ؟ يجب ألا ننسى أن المصريين قد سبقوا كل جيرانهم إلى إقامة حضارة زاهرة وأنه لم يكن للتأثيرات الأجنبية أى نصيب فى إنشاء هذه الحضارة ولا تطورها . ولما كانت هذه الحضارة قد حققت كل مطالب المصريين وتقدمت تقدماً مطرداً وانتشرت فى كل مكان واسهمت فى بناء غيرها من الحضارات ، فقد كان طبيعياً أن يميل المصريون إلى المحافظة على حضارتهم وتقاليدهم ، وإن يغشاهم شعور عميق بالاستكفاء الذاتى والثقة بالنفس والكبرياء

والسمو على كل المحدثين . وفضلا عن ذلك فإن مصر كانت ، ولا تزال إلى حد كبير ، بلدا زراعيا يحيا مزارعوه حياة لا تختلف كثيراً عن حياة أجدادهم ، وذلك لأن الدعامة الرئيسية لحياتهم الاقتصادية لم تتغير . فهذه الحياة لا تزال تعتمد على فيضان النيل السنوى ، وهذا الفيضان الذى لم يتغير منذ سالف الزمن قد خلع على الزراعة المصرية طابعا لا يحجوه من السنين وتتابع الأيام . ولما كان أساس الحياة الاقتصادية فى مصر لم يتغير على مر العصور ، وكانت حياة الشعب المصرى نتيجة طبيعية للبيئة الجغرافية التى يعيش فيها ، فلا عجب أن يبقى هذا اللون من الحياة مابقيت تلك الظروف والأحوال .



مثل لطراز الفن الأسكندرى فى أوجه

والآن ماذا كانت نتيجة التقاء الحضارة الإغريقية اليافعة ، حضارة السادة الفاتحين ، مع الحضارة المصرية الهرمة ، حضارة الرعايا المغلوبين على أمرهم ، فى وادى النيل ؟ وهل كان العلامة ابن خلدون صادقا فى رأيه القائل إن المغلوب مولع دائماً أبدا بالافتداء بالغالب ؟ هذا ما سنحاول إظهاره الآن فى إيجاز . لقد كان البطالة قبل كل شىء ماوكا يعينهم توطيد دعائم حكمهم بأفضل السبل

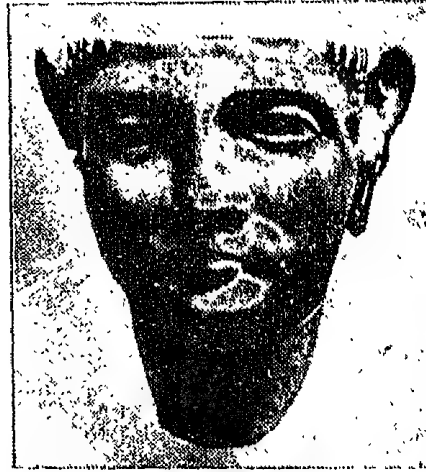
التي تحقق أهدافهم ، غير أنهم كانوا ملوكا مصطبغين بالحضارة الإغريقية ، وفي حاجة ملحة إلى الإغريق . فقد كانت أعز أمانى البطالة الأوائل المحافظة على استقلال مصر السياسى والاقتصادى ولعب الدور الأول فى السياسة الدولية^(١) . وقد كانت الدعامة الأولى للاستقلال والسيادة الدولية تجنيد جيش قوى وبناء أسطول كبير ، من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، وكانت مؤلفة من خيرة محاربى العصر ، وأعنى المقدونيين والإغريق الذين أثبتت حملات الإسكندر تفوقهم على محاربين ممتازين كالفرس . وقد كانت وفرة المال الدعامة الثانية للاستقلال والسيادة الدولية ، ومصر على غنى مواردها الطبيعية كانت لاتستطيع مواجهة المطالب الجديدة إذا بقيت شئونها الإدارية وحالتها الاقتصادية ونظمها المالية على ما كانت عليه عند الفتح المقدونى ، ولا سيما بسبب ما حاق بها من التدهور نتيجة للاضطرابات التى شهدتها البلاد فى خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، إبان حكم الفرس فى مصر وثورات المصريين للتخلص من نيرهم . فلم يكن هناك بد من إعادة تنظيم شئون الإدارة ، والهوض بمرافق البلاد الاقتصادية ، ووضع نظام مالى دقيق . وللقيام بهذه الأعمال الإنشائية الواسعة ، كان البطالة فى حاجة إلى رموس أموال ، وإلى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى فى خدمتهم^(٢) . وجملة القول أن البطالة كانوا فى حاجة ملحة إلى الإغريق من أجل تحقيق أغراضهم الداخلية والخارجية ، فلكى يضمّنوا لأنفسهم مكانة ممتازة فى بلاد الإغريق ، وكذلك استمرار وفود الإغريق على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام ، لم يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريحها للإغريق ، بل أجزلوا لهم العطاء ومنحوهم مركزاً ممتازاً فى وطنهم الجديد ، وهبوا لهم البيئة التى توائم ما ألفوه من أساليب الحياة فى بلادهم ، ونصبوا أنفسهم حماة للحضارة الإغريقية ، فهرع الإغريق إلى مصر زرافات ووحداً^(٣) .

(١) راجع إبراهيم نصحي : الكتاب سالف الذكر ، ص ٥٢ ، وكذلك Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 29.

(٢) إبراهيم نصحي : الكتاب سالف الذكر ، ص ٧٢٤ .

(٣) Jouguet , in Chronique d'Egypte, 1935. pp. 95 - 6.

وإذا كانت قد وفدت على ضفاف النيل فئة كبيرة من الأجانب ، فإن هؤلاء الأجانب كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى أهل البلاد الذين كانوا يمدون بالملايين ، في حين كان الأجانب يمدون بالآلاف . ومهما بلغت حاجة البطالة إلى الأجانب ، فإنه لم يكن لهم غناء على الإطلاق عن المصريين الذين كانوا عماد ثروة البلاد .



محاولة غير موفقة لمزج الطرازين المصرى والأغريق

وهكذا نرى أن البطالة قد وجدوا أمامهم فريقين رئيسيين من سكان البلاد ، كان لكل منهما نظم خاصة للحكم ، فالإغريق نشأوا في مدن اعتادوا على الاشتراك في حكمها ، والمصريون نشأوا في دولة ملكية مطلقة تقوم على حق الملوك الإلهي . فإذا فعل البطالة حماة الحضارة الإغريقية الذين كانوا يحرصون على أن تظهر دولتهم أمام العالم باعتبارها دولة إغريقية ، لا دولة شرقية^(١) ؟ حقاً إنهم سمحوا للمدن الإغريقية الثلاث في مصر بلون من ألوان الحكم الذاتي ، لكن إغريق هذه المدن ، وكذلك الإغريق الذين يعيشون في أنحاء مصر الأخرى كانوا يعتبرون جميعاً مثل المصريين رعايا الملك^(٢) . هذا إلى أن البطالة لم يكتفوا من إنشاء المدن الإغريقية ، على نحو

(1) Rostovtzeff , op. cit , pp. 264 — 5.

(2) Rostovtzeff . op. cit., p. 323.

ما فعل الإسكندر وخلفاؤه السليوكيون في امبراطوريتهم ، بل إن البطالمة لم ينشئوا إلا مدينة إغريقية واحدة وهى بطوليميس ، لكنهم ساهموا في إنشاء الإسكندرية . أما نقراطيس فإنها ترجع إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين . وقد يقال إن البطالمة وإن كانت حضارتهم هى الإغريقية فإنهم أصلا مقدونيون ، ومن ثم لا داعى لأن نعزو إلى مصر نظام الحكم الذى اتبعوه فيها ، فقد كان يحكم مقدونيا ملوك مطلقو السلطة . ولكن هذا الدفع ، كما يقول رجال القانون ، وإن كان مقبولا شكلا فهو مرفوض موضوعا ، لأن البطالمة أقاموا ملكيتهم على أساس إلهى ، وفى مصر نشأت فكرة حق الملوك الإلهى منذ أقدم العصور^(١) . فضلا عن ذلك فإن البطالمة اتخذوا أولا صفات الفراعنة ، ولم يلبثوا أن تتوجوا على نمطهم فى المعابد المصرية^(٢) . ولكى يبرروا سلطتهم المطلقة فى نظر رعاياهم الإغريق لم يكتبوا فقط بنشر الرسائل الفلسفية التى تتمتع سلطة الملوك ، بل رفعوا أنفسهم إلى مصاف الآلهة الإغريقية^(٣) . ومعنى ذلك أن البطالمة لم ينشروا بين المصريين نظم الحكم الإغريقية ، بل اقتصدوا أيما اقتصاد فى إقامة هذه النظم بين إغريق مصر ، وأخذوا عن المصريين الأساس الذى أقاموا عليه دعائم سلطتهم الملكية ، وإن كانوا قد لجئوا إلى الأساليب والنظريات الإغريقية لتبرير سلطتهم الواسعة المطلقة فى نظر رعاياهم .

وفى الإدارة المحلية ، احتفظ البطالمة بالنظام التقايدى الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور ، نظام تقسيم البلاد إلى مصر العليا ومصر السفلى ، وتقسيم كل من هذين القسمين إلى أقاليم أو مديريات^(٤) ، كانت عبارة عن وحدات

(1) Jouguet , *Macedonian Imp.*, p. 286; Moret and Davy, *From Tribe to Empire*, pp. 131 ff; Moret , *Du caractère religieux de la royauté pharaonique*, p. 17.

(٢) إبراهيم نصحى ، ص ١٨٦ — ١٩١ .

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٢١٦ وما بعدها ؛ C. A. H., VIII, pp. 13 ff .

(4) Jouguet , *op. cit.*, p. 300 .

إدارية وحربية دينية . وفضلاً عن ذلك فقد كان دعامة الإصلاحات الاقتصادية والمالية التي قام بها البطالمة مبدآن مصريان ينافيان المبادئ التي كانت تقوم عليها المدن الإغريقية الحرة . وهذان المبدآن هما : — أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما في باطنها ، وأن الأهالي يطيعون هذا الملك الإله طاعة عمياء . وعلى الرغم من أن نظم البطالمة الاقتصادية والمالية قد قامت على هذين المبدئين المصريين ، فإن البطالمة قد تأثروا إلى حد بعيد في وضع هذه النظم بتعاليمهم الإغريقية وبتجارب أعوانهم الإغريق ؛ ولذلك فإن هذه النظم وإن كانت مصرية في جوهرها فإنها مصطبغة بصبغة إغريقية قوية . ولا أدل على الأثر الإغريق من تنظيم النواحي الاقتصادية المختلفة بقوانين ونظم إغريقية في روحها ومنطقها ، واتساقها ودقة صياغتها واصطلاحاتها ، ومن طريقة تنظيم الضرائب . وقد كان يتصف بروح إغريقية أيضاً إشراف الإدارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وكذلك نظام المحاسبة والمراجعة الذي يختلف كلية عن أى شيء من هذا القبيل عرفته مصر حتى ذلك الوقت . ومع ذلك فقد أغفلت نظم البطالمة الاقتصادية والمالية إغفالاً يكاد يكون تاماً جوهر النظام الاقتصادي الإغريق ويتلخص في شيئين : — أحدهما الامتلاك الخاص الذي كانت الدولة تعترف به وتحميه ، باعتباره أساس حياة الجماعة ، والآخر هو حرية النشاط الاقتصادي إذ أن الدولة قلما كانت تتدخل في ذلك . حقاً إن البطالمة لم يقضوا قضاء مبرماً على هاتين الظاهرتين ، إلا أنهم لم يسمحوا لهما إلا بقدر محدود يتمشى مع خطة البطالمة العامة ، التي كان سداها ولحمتها إشراف الدولة إشرافاً دقيقاً على كافة نواحي الحياة الاقتصادية^(١) .

ولا سبيل إلى الشك في أن الاقتصاد الفرعوني كان أكثر بساطة وأقرب إلى الفطرة من الاقتصاد البطلمي . وتدل أداس النقود التي هتر عليها في مصر وخاصة في الدلتا على أنه في عهد أواخر الفراعنة الوطنيين الذين حكموا مصر

(1) Rotovtzeff , op. cit., pp. 272 --- 3.

في الربع الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد كانت مصر تسك عملتها ، وعلى أنه قبل ذلك كان ولاية مصر الفارسيون يصدرن أيضا عملة ، وعلى أنه قبل ذلك في العصر الصاوي كان تجار الإغريق يحضرون معهم إلى مصر عملة أجنبية يبدو أن فراعنة ذلك العصر كانوا يستخدمونها في شراء خدمات الجنود المرتقة . وفضلا عن ذلك فانه قبل العصر الصاوي بعدة قرون كانت المعابد المصرية تصدر قطعاً معدنية. بعضها من الذهب وبعضها من الفضة والبعض الآخر من البرونز وتضع عليها طابع الآلهة ضمانا لقيمتها . ويدل كل ذلك على أنه قبل الفتح المقدوني لم تجهل مصر سك النقود واستخدامها ولو على نطاق ضيق . وإذا كان لا يجوز القول أن الاسكندر والبطالمة قد أدخلوا في مصر لأول مرة سك النقود واستخدامها ، فلا ريب في أنه يعزى إليهم الفضل في استبدال الاقتصاد النقدي بالاقتصاد الطبيعي الذي كان سائداً في البلاد من قبل .

وقد كانت أداة البطالمة الحكومية في جوهرها من تراث الماضي ، ويذهب « ولز » إلى حد القول بأن قواد المديريات (Strategoi) لم يكونوا بدعة استحدثها البطالمة لأنهم حلوا مكان الحكام القدامى^(١) . ومع ذلك لا جدال في أن أداة الحكم البطلمية قد أصبحت في مجموعها أداة إغريقية منظمة تنظيماً دقيقاً . ولا نعرف كيف استطاع البطالمة تكوين هذه الأداة الحكومية الدقيقة في بلد أجنبي ، ووسط ظروف غريبة من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . فإن رءوس هذه الإدارة ومديري مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة كانوا كلهم تقريباً من الإغريق الذين لم يعد لهم ماضيهم للاضطلاع بمثل هذه المهام المعقدة . إذ أنهم قبل ذلك كانوا يديرون شؤونهم الخاصة بطريقة بدائية ، كما أن إدارة الشؤون العامة التي اشترك فيها بعض هؤلاء المهاجرين في بلادهم كانت أولية ، إذا

(1) Welles, Ptol. Adm. in Egypt., J. Jurisp., Pap., III, 1949, p. 47, fn. 44.

قيست بالنظم البطلمية . إن نجاح البطالمة في إعادة تنظيم الأداة الحكومية لتحقيق أهدافهم يعتبر من أبداع مبتكرات العبقرى الإغريقية ، ومن أوضح الأدلة على مرونتها واستعدادها لتكييف نفسها وفقاً للظروف التى توجد فيها ^(١) . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد أنه لم يكن لهذه التعديلات التى أدخلت على الأداة الحكومية والنظم المالية إلا أسوأ الأثر فى المصريين ، إذا أن البطالمة لم يستهدفوا إلا تحقيق أغراضهم الأنانية الخاصة . ولم تؤد النظم الجديدة بعسفها وبطشها إلى سوء حال المصريين المادية فحسب ، بل إلى انحطاط أخلاقهم أيضاً ؛ فقد دفعهم الظلم إلى التحايل على القانون بشتى الطرق ، كما دفعهم الفقر وشظف العيش إلى وأد أطفالهم . وهكذا كانت للظلم آثار مادية ومعنوية سواء بسواء ^(٢) .

وحين وجه البطالمة عنايتهم إلى النهوض بمرافق مصر الإقتصادية لم يعتمدوا على خبرة المصريين المتوارثة فحسب ، بل اعتمدوا أيضاً على دراية الإغريق الفنية والحركة العملية الإغريقية ، إذ أن المهندسين الإغريق هم الذين أشرفوا على استصلاح مساحات واسعة من الأراضى فى الفيوم ^(٣) ، وغيره من الأقاليم ^(٤) التى تشبهه ، وبوجه خاص فى الدلتا . وبعد أن كان المصريون لا يعرفون إلا الشادوف لرفع المياه إلى الأراضى المرتفعة ، أصبحوا يعرفون الساقية ولولب أرخميدس ^(٥) (الطنبور) ، وكانت هاتان الآلتان من ثمره العلم الإغريقى . ولتفادى إضعاف التربة وضع نظام دقيق للدورة الزراعية ، بحيث كانت الأرض لا تزرع زراعة ثقيلة ثلاثة أعوام متتالية ، ولا تترك فى نفس الوقت دون زرع ^(٦) ؛ وأصبحت أغلب الأدوات الزراعية تصنع كلها أو بمض أجزائها من الحديد ^(٧) . وللإغريق فضل كبير

(1) Rostovtzeff, op. cit. , pp. 1078 — 81.

(٢) إبراهيم نصحى ، ص ٥٨٦ ، ٦٥٠ — ٦٥٧ ، ٧٥٨ — ٧٦٣ .

(3) Rostovtzeff, op. cit., p. 361.

(4) Edgar , Zeno Papyri in Michigan, p.10

(5) Calderini , in Aegyptus, I, pp 37 — 62, 189 — 216, 309 — 317.

(6) P. Tebt. I , p. 561.

(7) Rostovtzeff , op. cit., pp. 362 — 3.

في نشر غرس الكروم والفاكهة والزيتون ، وإدخال أنواع جديدة منها ومن مختلف أنواع النبات ^(١) . وقد وجه البطالة عنايتهم إلى مسألة أخرى تتصل بالزراعة اتصالاً وثيقاً ، وهي تربية الحيوان ، فلم يعنوا فقط بالحيوانات التي كان المصريون يألفونها منذ القدم ، بل عنوا أيضاً بأقلمة ما كان مألوفاً منها عند الإغريق ، وخاصة الحيوانات ذات الأصواف الممتازة ^(٢) .

وتعزى النهضة الصناعية في عصر البطالة إلى مهارة أهل البلاد ، وكذلك إلى مواهب المهاجرين إليها . ولا بد من أن الحركة العلمية في الإسكندرية قد غزت الصناعة كما غزت الزراعة بشعرة تقدم العلوم والهندسة . وقد ساعد على ازدهار الصناعة إنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقود ، ووفرة رؤوس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، ورواج التجارة ، واهتمام الملوك باستغلال الصناعة استغلالاً لم تعرفه مصر في أي عهد من عهود تاريخها الطويل . فإن ملك مصر لم يكن أكبر ملاك الأراضي فحسب ، بل كان أيضاً أكبر أقطاب الصناعة فيها ^(٣) . وإذا كان المصريون قد اقتبسوا من الإغريق بعض أساليب الصناعة التي كانوا أساتذة فيها ، كصناعة الزيت والنبيذ والمنسوجات الصوفية ، فإن الإغريق بدورهم اقتبسوا فنون الصناعة التي بلغ فيها المصريون حداً يقرب من الكمال في عهد الفراعنة . وكان شأن الإغريق في مصر كشأنهم في أي مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، فإنهم اقتبسوا أولاً فن الصناعة الوطني وتعلموا كل ما لم يعلموه منه قبل ذلك ، بل أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الإغريقية ، وجعلوه محبوباً مقبولاً للذوق الإغريقي ^(٤) . فامتلاّت أسواق مصر الهيلينستي بآنية فخارية وزجاجية ومعدنية مصنوعة على أساس الأساليب المصرية في الصناعة ، وإن كان طراز المصنوعات إغريقياً . وهل

(١) إبراهيم نصحي ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(2) Rostovtzeff , op. cit., pp. 292 — 5.

(٣) إبراهيم نصحي ، ص ٣٨٣ .

(4) Rostovtzeff , Large Estate, p. 135.

أدت مساهمة الإغريق في حياة مصر الاقتصادية إلى إدخال ما ألفوه في بلادهم من نوع اليد العاملة في الصناعة ، أى العبيد ، على الرغم من وفرة اليد العاملة الحرة في مصر وقلة أجرها ؟ تشير القرائن إلى أنه في مدن مصر الإغريقية — وخاصة في الإسكندرية — لم ينهض بالصناعة الإغريقية طبقة كبيرة من أهل الحرف والصناعات الأحرار فحسب ، بل من العبيد أيضاً . أما في بقية أنحاء مصر ، خارج مدنها الإغريقية — أو على الأقل خارج الإسكندرية — فإننا نلاحظ أنه لا يوجد في نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل في الزراعة والصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيها . ومعنى هذا أن الإغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد بوجه عام ^(١) .

وقد تمخض نجاح سياسة البطالة الخارجية ، وتقدم الزراعة وازدهار الصناعة عن رواج تجارة مصر الخارجية . وساعد على ذلك أيضاً خبرة الإغريق العريقة في هذا المضمار ، وإنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقد ، ومبتكرات العبقرية الإغريقية التي كان في مقدمتها فنار الإسكندرية المشهور الذي كان نوره يشاهد على بعد ٦٠ ك . م . ومنذ أدرك الناس قيمة الفنارات انتشر هذا الاختراع سريعاً في الموانئ المختلفة .

وتمخضت أبحاث تيموستينيس ، أمير البحر البطلمي ، عن كتاب « المعارف البحرية » الذي وفر لربابنة السفن معلومات قيمة عن أحوال الموانئ المختلفة وأوصافها ، والمسافة بين كل منها . وقد ترتب على كل هذه التسهيلات أن ازدادت كثيراً في العصر الهيلينستي سرعة انتقال البضائع ، دون أن تزداد سرعة السفن نفسها زيادة كبيرة ، وذلك لأن السفن أصبحت تشق أواسط البحر بدلاً من أن تتلمس طريقها بمحاذاة الشاطئ ، كما أصبحت تسافر في أثناء الليل أيضاً بدلاً من النهار فقط ^(٢) .

(1) Præaux , L'économie royale des Lagides, p. 305

(2) Glotz , Le travail dans la Grèce ancienne, pp. 440 — 1.

إن البطالة الأوائل لم يدخروا وسماً في العمل على تقديم مرافق مصر الاقتصادية ، فازدادت مساحة الأرض المزروعة واستغلت الأرض الصالحة للزراعة استغلالاً لم يسبق له مثيل ، وازدهرت الصناعة وراجت التجارة . لكن إذا كان لم يستفد من ازدياد مساحة الأرض سوى الإغريق ، الذين منحوا هذه الأراضي ، والملك الذي كسب من وراء ذلك ولاء الإغريق وخدماتهم ، فضلاً عن الضرائب التي فرضها على هذه الأراضي ، وإذا كان الملك هو صاحب أرض مصر ، وكانت الحكومة هي القابضة على ناصية الصناعة ، والإغريق هم أقطاب التجارة والصناعة ، فماذا جنى المصريون أصحاب البلاد وعماد ثروتها ؟ ماذا جنوا من تضاعف مساحة الأرض المزروعة ، أو ازدياد استغلال الأرض ، أو ازدهار الصناعة ، أو رواج التجارة ؟ لقد كانوا كالشمعة التي تحترق لتنير للغير ، ولم يكن نصيبهم سوى نصيب العبد الكسير الذي يشقى وينصب ليملاً خزائن سيده بالأموال . وهل أدرك البطالة أنفسهم من وراء سياستهم الاقتصادية ونظمهم المالية كل ما كانوا يؤملون فيه ؟ الجواب نعم ولا . فقد أحرزوا كل ما يقوى المال على ابتياعه ، ولكنهم أغفلوا من حسابهم أمراً لعله كان يسيراً في نظرهم ، إلا أنه هو العباد الأقوى لكل ملك يراد له البقاء ، وذلك هو الروح المعنوي للشعب . فلا عجب أنه عندما استعاد المصريون ثقتهم بأنفسهم هبوا ثأرين في وجه طغاتهم وزلزلوا الأرض تحت أقدامهم ، فكانت ثوراتهم من العوامل الحاسمة في القضاء على دولة البطالة .

ومن مقارنة توجيهات الفراعنة إلى مساعديهم بالتوجيهات التي أصدرها هرودس (Herodes) وزير مالية بطلميوس السادس إلى مساعديه المحليين ، ومقارنة قرار حرمب بمجموعة قرارات بطلميوس ايوارجتيس الثاني ، استطاع « ولز » أن يبين في جلاء ووضوح كيف أن البطالة كانوا لا يقلون عن الفراعنة اهتماماً بحماية رعاياهم من غلواء الموظفين ، مع فارق واحد وهو شدة حرص البطالة

على جمع الأموال الأميرية ، مما يكشف عن أن اهتمامهم بحماية رعاياهم لم يكن لذاته وإنما لخدمة مآربهم الخاصة . ولعالمهم كانوا كالرومان فيما بعد يكرهون أن تسلب جلود أغنامهم لسكرتهم كانوا يحبون أن يضمّنوا ألا يجزأ صوافها أحد غيرهم^(١) .

* * *

وعندما وفد الإغريق على مصر أحضروا معهم مذاهبهم وآلهتهم القديمة ، وحيثما استقروا في أعداد وافرة ، سواء في مدن مصر الإغريقية ، الإسكندرية ونقراطيس وبطولييس ، أو في المدن والقرى المصرية ، كان الإغريق يقيمون المعابد أو الهياكل لآلهتهم القديمة . وتشير الأدلة إلى أنه في كل قرية من القرى التي نزل بها الإغريق في الفيوم كان يوجد هيكل أو معبد صغير يقيم فيه الإغريق طقوس عبادتهم ، وإلى أن الإغريق أقاموا المعابد والهياكل في طول البلاد وعرضها لزيوس وإبولو وبوسايدون واسكليبيوس وپان وديوسكوري وهيرا وديمتر وكورا وإفروديتي^(٢) . وقد كان الإغريق يألفون منذ عهد بعيد استخدام المذابح الخاصة التي تقام بجوار مداخل منازلهم لتقديم القرابين لآلهتهم ، وقد كشفت الحفريات في الفيوم عن عدد كبير من هذه المذابح^(٣) .

وفضلا عن ذلك كان الإغريق يؤلفون في كل مكان جمعيات دينية لمزاولة شعائر دينهم . وينهض كل ذلك دليلا على اعتزاز الإغريق بديانتهم القديمة واحتفاظهم بها . ومن ناحية أخرى استمسك المصريون بمعتقداتهم الدينية وبقوا على ولائهم لديانتهم القديمة .

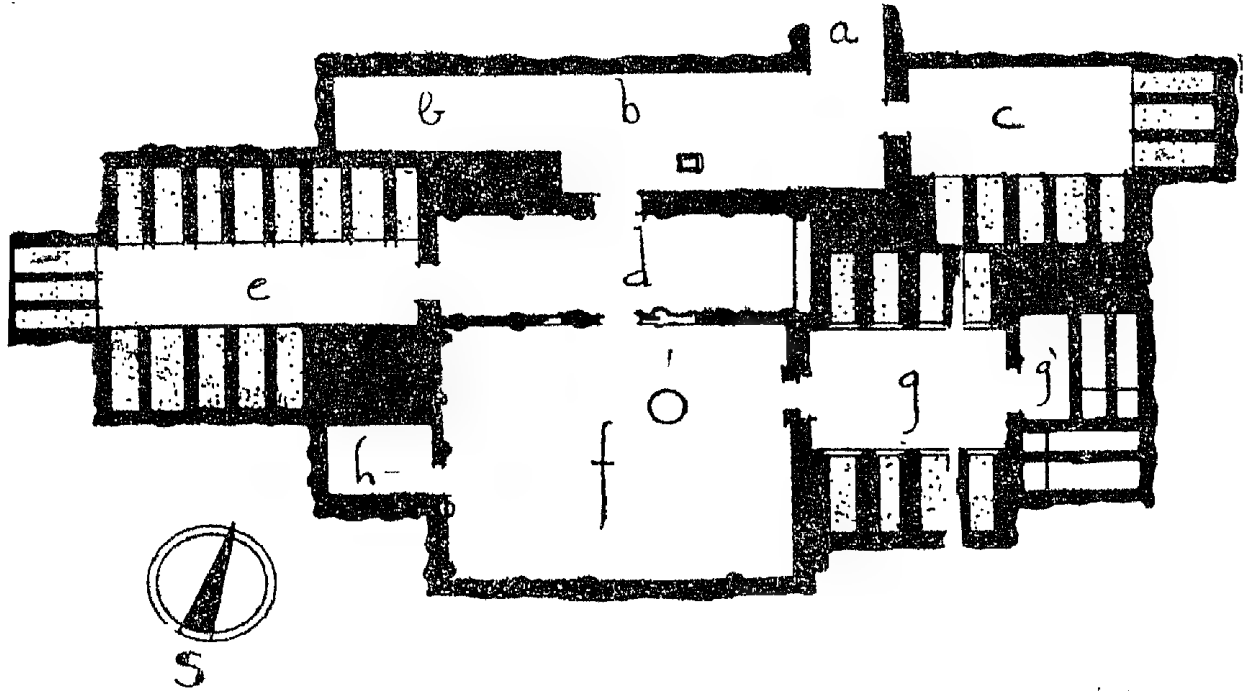
ولما كان بطلميوس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والإغريق سويا في العمل على تقدم مرافق البلاد الإقتصادية ، فإنه رأى من الضروري

(1) Welles, op. cit., pp. 31 ff.

(2) Brady, Reception of Eg. Cults by Gra., Un. Miss. Studies, X, 1935, p. 15; Otto, I, p. 169.

(3) Otto, I, pp. 135, 257.

أن يؤلف بين قلوب هذين العنصرين ، وأن يتغلب على النفور الديني الذي كان هيرودوتوس قد لاحظته من قبل ، وكان من المحتم أن يعوق الألفة بينهم ، بإيجاد ديانة جديدة تربط بين هذين العنصرين المختلفين اللذين كانا أهم عنصرين بين سكان البلاد^(١) . وقد استقر الرأي على أن يكون محور الديانة الجديدة ثلاثة آلهة مصرية قدمت للمصريين في ثوبها المصري ، وللأغريق في ثوب إغريقي .



مقبرة أغريقية في الشاطبي
شيدت على نمط المنازل الأغريقية الشائعة
في القرن الثالث قبل الميلاد

(1) Jonguet, Mac. Imp., 339.

وهكذا لم يعبد المصريون والإغريق نفس الثالوث ، فقد عبد المصريون آلهة الديانة الجديدة في شكلها المصرى وباعتبارها في عداد الآلهة التقليدية التى استمروا يتعبدون إليها ، وعبد الإغريق آلهة الديانة الجديدة في ثوب إغريقى وباعتبارها نظائر لآلهتهم . ومع ذلك فإن آلهة الديانة الجديدة لم تصادف قبولا لدى الإغريق بوجه عام أول الأمر ، لكن إزاء إجماع الحكومة وتمضيد الملك واعتماد حياة أكثر المهاجرين الإغريق على عطف الملك عليهم ورضائهم عنهم لم يأت منتصف القرن الثالث حتى كان الإغريق قد أقبِلوا بشدة على عبادة آلهة هذه الديانة ، وكانت هذه الآلهة قد تبوأَت مكانها عندهم إلى جانب آلهة أولمبيوس التى استمروا على ولائهم لها ^(١) .

وقد درج الإغريق منذ عهد هيرودوتوس على تشبيه الآلهة الإغريقية بالآلهة المصرية . وتعدنا المراجع القديمة بأمثلة متعددة لذلك ، بعضها من القرن الثالث مثل الإهداء الذى قدمته حامية الضباط الإغريق في إقليم الشلال وشبهت في هذا الإهداء عدداً من الآلهة الإغريقية بعدد من الآلهة المصرية ^(٢) وبعضها من القرن الثانى مثل الإهداء المقدم من الحامية التى نزلت في كوم امبو في أواخر عهد بطلميوس السادس وشبهت ابولو بهارويرس ^(٣) . ونجد كذلك أمثلة لأغريق — حتى من بين ذوى المكانة — يتعبدون أو يقدمون القرابين لآلهة مصرية بمفردها مثل هربايثوس ^(٤) وبنفروس ^(٥) وسوخوس ^(٦) ، أو مقرونة مع آلهة إغريقية دون تشبيه الآلهة المصرية بالآلهة الإغريقية على نحو ما تجد في إهداء من أواخر القرن الثالث قدمته جماعة المحاربين الإغريق في بطوليميس للاله الإغريقى يان — إله الجنود — وقرنته بائنين من الآلهة المصرية ^(٧) . ويتكشف أيضا مما أسلفناه أنه في الأماكن التى لم توجد فيها معابد أو هياكل إغريقية لم يتحرج

(1) Brady, pp. 11 — 17.

(2) OGIS 1, 130.

(3) OGIS. 1, 114.

(4) SB 5021; Klio, XII, 365.

(5) SB 6252, 6253

(6) Chrest. I, 141.

(7) SB 6184.

الإغريق من تشبيه آلهتهم بالآلهة المحامية المصرية ومن التعمد وتقديم القرابين في معابدها .
ويجب ألا يأخذنا العجب من كل ذلك فقد كانت للديانة المصرية — بفضل قدمها
وغموض أسرارها — مكانة كبيرة في نفوس الإغريق الذين كانوا يعتبرون أنفسهم
ضيوفاً في البلاد التي تملكوها الآلهة المحامية بالرعاية فكان من الفطنة وإصالة
الرأى في نظر أولئك الضيوف استجداء عطف تلك الآلهة^(١) ، ولا سيما وقد
أدخل على عقولهم أنها لا تختلف عن آلهتهم إلا من حيث الاسم والشكل وقدم
العمد^(٢) .

وبرغم أن الإغريق كانوا يشبهون آلهتهم بالآلهة المصرية ، وبرغم أن كثيرين
منهم كانوا يعبدون آلهة مصرية ويدخلون المعابد المصرية ويقدمون القرابين فيها ،
فإنهم لم يتخلوا عن معتقداتهم الدينية القديمة ، بل أن عبادة آلهتهم القديمة بقيت
عبادتهم الحقيقية . فالأهداءات التي كانت تقدم للآلهة الإغريقية ووجدت في مختلف
أنحاء البلاد وترجع حتى إلى أواخر عصر البطالمة وافترة العدد بحيث تدل على استمساك
الإغريق طوال عصر البطالمة بعبادة آلهتهم المألوفة . وترينا الوثائق البردية والخطابات
الخاصة أن الإغريق استمروا يقيمون حفلاتهم الدينية القديمة . وفضلاً عن ذلك
فإنه حتى في خلال القرن الأول قبل الميلاد كان طابع الاختتام التي يستخدمها
الإغريق عبارة عن صورة رأس أحد الآلهة الإغريقية المعروفة مثل أبولو أو أثينا أو
ديونيسوس مما يدل دلالة قاطعة على أن الإغريق كانوا يفضلون آلهتهم القديمة .
ومع ذلك فإن الأدلة تشير إلى أن بعض الإغريق أخذوا يستخدمون اختتاماً ذات
طابع مصري^(٣) . وجملة القول أنه يكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية
لإغريق مصر بوجه عام كانت عبادة آلهتهم القديمة التي ظلوا على تمسكهم بها إلى
أن تلاشى الروح القومي من نفوسهم^(٤) . وإذا كنا نعرف أن الديانة المصرية قد

(1) Boll. Cults and Creeds pp. 2, 9.

(2) Cf. Jouguet, Maced. Imp., p. 338.

(3) Brady, pp. 25 — 39.

(٤) نصحي ص ٢٩٠ .

استهوت الإغريق فأقبلوا عليها — ولو إلى حد — إلى جانب ديانتهم القديمة ، فإننا لا نعرف أن المصريين أقبلوا على الديانة الإغريقية على الإطلاق .

وقد سلف القول أن البطلمة الثلاثة الأوائل رأوا سلامتهم في الاعتماد على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، في تكوين قواتهم البرية والبحرية ^(١) ، لكن هؤلاء الملوك رأوا ألا يسرحوا الفرق المصرية ، خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إثارة المصريين . ولذلك استبقوها في جيشهم الإغريقي ، بنظمها وأسلحتها القديمة ، بمثابة فرق احتياطية يلجئون إليها في أوقات الضرورة القصوى . وقد استمر الحال كذلك حتى أواخر القرن الثالث ، عند ما واجهت بطليموس الرابع أزمة خطيرة ، بسبب انقضاخ أنطيوخوس الثالث ملك سوريا على ممتلكاته . وكان ذلك في وقت قل فيه وفود الإغريق على مصر ، وضمت الروح الحربية بين المقيمين منهم في مصر ، ولم يكن ميسورا تجنيد كل الجيش من الإغريق ، فأضطر إلى تكوين قلب الجيش من المصريين ، ولذلك كانوا منذ ذلك الوقت يسلمون بالأسلحة المقدونية ، ويدربون وفقاً لأحدث الأساليب الحربية ^(٢) .

وكانت لمصر عاداتها وقوانينها التي ترجع إلى عهود بعيدة تسبق بقرون طويلة الفتح المقدوني الذي حمل في طياته الإغريق بماداتهم وقوانينهم . وقد رأى البطلمة في حكمتهم أن يتجنبوا بقدر ما تسمح أحوال الحكومة الجديدة المساس بما ألفه المصريون من العادات والقوانين ^(٣) ، بل أخذوا على عاتقهم تدوين القوانين المصرية ونشرها ^(٤) . وفي نفس الوقت استنوا من القوانين ما يتفق وأفكار الإغريق ومن على شاكتهم ، وذلك من أجل تنظيم العلاقات بين هؤلاء الزلاء الأجانب ^(٥) . وهكذا كان يطبق على المصريين قوانينهم التقليدية ،

(1) Bevan, p. 166.

(٢) إبراهيم نصحي ، ص ١٦٤ و ١٦٥ .

(3) Jouguet, op. cit., p. 313; Bevan, p. 157.

(4) Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt in the Light of the Papyri, p. 2.

(5) Rostovtzeff, Social and Economic, p. 324.

وعلى الإغريق قوانين إغريقية من وضع البطلمة . لكن لما كان الملك وليس الشعب مصدر كافة القوانين والدساتير في الدولة ، وإزاء معيشة الإغريق جنباً إلى جنب مع المصريين في طول البلاد وعرضها ، فإن الملك قد أدخل بعض التعديلات على مجموعة قوانين كل من المصريين والإغريق . ولذلك فإن ما نلصقه من التأثيرات الإغريقية في القانون المصرى والتأثيرات المصرية في القانون الإغريق يجب ألا يعتبر صدقاً لظواهر حضارية نجمت عن تأثر المجتمعين أحدهما بالآخر ، وإنما الأصح اعتباره نتيجة لرغبة الملك في سد فجوات في التشريعات القائمة ، أو نشر الهدوء والسكينة في البلاد بعدم تطبيق أحكام مختلفة على حالات متشابهة . ومثل ذلك أن القانون المصرى كان يخول للمرأة المصرية أن تتصرف في نفسها وفيما تملك دون أى قيد أو شرط ، وذلك على خلاف الشرائع الإغريقية التي كانت تعتبر المرأة قاصراً وتشترط وجود وصى شرعى عليها . لكن المرأة المصرية لم تنعم طويلاً بهذه الحرية في عهد البطلمة ، فإنهم على الرغم من ادعائهم احترام التقاليد المصرية رأوا أن يساووا بين المرأة المصرية والمرأة الإغريقية ، وذلك دون شك لكي لا تنبهر الإغريقية وتضيق ذرعاً بحالتها إزاء ما كانت المصرية تنعم به من حقوق . إذ يعزى إلى بداية عهد بطليموس الرابع أمر ملكى يحظر على المرأة المصرية الزواج دون إذن وصى والتماقد مع طرف ثالث دون إذن زوجها ^(١) .

ولا يوجد ما يبرر الزعم القائل بأن المصريين أخذوا عن الإغريق ذلك النوع من عقود الزواج الذى يعرف بعقود المعاشرة « Syngraphai Synoikisiou » . فنحن نعتقد أنه كان لدى المصريين نوعان من الزواج وهما « الزواج الكامل » (gamos engraphos) و « زواج التجربة » (gamos agraphos) ، وأن النوع الأول كان يستهدف رابطة دائمة تنطوى على التزامات دائمة ، أما الثانى فكان رابطة مؤقتة لفترة معينة محددة في العقد . ونحن نعتقد كذلك أن إتمام الزواج

(1) Taubenschlag, Law of Greece, R. Eg., pp. 14---16.

عند قدماء المصريين كان لا يتطلب في أبسط مظاهره أكثر مما تقضى به الشريعة الإسلامية السمحاء من أن يقبل الطرفان الزواج من بعضهما ، لكنه لإثبات حقوق الزوجة والأولاد أصبح يتعين تحرير عقد . ومعنى ذلك أن العقد في الحقيقة لا يتم الزواج وإنما يثبت وجوده فعلاً .

ولا يوجد كذلك ما يبرر الزعم القائل بأن الإغريق أخذوا عن المصريين ذلك النوع من الزواج المسمى زواج التجربة وذلك النوع من عقود الزواج المعروف « بعقود الإعاشة » (Syngrophai trophitides) . فنحن نرى أن إغريق مصر لم يباشروا إلا نوعاً واحداً من الزواج كانوا يستخدمون فيه نوعين من التوثيق . لسكن يجب التفرقة بين زواج الإغريق الذين كانوا يعيشون في الاسكندرية و بطولييس والذين كانوا يعيشون خارج هاتين المدينتين . وفي الشق الأول من عصر البطلمية كان إغريق الفريق الثاني يمهّدون للزواج بتحرير « عقود الاتفاق » (Syngrophai homologias) وكانت خاصة بالدوطة^(١) ، وكان أمام الزواج يتطلب تحرير « عقود المعاشرة » وكانت أهم أركانها : النص على أن والدى العروس قد زوجها للعريس ، وعلى حقوق وواجبات الطرفين^(٢) . أما في القرن الثاني فقد حدث تطور هام إذ أن محتويات « عقود الاتفاق » اتسعت بحيث أصبحت تشمل كذلك نصوصاً خاصة بتنظيم الحياة الزوجية وتثبت قيام الزوجية^(٣) ، ولذلك كان يمكن الاكتفاء بهذه العقود والاستغناء بها عن « عقود المعاشرة »^(٤) . وواضح أن التطور الذي طرأ على عقود الزواج الإغريقية لم يكن نتيجة لتأثير التقاليد المصرية بل كان تطوراً طبيعياً . ولا جدال في أن عقود الزواج الإغريقية المتأخرة إغريقية خالصة في شكلها وفكرتها القانونية^(٥) .

(1) P. Hibeh II, 208; B. G. U. VI, 1463; P. Tebt. III, 815 fr. 4 recto, Col. 1, ll. 1—10.

(2) Wolff, Written and Unwritten Marriages in Hellen. and Postclassical Roman Law, pp. 15 ff.

(3) P. Freib. III, 26; 29; 30; P. Paris 13,

(4) Wolff, pp. 7 — 25.

(5) Wolff, pp. 25 — 32.

وترينا بعض الوثائق^(١) أنه في الاسكندرية وبطولييميس كان الطرفان يعقدان عقدا مدنيا (Synchoresis) . وفي إحدى الحالات^(٢) اتفق الطرفان على تحرير عقد ثان أمام هيئة كهنة الوحدات (Hierothytai) ، وفي حالتين أخريين^(٣) لم يرد إلا ذكر العقد الثانى أمام هيئة كهنة الوحدات . وإذا كان العلماء لم يتشككوا إطلاقا في أن العقد المدنى كان صحيحا قانونا وكفيلا بإقامة حياة زوجية صحيحة وصيانة حقوق الطرفين والأولاد ، فكيف نفسر ضرورة العقد الدينى ولا سيما إذا لم يوجد اختلاف جوهري بين محتويات العقدين ؟

إن ضرورة عقد زواج دينى بعد الزواج المدنى تدل على أن العقد الدينى كان أكثر أهمية من العقد المدنى . ويبدو أن مرد هذه الأهمية إلى أنه كان يكفل لأبناء الطرفين من المواطنين التمتع بحقوقهم السياسية . ولذلك نعتقد أنه حين كان كل إغريق الاسكندرية وبطولييميس يحررون العقد المدنى ، كان أفراد طبقة المواطنين فقط هم الذين يهتمون بتحرير العقد الدينى ، ولا سيما أنهم هم فقط الذين كانوا يسجلون في القبائل والأحياء والوحدات .

وفي قوانين الأحوال العينية تبدو مظاهر الأثر الإغريق فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام الخاصة ببعض الالتزامات وشئون الرقيق وحماية الملكية الفردية . ومن ناحية أخرى ادخلت على القوانين الإغريقية بعض أحكام القانون المصرى الخاصة بالالتزامات و « الرهن الضمانى » و « البيع الوفاى » وأهم نصوص عقدى المال والتنازل التى أدجوها فى عقد واحد شاع استخدامه فى البيوع . وإذا كان البطالمة قد سمحوا للمصريين والإغريق بتنظيم معاملاتهم وفقا لأحكام القوانين المدنية التى كان كل فريق منهما يألفها ، فإنهم أصدروا للفريقين قانونا جنائيا موحدا وفرضوا عليهما اتباع قواعد موحدة للإجراءات القضائية .

(1) B. G. U. IV, 1050--52, 1098 --- 1101.

(2) B. G. U. IV, 1098.

(3) B. G. U. IV, 1050; 1101.

ومن المسلم به أن حياة الإغريق الاجتماعية والثقافية والفنية في مدن مصر الإغريقية الثلاث وكذلك حياتهم السياسية في نقراتليس وبطوليميس كانت إغريقية بحت . وليس من الإسراف في الرأي القول بأنه حتى عصر بطليموس الرابع على الأقل كانت الإسكندرية تنعم بكل المظاهر السياسية الخليفة بمدينة إغريقية ذات سيادة ، أى أنها كانت تتمتع بمجلس بولى وجمعية شعبية وحكام تنتخبهم هيئة المواطنين ومحاكم مستقلة غير المحاكم الملكية .

وعلى كل حال لا سبيل إلى الشك في أن الإسكندرية بجامعة ومكتبتها الكبرى كانت المركز الرئيسى لإشعاع الحضارة الإغريقية في مصر بأجمعها . وتدل المصادر القديمة على اختلاف أنواعها على أنه إلى جانب تلك الطبقة الممتازة من الأدباء والعلماء الذين كانوا يعيشون في الإسكندرية ، كانت تعيش في نقراتليس وبطوليميس طبقة وسطى من رجال العلم والأدب .

وبسبب افتقارنا إلى الأدلة لاستطيع الكلام عن الأثر المتبادل في العلوم والطب ، على عهد البطالمة ، لكن يمكننا الجزم بأن الأدب الإغريقى البطلمى كان أدباً إغريقياً بحتاً ، فإن علماء الأدب انصرفوا إلى تحقيق النصوص الإغريقية القديمة وترتيبها وتبويبها . أما الكتاب والشعراء ، فقد انصرفوا إلى موضوعات لا تمت بصلة إلى الشعب المصرى أو البلاد المصرية ، حتى أن ثيوكرىتوس عندما كان يتغنى بوصف الطبيعة كان لا يصف مصر بل كوس وسيراكوز . وكان الشعراء الإغريق لا يعرفون عن مصر — حتى بعد أن عاشوا فيها — إلا ما قرأوه في القصص الإغريقية ، أو ما كتبه هيرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم إلى شيء من المميزات المحلية إلا ما يستطيعون استخدامه في إطراء الملك الذى يرعاهم^(١) .

وإذا كان بطليموس الأول قد اتبع سياسة تستهدف جمع شمل الإغريق والمصريين في ديانة مشتركة ، فإن البطالمة وقد نصبوا أنفسهم حماة للحضارة

(١) إبراهيم نصيحى ، ص ٨٠٥ .

الإغريقية لم يستهدفوا إطلاقاً مزج المصريين والإغريق ، خشية أن يتلاشى العنصر الإغريقى بسبب قلته وسط جموع العنصر المصرى بسبب كثرته . ولابد من أن ذلك كان الدافع وراء تحريم الزواج بين العنصرين فى مدن مصر الإغريقية .

ولابد من أن الدافع نفسه هو الذى أملى القاعدة التى كانت تلزم الإغريق عند ذكر أسمائهم فى الوثائق الرسمية بإضافة اسم مدينتهم الأصلية ووضعهم السياسى . وقد بقيت هذه القاعدة مراعاة فى خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد بفضل قوانين مشددة كانت تحظر الانتقال من إحدى فئات السكان إلى فئة أخرى ، أو إدخال أى تعديل على صفة الشخص القومية أو السياسية دون تصريح رسمى ، وفرضت على من يخالف ذلك عقوبة الإعدام .

وقد حاول إغريق الريف كذلك أن يتهجوا فى حياتهم نهجاً إغريقياً ، فهم لم يكتفوا بتكوين جمعيات قومية (Politeumata) ، بل أنشئوا كذلك فى كل مكان مراكز إغريقية ثقافية واجتماعية ، فلم توجد الجيمينازيا والپلا يسترا والجمعيات الدينية فى المدن الإغريقية فحسب ، بل كذلك فى كل عواصم المديريات وحتى فى القرى التى كان ينزل فيها عدد وفير من الإغريق .

ومعلوماً لنا عن تعليم إغريق مصر محدودة ، ومع ذلك فإنها تشير إلى أنه لم يكن بالبحان ولا إجبارياً ، وإلى أنه كان يتألف من ثلاث مراحل : وهى مرحلة التعليم الأولى ومرحلة الجيمينازيا ومرحلة التعليم العالى . وكانت الآداب الشائعة بينهم هى مؤلفات هوميروس ويورپيديس والسكوميديا الجديدة وأفلاطون . وكانت الموسيقى التى يستمعون إليها موسيقى إغريقية ، والمسرحيات التى يشاهدونها مسرحيات إغريقية ، واللعب التى يلهو بها أطفالهم من النوع الإغريقى المألوف . ولا جدال فى أن كل ذلك ينهض دليلاً على استمساك الإغريق بأساليب الحياة الإغريقية . وفضلاً عن ذلك كان وضعهم السياسى وحالتهم المالية أحسن بكثير من وضع المصريين وحالتهم ، فقد كانوا يتولون أرفع المناصب ويفوزون بأكبر الضياع وأخصبها ويتمتعون بأفضل الفرص لاثراء أنفسهم .

ولما كان الإغريق قد أحضروا معهم لغتهم وديانهم ومذاهبهم وعاداتهم وأساليب حياتهم وقوانينهم وتعاليمهم ، وكانت تشريعات البطالة قد استهدفت محافظة الإغريق على نحلهم وصفاتهم ، وكانوا يعيشون عادة في أوساط إغريقية : إما في المدن الإغريقية أو في جماعاتهم القومية والدينية والاجتماعية في طول البلاد وعرضها ، وكانت أفواج الإغريق تفقد على مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد فتطعمهم بدماء جديدة ، فلا بد من أنه وسط هذه الظروف قد حافظ إغريق مصر على إغريقتهم فبقوا إغريقاً خالصين على الأقل حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، عندما أخذت تتجمع عدة عوامل كانت لها نتائج ملموسة سنتناول الكلام عنها فيما بعد .

ومهما كان من أمر الإغريق في الشطر الأول من عصر البطالة ، فإنهم لم يكونوا إلا أقلية تعد بالآلاف بالنسبة لغالبية سكان البلاد من المصريين الذين كانوا يمدون بالملايين ، ولهم حضارة راسخة ذات تقاليد عتيقة . ولا جدال في أن المصريين بوجه عام استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل محتفظين بماداتهم وتقاليدهم يمدون آلتهم ويخضعون لقوانينهم الفرعونية ، يفتح ملاينهم الأرض ويشغل ألوفهم بالصناعة والتجارة ، وأنخرط بعضهم في سلك الجيش والبعض في خدمة الحكومة ، لكن قلما شغل أحد منهم مناصب خطيرة بعد عهد بطلميوس الأول وقبل عهد البطالة الأواخر . ولا تذكر الوثائق شيئاً عن مصير الأرستقراطية المصرية بعد عهد بطلميوس الأول ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى الافتراض أن بطلميوس الثاني حرّمها مناصبها وضياعها وأنه منذ ذلك الوقت أصبح الكهنة يؤلفون كل ما هنالك من أرستقراطية مصرية . فقد كانت جماعاتهم الدينية في طول البلاد وعرضها منظمة تنظيماً قوياً لا يمكن العبث به دون إثارة متاعب شديدة في وجه البطالة . ومع أن الكهنة كانوا يعتبرون طبقة ممتازة فإنهم لم يفلتوا من بطش البطالة الأوائل الذين قيدوهم بأغلال من

القوانين أخضعتهم لسلطانهم وكسرت شوكتهم مدة طويلة . ولم ينجح المحاربون المصريون كذلك من عسف البطالة الأوائل ، فقد أنزلوهم من عليائهم إلى الحضيض ، حتى أخذت تتحسن حالهم منذ عهد بطلميوس الرابع .

وكان المصريون يلتقون في أندية جمعياتهم أو في بيوت الأعيان ، كما هي اليوم حال أهل الريف ، أو في المعابد ليستمعوا إلى قاداتهم الروحيين ويمبروا لهم عن مظالمهم .

وتشير الدلائل إلى وجود ثلاث مراحل تعليمية في مصر القديمة : أولية ومتقدمة وعالية^(١) . ويبدو أنه منذ عهد الدولة الوسطى على الأقل كان التلاميذ يتابعون دراسة المرحلة التعليمية الأولى إما في مدارس ملحقة بالمعابد أو في مدارس صغيرة لا يوجد ما يستدل منه على أنها كانت تتصل بالمعابد أو تخضع للحكومة ولذلك يمكن اعتبارها مدارس أهلية . ومنذ عهد الأسرة الثامنة عشرة على الأقل كان الصبية يتابعون المرحلة التعليمية الثانية إما في مدارس المعابد أو في ذلك النوع من المدارس الذي يجوز أن يطلق عليه اسم المدارس الأهلية .

ويبدو أنه كان لكل معبد مدرسته ومكتبته ، وأن التعليم في مدارس المعابد لم يقتصر على الدين بل كان متنوعاً ويكثر فيه تدريس الآداب^(٢) . ولا شك في أن مدارس المعابد كانت أعرق المدارس المصرية وأرقاها جميعاً ، لأن المنشآت الدينية كانت أقدم عهداً من سائر المنشآت ، ولأن الكهنة كانوا أكثر الطبقات المصرية علماً ، ولأن الديانة كانت تلعب دوراً كبيراً في حياة المصريين القدماء^(٣) .

ولا يبعد أن أكثر الصبية كانوا يكتفون بالمرحلة التعليمية الأولى

(١) راجع رسالة الدكتور عبد العزيز صالح « التربية والتعليم في مصر القديمة » وهي رسالة لم تنشر بعد ولكنها محفوظة في مكتبة جامعة القاهرة .

(2) Dawson, The Age of the Gods, pp. 76 — 7, 112. — 3, 123, 132.

(٣) Encyclop Americ., Vide Heliopolis.

ليتكسبوا بعد ذلك قوتهم إما بمزاولة إحدى المهن الحرة أو بالأخراط في سلك
صغار الكتبة الذين كانت دواوين الحكومة تخرجهم . وتوجد منذ عصر
العامسة قرائن واضحة على اشتراك إدارات الحكومة في مرحلة التعليم
المتقدمة . ويفهم من النصوص أن الموظف كان لا يعلم أكثر من شخص واحد
في وقت واحد للنهوض بأعباء وظيفة معينها ، ومعنى ذلك أنه لم توجد
في إدارات الحكومة مدارس على النحو المفهوم .

ومع ذلك لم يقتصر التعليم في دور الحكومة على الإعداد المهني ، فقد كان
جزء منه أدبيا . وتشير الدلائل إلى أن الإدارات التي كانت تبشر هذه المرحلة
من التعليم كانت إدارات بيت المال وإدارات الجيش . وبين أن التعليم
في إدارات الجيش لم يكن المقصود منه إعداد كتبة في هذه الإدارات ، وإنما
إعداد ضباط في الجيش . ويبدو أن الإدارات المتصلة بالمعابد أيضا كانت
تقوم بنوع يشابه ما تقوم به إدارات الحكومة .

وإذا كان من الطبيعي أن توجد مدارس المرحلتين الأولى والثانية في مختلف
أنحاء البلاد ، فإن معاهد المرحلة العالية لم توجد إلا في المراكز الثقافية
الكبيرة التي نلاحظ أنها كانت في الوقت نفسه مراكز دينية مهمة ، وهي
هليوپوليس ومنف وهرموبوليس (الأشمونين) وطيبة وسائس ، إذ أن هذه
المدن ، التي كانت تقوم فيها معابد عظيمة ، ضربت بسهم وافر في دراسة
الدين والفلسفة والفلك والطب والحساب والعمارة^(١) . ومما يؤسف له أن
المصادر المصرية التي تتناول مرحلة الثقافة العالية قليلة ولا تشفى الغلة ، لكنه
يشهد برقي حياة مصر الفكرية إشادة المصادر الإغريقية بحكمة المصريين القدماء ،
ووفود الكثيرين من أبرز الشخصيات الإغريقية للانتقال من مواردها العذبة .

(1) Kees, Religionsgesch. Lesebuch, Tübingen, 1928, nr. 21, 70; Sethe, in
Murray, Saqqara Mostabas II, p. 111; Wainright in J. E. A. 1940, p. 32.

وتوحى كل القرأن باتصال مرا كز الثقافة العالية بالمعابد في مصر اتصالاً وثيقاً ، حتى ليخيل إلينا أن مقر تلك المراكز كان إما في المعابد ذاتها أو في مدارس ملحقة بها . إذ يتبين من المراجع القديمة أن كهنة مصر كانوا أوسع أهلها علماً ، ولا سنياً أنه لا يوجد ما يمكن الاستدلال منه على أنه كان للتعليم الديني في مصر طابع خاص^(١) . ويؤيد ذلك عدم انعزال الكهنة عن الحياة العامة ، بدليل أنه قلما اقتصر نشاط كاهن بارز على أعمال الكهانة وحدها دون الوظائف المدنية في القصر أو الحكومة . وفضلاً عن ذلك فإن معابد مصر كانت تضم مكتبات عامرة ، إذ يبين أن إنشاء مكتبات في المعابد المصرية كان تقليداً راسخاً ظل محترماً حتى في العصور المتأخرة .

ونستخلص مما أسلفناه أنه كانت توجد ثلاثة أنواع من دور العلم عند المصريين القدماء وهي مدارس المعابد والمدارس الخاصة بإدارات الحكومة . ولا جدال في أن إدارات الحكومة استمرت تباشر مهمة الإعداد لتولى المناصب الحكومية ، بل لعل نشاطها إزداد زيادة كبيرة في بداية عهد البطلمة ، حين كانوا يعيدون تنظيم الأداة الحكومية . ولما كانت اللغة الإغريقية قد أصبحت عندئذ اللغة الرسمية في البلاد ، وكان مديرو المصالح وكبار الموظفين قد أصبحوا إغريقاً ، فلا بد من أن تدريس الإغريقية قد غدا جزءاً من الدراسة في دور الحكومة . ولما كانت المناصب العليا قد أصبحت وقفاً على الإغريق ، فإن تلك الفئة من المصريين التي لم تر بأساً في الالتحاق بإدارات الحكومة للتدريب على شغل المناصب الصغرى قد فرض عليها تعلم اللغة الإغريقية . ومع ذلك لا يخامرنا الشك في أن أغلب أولئك الموظفين كانوا لا يتذوقون شيئاً من الآداب الإغريقية ، وفي أن حظهم من الحضارة الإغريقية كان تافهاً .

وليست لدينا قرائن على استمرار المدارس الأهلية في محاولة نشاطها في عهد

(1) Gardiner, J. E. A., XXIV, p. 159 fn 3.

البطالة ، لكن إذا فرضنا جدلاً أنها لم تنقطع عن ذلك فإنه إزاء الدلائل على صغرها ورقة حالها نستبعد أن تراجعها كانت تتسع لتعليم الإغريقية .

وإذا كان البطالة لم يكتسوا مدارس المعابد برعايتهم ، وكانت معاهد الثقافة العالية قد فقدت مكانتها القديمة إزاء عظمة معهد الإسكندرية ، فلا شك في أن المعابد المصرية أو على الأقل أكثرها ثراء احتفظت بمدارسها^(١) . وإذا كانت الإغريقية قد اقتحمت طريقها إلى إدارات الحكومة ، فإننا نكاد نجزم بأن مدارس المعابد أوصدت دونها أبوابها ، وذلك لأن هذه المدارس كانت المعادل الحصينة للثقافة المصرية واشتهرت بأستمسائها بتقاليدها على مر العصور . ولعل مرد ذلك إلى أن أقطاب هذه الثقافة كانوا رجال الدين وهم بطبيعتهم فئة محافظة كانت تعتبر أفرادها حراساً أوفياء على تراث الماضي . ولذلك لم تتغير تقريباً محتويات مكتبات المعابد في عصر البطالة ، بل في العصر الروماني مما كانت عليه من قبل^(٢) ، ولذلك أيضاً لا شك عندنا في أن الثقافة المصرية لم تتأثر بوجه عام بالثقافة الإغريقية في عصر البطالة .

ومع ذلك تشير القرائن إلى أن فئة من الكهنة النابهين وبقايا الأرستقراطية الدنيوية المصرية قد تعلموا الإغريقية ، ولا يبعد أنهم قد تعلموا ذلك على أيدي مدرسين خصوصيين أو في المدارس الإغريقية المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد . ولعل ذلك كان أيضاً شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة إغريقية طمعا في الفوز بمركز يعادل مركز الإغريق .

ويبدو مما مر بنا أنه لما كانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، وكانت فئة الكهنة النابهين وبقايا الأرستقراطية الدنيوية وفئة الوصوليين قليلة العدد ، وكان

(1) Encycl. Brit., ed. 11, vide Heliopolis.

(2) Thompson, Ancient Libraries, Berkeley, California, 1940, p. 2.

حفظ صغار الموظفين من الثقافة الإغريقية تافها ، فأبنا نستطيع أن ندرك كيف كان تغلغل الثقافة الإغريقية بين المصريين محدودا .

وليس من العسير أن نتصور شقاء المصريين في عصر البطلمة ، إذ أنهم لم يكونوا خاضعين للولك غرباء فحسب بل كذلك لجنس غريب بأسره تغلغل في جميع نواحي حياة البلاد ، فلم تنج طبقة مصرية واحدة من استبداد البطلمة واستغلال الإغريق . وقد عرفنا كيف أثقل البطلمة كاهل المصريين بالضرائب الفادحة والتكاليف المرهقة ، وكيف وضعوا يدهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل ^(١) ، وكيف استولى الإغريق على أرفع المناصب وأخصب الفتيان وأوسعها بل أمتدت أيديهم حتى إلى داخل المنازل ، وكيف قضى البطلمة على الأرستقراطية الأهلية الدنيوية ، وكيف أذلوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين . فلا عجب أن نبؤة صانع الفخار (Potter's Prophecy) ^(٢) تعرب عن كراهية المصريين العميقة للاسكندرية وعدائهم الدفين للأجانب وأملهم في ظهور زعيم وطني يحرر البلاد من منتصبها ويميد الماصمة إلى منف ويتولى حكم مواطنيه .

ولما كان سكان البلاد بوجه عام ينقسمون في القرن الثالث قبل الميلاد طبقتين منفصلتين عن بعضهما تمام الانفصال : طبقة عليا مكونة من الإغريق سادة البلاد الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى ، ويميشون في أوساط خاصة بهم ويحيون حياتهم التي اعتادوا عليها في بلادهم ؛ وطبقة سفلى من المصريين كانوا عباد هؤلاء السادة الأجانب ويشعرون بأنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم إلا أنهم استمروا يحتفظون بماداتهم وتقاليدهم ويندكرون مجدهم التالد — فهل من سداد الرأي أن يتصور أحد أنه كان يتيسر حدوث اختلاط اجتماعي كبير بين هاتين الطبقتين ما بقيت هذه الظروف ؟

يرى كثير من المؤرخين أن الإغريق لم يروا غضاضة في الأصهار إلى المصريين ،

(1) Jougue, Mac. Imp., p. 33.

(2) Melanges Maspero II, Le Caire, 1939, pp. 119 - 20.

ويفسرون ذلك بأن أغلب الإغريق والمقدونيين كانوا يفدون على مصر للاستئصال بالخدمة ومن ثم لا بد من أن عدد الرجال بينهم كان يفوق كثيرا عدد النساء ، وأنه إذا كانت الوثائق البردية تنبئنا بأن الكثير منهم اتخذوا زوجات غير مصريات فإن عدد مثل هؤلاء السيدات كان لا يكفيهم جميعا ولذلك اتخذ كثير منهم زوجات مصريات^(١) . إن هذا الرأي لا يقوم إلا على افتراضات لا سند لها ، إذا أن دعامة الاساسية الافتراض أن أكثر هؤلاء الأجانب جاءوا للخدمة العسكرية في مصر ولذلك لا بد من أن عدد رجالهم كان يفوق عدد نساءهم مما كان يؤدي حتما إلى اتخاذ الكثير منهم زوجات مصريات . لكن لا يمكن القول بأن أغلب الأجانب في مصر كانوا جنودا ، وإن كان يمكن القول أن رجال الجيش كانوا أكبر فئة من فئات إغريق مصر ، وهناك فارق كبير بين القولين . وفضلا عن ذلك فإن أغلب أولئك الجنود جاءوا لايحاربوا حملة واحدة أو عدداً معيناً من الحملات ثم يعودوا إلى أوطانهم بل جاءوا ليستقروا في مصر ، ولذلك ليس لدينا ما يؤيد الزعم بأن عدد الرجال كان أكثر من عدد النساء بين الإغريق والمقدونيين ولا سيما أن الإغريق كانوا يفدون على مصر باستمرار طوال القرن الثالث . ونحن نعتقد أنه ليس من الأسراف في الرأي القول بأن المسكرين الذين جاءوا ليستقروا في مصر وأغلب أفراد الفئات الأخرى من المهاجرين ، ولا سيما أولئك الذين استقروا في المدن الإغريقية قد جاءوا وفي صحبتهم أسرهم ، وأنه كان في وسع كل هذه الأسر توفير عدد كاف من الزوجات لغير المتزوجين من المهاجرين .

والقائلون بوجود تزاوج بين الإغريق والمصريين يؤيدون وجهة نظرهم بأنه في تسع وثائق من القرن الثالث^(٢) قد ورد ذكر أشخاص يحملون أسماء إغريقية لكن لهم ابنا أو ابنة أو أكثر أو أخا أو زوجة أو عمة يحملون أسماء مصرية أو أسماء

(1) Bevan, p. 86.

(2) Wilcken, Chrest. 51; P. S. I. 384; S. B. 7402, 25, S. B. 5680; S. B. 5729; S. B. 2135; P. Lille, 55; P. Demot. Strass. p. 31, 177; P. Demot. Zen. 4.

مصرية وإغريقية . ونحن نعتقد أن اتخاذ أسماء أجنبية لا يستتبع حتماً أنه نتيجة زواج مختلط إلا إذا كان مصحوباً بقرائن أخرى، لكنه يدل بانتماء كيد على وجود اتصال وثيق مع الأجانب . ولا أدل على ذلك من المواطنين الذين يعيشون بين ظهرانينا وأسمائهم إنجليزية أو فرنسية مع أن والديهم من المصريين الصميين . ومن المسلم به أنه بعد هجرة اليهود من مصر ظهر بينهم اتجاه نحو استخدام أسماء أجنبية ، وإن هذه الاتجاه إزداد على مر الزمن إلى حد أنه في مصر الهيلينستي أصبحت الأسماء الإغريقية وحتى أسماء الآلهة الإغريقية شائعة بين اليهود رجالاً ونساء .

وإزاء الاعتبارات التي أسلفناها قد يكون من الأوفق تفسير الوثائق المشار إليها على اعتبار أنها قرائن على بداية ذلك الاتجاه الذي اتسع نطاقه في القرن الثاني باتخاذ كثير من المصريين أسماء إغريقية وكثير من الإغريق أسماء مصرية . ومعنى ذلك أنه في القرن الثالث قبل الميلاد أخذ بعض المصريين وبعض الإغريق يقتربون إلى بعضهم بعضاً . ويبدو أن غالبية الوثائق التسع المشار إليها تكشف عن مصريين اتخذوا أسماء إغريقية ، على حين تكشف وثيقتان فيما يبدو عن اتخاذ إغريق أسماء مصرية . وفي وثيقة واحدة توجد قرائن على حدوث التزاوج إذ ترى في هذه الوثيقة أن إيرين وثيو كسانا ابنتي ديمتريوس من برقة كانت لهما أم مصرية تدعى ثاسيس ، ودلينا على ذلك أنه لم يكن للبنتين اسمان مصريان فحسب إلى جانب اسميهما الإغريقيين بل أنهما اهديا معبداً إلى الآلهة المصرية ثوريس^(١) (Thoreris) .

وإذا كان من بين كل وثائق القرن الثالث لم تصلنا إلا وثيقة واحدة يمكن اتخاذها قرينة على حدوث التزاوج ، فإن هذا يؤيد ما نذهب إليه من أنه بسبب الظروف التي كانت سائدة عندئذ لا بد من أن الاختلاط الإجتماعي بين الإغريق والمصريين كان محدوداً جداً . ولسنا نقصد طبعاً أن التزاوج لم يحدث إلا مرة واحدة ولا أن اتخاذ أسماء أجنبية كان مقصوراً على تلك الحالات التي مر بنا ذكرها ، وإنما

(1) Wilcken, Chrest. I, 51.



جزء من زخرفة مقبرة پتوسيريس

نعني أن التزاوج وقيام صلات اجتماعية وثيقة بين المصريين والإغريق كانا غير مألوفين في القرن الثالث قبل الميلاد .

وتعتبر المناظر التي زينت بها جدران مقبرة پتوسيريس دليلا على أن المصريين أخذوا عن الإغريق طراز ملابسهم . وهذا الرأي مقبول بشرط ألا نعتبره قاعدة عامة لأن المناظر نفسها ترينا مصريين بملابسهم التقليدية المعتادة . وعلى كل حال فإن أخذ أسماء إغريقية أو ارتداء ملابس إغريقية لا يدل على اتجاه حضارى معين .

ومنذ أواخر القرن الثالث تكاثفت عدة عوامل لتهيأة حدوث تغييرات كبيرة في الحياة الاجتماعية في مصر . فقد غدا أرباب الإقطاع الإغريق في الواقع بمثابة ملاك لهم مصالح دأمة في البلاد ، وذلك وسط ظروف قلق مضطربة وحين لم يعد ميسورا تطعيمهم بدماء جديدة من جراء انقطاع مجيء الإغريق . وفي الوقت نفسه كان البطالة يسعون حثيثا لكسب عطف المصريين بما اعتدوه عليهم من متعج (م ١٥ — البطالة)

وفتحوه أمامهم من مجال لتولى المناصب الكبيرة . وإزاء كل ذلك أخذ كثير من الإغريق يتعلمون اللغة المصرية ويظهرون اهتماما جديا بشئون جيرانهم المصريين ويحاولون كسب ثقتهم .

ومن ناحية أخرى رحب كثير من المصريين بهذه التطورات ووجدوا أنه من المجدى عليهم تعلم الإغريقية ، فقد كان ذلك يكسبهم وضع الإغريق بكل ما يستتبعه من الامتيازات . ويبين أن كل هذه التطورات مهدت لحدوث قدر من التقارب بين الجنسين ، وأن هذا التقارب ساعد على تمصير كثير من الإغريق وأغربة كثير من المصريين وشجع على الزواج بين هذه العناصر . ومع ذلك يبدو أن من الخطأ المبالغة في مدى هذا التقارب وأثاره بحيث نتصور زوال الفوارق أو انتشار الزواج انتشارا واسعا ، اذ يجب ألا ننسى أن المدن الإغريقية كانت لا تعتبره زواجا مشروعاً ، وأنه لم يكن أمراً طبيعياً مستساغاً اتساع نطاق الزواج بين عنصرين يختلفان عن بعضهما اختلافاً كبيراً ولا سيما أنهما استمرا قرابة قرن ونصف قرن يعيشان منفصلين . وفضلاً عن ذلك فإن الشطر الثاني من عصر البطالة شهد ثورات المصريين ضد البطالة والإغريق وما ارتكبه الإغريق في تلك الثورات من فظائع .

ومما يستحق الذكر أنه بالرغم من أن الكثيرين من الأغريق عبدوا آلهة مصرية فإن هؤلاء الأغريق ، مثلهم مثل باقى الأغريق ، لم يتخلوا عن آلهتهم القديمة ، وبالرغم من أن الكثيرين منهم تزوجوا وتعلموا المصرية القديمة واتخذوا أسماء مصرية ، فإنهم احتفظوا كذلك بأسمائهم الإغريقية وثقافتهم الإغريقية مدفوعين إلى ذلك إن لم يكن بدافع الاعتزاز والفخر بأصلهم وحضارتهم فعلى الأقل بدافع الافادة من مكائبتهم بوصفهم إغريقاً وما يستتبعه ذلك من الامتيازات . وعلى كل حال فإن هذه الفئة من الأغريق لم تسكن إلا الأقلية بالنسبة للغالبية .

المعظمى من الإغريق الذين تميل إلى الاعتقاد انهم بقوا أغريقا خالصين في كل نواحي حياتهم .

ومع ذلك لما كان الإغريق يعيشون وسط بيئة غريبة عنهم ووسط الاضطرابات العنيفة المترتبة على الثورات القومية والمنازعات الاسرية ، وكان قد انقطع وفود أفواج جديدة من بلاد الإغريق تجدد دماءهم وتنفخ في صورتهم وتنعش روحهم ، فقد كان طبيعيا أن تتدهور روحهم الإغريقية . لكن حظر التزاوج في المدن الإغريقية واستمرار بقاء دار العلم والمكتبة الكبرى في الإسكندرية ومختلف أنواع المنتديات الإغريقية في كل مدن مصر الإغريقية كانا خير ضمان لبقاء هذه الروح إغريقية مهما أصابها من وهن وضعف .

وقد كان طبيعيا كذلك أن يكون لتنفيذ الأحوال أثر أبعد مدى في إغريق الريف فيصيب روحهم الإغريقية قدر أكبر من الضعف والوهن ، لكن أثر المدن الإغريقية وكذلك أثر المنتديات الإغريقية التي أنشئت حينما وجد عدد كاف من الإغريق ، وأخيراً الامتيازات الاجتماعية والمالية المترتبة على التمتع بوضع إغريق وثقافة إغريقية كانت خير ضمان لبقاء الروح الإغريقية في الريف إغريقية مهما حاق بها من ضعف . وقد كان هذا الضعف بطبيعة الحال أشد وأقوى مما أصاب روح إغريق المدن .

ويجب ألا يفوتنا أن نؤكد الحقيقة التي كان روستوفتوف أول من لاحظها وهي أن ما أصاب الروح الإغريقية من ضعف وتدهور لم يكن نتيجة لاختلاط الإغريق بالمصريين وإنما نتيجة لما طرأ على الروح الإغريقية من تطور بسبب وجودها في بيئة غريبة ووسط ظروف لم تألفها من قبل .

أما المصريون فانهم وقد كانت لهم عادات ثابتة تقوم على أسس حضارية وديانة ترجعان إلى أقدم المصور بقوا مصريين خالصين في مجموعهم . ومع

ذلك فان اتصالهم بالإغريق كان له أثره فيهم ، فقد تزوج كثير منهم مع الإغريق وتعلم الكثير منهم الإغريقية واتخذوا أسماء وملابس إغريقية . لكن يبين أن تأغرقهم لم يتعدأ أكثر من هذه المظاهر الخارجية في أغلب الأحوال . ويلاحظ أن الديانة الإغريقية لم تستهزم على الإطلاق ، وأنهم عندما تعلموا الإغريقية لم يهملوا المصرية ، وعندما اتخذوا أسماء إغريقية لم يسقطوا الأسماء المصرية . وعلى كل حال إذا كان كثير من المصريين قد اقتبسوا بمض المظاهر الخارجية للحضارة الإغريقية ، فإن هؤلاء المصريين لم يكونوا إلا قلة قليلة بالنسبة لغالبية المصريين الذين بقوا مصريين صميمين . ونحن نعتقد اعتقاداً جازماً أنه طالما احتفظ المصريون بمعتقداتهم الدينية القديمة احتفظوا كذلك بتقاليدهم القديمة وثقافتهم القديمة وكل أساليب حياتهم القديمة . وينهض طراز الفن البطلمي دليلاً قوياً على لون حضارة كل من العنصرين المصري والإغريقي ، ومدى تأثر أحدهما بالآخر . وبسبب ندرة ما وصل إلينا من التصوير البطلمي ، فإننا سنقتصر ملاحظتنا على فني العمارة والنحت . إن الغالبية العظمى من بقايا هذين الفنين تشير إلى احتفاظ كل من الفن المصري والفن الإغريقي بخصائصه القومية طوال عصر البطالمة . هذا وإن كانت الآثار تشير إلى محاولات طفيفة تجاه مزج طرز الفنين ، لكنها كانت محاولات غير ناجحة . ومن ثم كانت البقايا التي تدل عليها قليلة في عددها متواضعة في قيمتها الفنية ، بالنسبة إلى بقايا الفن المصري الخالص ، والفن الإغريقي الخالص . فقد كان كل من الفنين المصري والإغريقي يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، ولذلك كان من العبث مزجهمما والفوز بمنتجات خليقة بما عرف عن المصريين والإغريق من الذوق الفني الرفيع . فلابد إذن أنه طالما احتفظ المصريون والإغريق بمستوى ذوقهما الفني ، احتفظ كل من الفن المصري والفن الإغريقي بطابعه الخاص ، وكانت محاولات المزج بين الفنين محدودة^(١) .

(1) Noshy, The Arts in Ptolemaic Egypt, p. 142.

خلال العصر الرومانى كبرت هذه المحاولات ، وفى الوقت نفسه قلت المبتكرات الفنية الجديدة بهذا الاسم .

إن الإغريق عندما انتقلوا إلى مصر حرصوا على أن يحضروا معهم تقاليدهم وعاداتهم ، واستمسكوا بأساليب حياتهم وحضارتهم التى كانوا يعتبرونها أرقى الحضارات طراً ، ولا سيما أنه قد توافرت لهم فى مدن مصر الإغريقية ، وفى الجاليات الإغريقية المنتشرة بين جنبات الوادى خارج هذه المدن ، كل الأسباب التى تساعدهم على أن يحيا حياة إغريقية خالصة . وإذا كان كثير من الإغريق قد تأقلموا ، فإن غالبيتهم العظمى بقيت بوجه عام إغريقية .

ومن ناحية أخرى استمرت الكثرة العظمى من المصريين تعيش بوجه عام كما كان أجدادهم يعيشون . فقد استمسكوا هم أيضاً بعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم واعتزوا بحضارتهم القديمة المحببة التى لم يكن قد مضى عندئذ وقت طويل منذ كانت أعظم حضارة فى العالم القديم . بل حتى عهد قريب كان الإغريق أنفسهم يحجون إلى مصر للاعتراف من مناهل تلك الحضارة . وإذا كنا لا نزال حتى اليوم نفاخر بحضارة أجدادنا على الرغم من تقادم عهدها ، فإننا لاندعش إذا كان أجدادنا فى عصر البطالة — أى منذ اثنين وعشرين قرناً تقريباً — يزهدون ويفخرون ويتمسكون بحضارة أجدادهم .

وبعد فإننا نستطيع أن نستخلص مما أوردناه أن قيام حضارتين مجيدتين — كالحضارة المصرية والحضارة الإغريقية جنباً إلى جنب — كان طبيعياً أن يؤدي إلى التقائهما فى بعض النواحي . لكن استمساك كل من أهل هاتين الحضارتين بحضارتهم حال دون اقترابهما وامتزاجهما امتزاجاً كاملاً ، بحيث تغلب إحداها على الأخرى . حقاً كانت الحضارة الإغريقية أرقى حضارة فى العالم يومئذ ، بل كانت حضارة حكام مصر ، لسكن الحضارة المصرية كانت حضارة عريقة ،

وحضارة أمة أثبتت في كل أدوار تاريخها الطويل قوة حيويتها وشدة استمساكها بتقاليدها ، فلم يفلح غازي من غزاتها العديدين في أن يفرض عليها طابعه الخاص . ويجب ألا يغرب عن البال أنه إذا كان في وسع أي حاكم قوى أن يدخل في دولته ما يحلو له من نظم الحكم والقوانين والإصلاحات الاقتصادية ، وأن يعمل جنوده ما يشاء من فنون الحرب ، وأن يجعل لغة بعينها اللغة الرسمية في البلاد ، فإن هذا الحاكم مهما توافر له من السلطة المطلقة لا يستطيع أن يفرض حاكمه الجديدة على رعاياه ، ولا سيما إذا كانت لهم حضارة قومية عريقة قوامها معتقدات دينية متغلغلة في نفوسهم حتى الأعماق .

مطبعة المعرفة
عمارة البعثين بالكويت

مطبعة المعرفة
قاهرة - بيروت - طرابلس

To: www.al-mostafa.com